الأكثر مبيعاً 1 في أمريكا

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

امرأة صالحة

A GOOD WOMAN

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

امرأة صالحة
A Good Woman

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

ترجمة

تيا معوض

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الفصل الأول

في صباح 14 أبريل 1912، كانت آنابيل ورثينغتون تقرأ بهدوء في مكتبة منزل أهلها، المطلة على الحديقة الكبيرة والمسيّجة. بدأت أولى إشارات الربيع بالظهور، وقد زرع البستانيون الأزهار، وبدا كل شيء جميلاً لعودة أهلها في الأيام القليلة المقبلة. المنزل الذي تتشاركه معهما ومع أخيها البكر روبرت هو قصر كبير ومهيب في الجهة الشمالية للجادة الخامسة (فيفث أفنيو) في نيويورك. يرتبط آل ورثينغتون وآل سنكلير، عائلة أمها، مباشرة بآل فاندربيلت وآل أستور، ونوعاً ما بطريقة غير مباشرة بأهم العائلات في نيويورك. والدها، أرثر، يمتلك ويدير أهم مصرف في المدينة. عملت عائلته في القطاع المصرفي طوال أجيال عدة، تماماً مثلما فعلت عائلة أمها في بوسطن. أخوها روبرت، ابن الأربعة والعشرين ربيعاً، يعمل مع والدها منذ ثلاثة أعوام. وطبعاً، حين يتقاعد أرثر يوماً ما، سيدير روبرت المصرف. مستقبلهم، تماماً مثل تاريخهم، يمكن توقّعه، فهو مضمون وآمن. من المريح أن تترعرع آنابيل في حماية هذا العالم الآمن.

يحب والداها بعضهما، ولطالما كانت مقرّبة من روبرت وتتفق معه. لم يحصل أبداً أن أزعجهم أو ضايقهم شيء ما. المشاكل البسيطة التي صادفوها كانت دوماً تعالَج وتُحلّ على الفور. ترعرعت آنابيل في عالم مخملي أو بالأحرى ذهبي، وكانت طفلة سعيدة بين أشخاص لطفاء ومحبين. الأشهر القليلة الماضية كانت مثيرة بالنسبة إليها، بالرغم من أنها مُنيت مؤخراً بخيبة أمل كبيرة. ففي شهر ديسمبر، مباشرة قبل الميلاد، قُدّمت إلى المجتمع في حفل مذهل أقامه أهلها. إنه حفل تقديمها إلى المجتمع، وأصرّ الجميع على أن يكون أفخم وأجمل حفل تقديم عرفته نيويورك منذ

أعوام. تحب أمها إقامة الحفلات الجميلة، لقد كانت قاعة الحفلات في منزلهم رائعة، والفرقة الموسيقية التي عزفت هي الأشهر في المدينة، حضر الحفل أربعمئة شخص، والفستان الذي ارتدته آنابيل جعلها تبدو مثل أميرة من عالم الخيال.

آنابيل صغيرة الحجم ونحيفة الجسم، وهي حتى أقصر من أمها. إنها شقراء صغيرة ذات شعر حريري طويل وعينين زرقاوين كبيرتين. إنها جميلة، مع يدين وقدمين صغيرتين، وقسمات مثالية. خلال طفولتها، لطالما قال والدها إنها تبدو مثل دمية من البورسلين. وهي في الثامنة عشرة من عمرها، تملك طلة جميلة لا سيما وأنها نحيلة ومتناسقة القوام، فضلاً عن كونها لبقة ورقيقة. كل شيء فيها يوحي بالأرستقراطية التي ورثتها، وولدت فيها هي وكل أسلافها وأقاربها.

تشاركت العائلة ميلاداً جميلاً في الأيام التي تلت الحفل، وبعد كل الحماسة، والحفلات، والسهرات مع أخيها ووالديها، وارتدائها فساتين سهرة رقيقة في ظل برد الشتاء، أصيبت آنابيل في الأسبوع الأول من شهر يناير بأنفلونزا حادة. قلق أهلها حين تفاقم المرض سريعاً وتطوّر إلى التهاب الشعب الرئوية، وكاد يتحوّل إلى التهاب الرئتين. لحسن الحظ، ساعدها صغر سنها وصحتها العامة الجيدة على التعافي. إلا أنها بقيت مريضة، وكانت تعاني من ارتفاع درجات حرارة جسمها كل مساء ولشهر تقريباً. أخيراً، فضّل طبيب العائلة ألا تسافر نظراً إلى وضعها الصحي الذي لم يبلغ مرحلة الشفاء التام بعد. فقد كان أهلها قد خططوا للقيام برحلة لشهرين، لزيارة أصدقاء في أوروبا، وكانت آنابيل لا تزال تتعافى حين غادروا على متن السفينة موريتانيا في منتصف شهر فبراير. لقد سافرت معهم على السفينة نفسها مرات عدة قبلاً، وعرضت عليها أمها البقاء معها في المنزل هذه المرة، لكن حين غادروا، كانت آنابيل بصحة جيدة كفاية لتركها بمفردها. أصرّت آنابيل على أمها ألاّ تحرم نفسها من الرحلة التي تتطلّع إليها منذ مدة. أسفوا جميعاً لتركها بمفردها، وشعرت آنابيل بخيبة أمل كبيرة، لكنها اعترفت أنه بالرغم من شعورها بالتحسن حين غادروا، كانت

لا تزال تشعر أنها غير مؤهلة للقيام برحلة طويلة لمدة شهرين. طمأنت أمها، كونسويلو، أنها ستهتم بالمنزل في غيابهم. إنهم يثقون بها تماماً.

آنابيل فتاة لا تشغل البال، أو تستفيد من غياب أهلها. أسفوا فقط لأنها لم تستطع الذهاب معهم، مثلما أسفت آنابيل نفسها. ودّعتهم بودّ في حوض كونارد في شهر فبراير، لكنها عادت إلى المنزل وهي تشعر بالقليل من الاكتئاب. أبقت نفسها مشغولة بالقراءة والاهتمام بمشاريع في المنزل ترضي أمها. أنجزت تطريزاً جميلاً، وأمضت ساعات في رتي بياضات الأسرّة والطاولات. لم تشعر أنها بحالة جيدة بما يكفي للمشاركة في مناسبات اجتماعية، لكن صديقتها المقرّبة هورتانس كانت تزورها غالباً. أقامت هورتانس أيضاً حفل تقديمها إلى المجتمع هذه السنة، وتعتبر الفتاتان صديقتين حميمتين منذ الطفولة. لهورتي حبيب، وقد أكدت لها آنابيل أن جايمس سيطلب يدها بحلول الفصح. تبيّن أنها محقة، وأعلنا خِطبتهما في الأسبوع السابق. تتوق آنابيل إلى إخبار أمها، التي ستعود إلى المنزل قريباً. يفترض بهم أن يعودوا في السابع عشر من شهر أبريل، إذ أبحروا قبل أربعة أيام من ساوثامبتون على متن سفينة جديدة.

كان الشهران طويلين من دونهم، واشتاقت آنابيل إليهم. إلا أن ذلك منحها فرصة لاستعادة عافيتها، ومطالعة الكثير من الكتب. بعد إنهاء واجباتها في المنزل، كانت تمضي كل فترة بعد الظهر والمساء في مكتبة والدها، تطالع كتبه. كتبها المفضلة هي تلك التي تتحدث عن الرجال المهمين أو العلوم. لم تهتم أبداً بالكتب الرومنسية التي تقرأها أمها، ولا حتى بتلك التي تعيرها إياها هورتانس، والتي تعتبرها تافهة. آنابيل امرأة شابة وذكية، تتشرّب المعلومات والأحداث العالمية مثل الإسفنجة. أتاح لها ذلك التحدث مع أخيها في الكثير من الموضوعات، حتى إنه اعترف سراً أن عمق معلوماتها يجعله يشعر بالخجل. بالرغم من أنه مدير جيد للعمل، ويتحلى بالكثير من المسؤولية، أحب روبرت الذهاب إلى الحفلات ورؤية الأصدقاء، فيما بدت اجتماعيات آنابيل سطحية، لكنها ذات طبيعة جدية عميقة، وذات شغف بالتعلم والعلوم والكتب. غرفتها المفضلة في المنزل

هي مكتبة والدها، حيث تمضي الكثير من وقتها.

ليلة الرابع عشر، استمرت آنابيل في المطالعة حتى وقت متأخر من الليل في سريرها، ونامت على غير عادتها حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي. حين نهضت نظفت أسنانها، ومشطت شعرها، ولبست رداء فوق لباس نومها، ونزلت ببطء لتناول الفطور. حين نزلت إلى الأسفل، لاحظت أن المنزل صامت على نحو غريب، ولم ترَ أحداً من الخدم، وحين دخلت المطبخ، وجدت العديد منهم متحلّقين فوق صحيفة، فطووها بسرعة. بعد برهة، لاحظت أن مدبّرة المنزل الوفية بلانش كانت تبكي. إنها ذات قلب حنون، وتدفعها أي قصة حزينة عن حيوان أو ولد متألم للبكاء بسهولة. توقعت آنابيل إحدى هذه القصص فيما ابتسمت وقالت صباح الخير، عندئذ، بدأ ويليام رئيس الخدم يبكي وخرج من المطبخ.

«يا الله، ماذا حصل؟». نظرت آنابيل إلى بلانش والخادمتين الأخريين بذهول. لاحظت حينها أن الجميع يبكون، ومن دون أن تعرف السبب، خفق قلبها بقوة، وسألت آنابيل «ماذا يجري هنا؟». ومدّت يدها فوراً نحو الصحيفة. تردّدت بلانش لبرهة طويلة، ثم أعطتها إياها. رأت آنابيل العناوين العريضة فيما فتحت الصحيفة. لقد غرقت التايتانيك خلال الليل. إنها السفينة الجديدة التي سيعود أهلها على متنها إلى الوطن من إنكلترا. اتسعت عيناها فيما قرأت التفاصيل بسرعة. كانت التفاصيل قليلة جداً، وتقتصر على ذكر غرق التايتانيك، ووضع الركاب في قوارب إنقاذ، وإسراع سفينة كارباثيا التابعة لخطوط وايت ستار لاين إلى مكان الحادث. لم يذكر أي شيء عن الوفيات أو الناجين، وإنما يمكن الافتراض أنه مع سفينة بهذا الحجم والحداثة، تم إخلاء الركاب في الوقت المناسب، وانتهت عملية الإنقاذ على أكمل وجه. ذكرت الصحيفة أن السفينة العملاقة ارتطمت بجبل جليد، وبالرغم من أنه كان يُعتقد أنها غير قابلة للغرق، غرقت في قعر المحيط بعد ساعات عدة. لقد حصل ما لا يمكن تخيله.

قالت آنابيل إنه عليها الذهاب إلى مكتب وايت ستار لاين على الفور للحصول على أخبار عن روبرت ووالديها، وبدأت العمل فوراً، فطلبت

من بلانش إبلاغ سائق والدها ليجهّز السيارة، وخرجت من المطبخ، وصعدت إلى الأعلى لترتدي ثيابها. لم يخطر لها أن مئات الأشخاص الآخرين سيفعلون الشيء نفسه.

كانت يداها ترتجفان، فيما ارتدت كيفما اتفق فستاناً بسيطاً من الصوف الرمادي، ولبست جوربها وانتعلت حذاءها، وأمسكت بمعطفها وحقيبة يدها، ونزلت الدرج بسرعة مجدداً، من دون تدبيس شعرها. بدت مثل طفلة مع شعرها المتطاير، فيما خرجت من الباب الرئيسي، وأغلقته بقوة وراءها. بدا المنزل وكل من فيه في حالة جمود استباقاً لحزن مرتقب. عندما أخذها توماس، سائق والدها، إلى مكاتب وايت ستار لاين في طرف برودواي، كانت آنابيل تواجه موجة من الذعر الصامت. رأت بائع صحف عند ناصية الشارع، ينادي بآخر الأخبار. كان يلوّح بأعداد للصحيفة صدرت حديثاً، فأمرت السائق بالتوقف، واشترت عدداً.

ذكرت الصحيفة أن عدداً غير محدد من الناس قد ماتوا، وأنه يتم بث التقارير مباشرة من كارباثيا بشأن الناجين. أحست آنابيل بالدموع تتلألأ في عينيها بينما قرأت ذلك. كيف يمكن أن يحصل هذا؟ إنها أضخم وأحدث سفينة في البحر. إنها رحلتها الأولى. كيف يمكن لسفينة مثل التايتانيك أن تغرق؟ وماذا حصل لوالديها، وأخيها، والعديد من الأشخاص الآخرين؟

حين وصلا إلى مكاتب وايت ستار لاين، كان هناك مئات الأشخاص الذين يتدافعون للدخول، ولم تتخيل آنابيل كيف تستطيع شق طريقها عبر الحشود. ساعدها سائق والدها قوي البنية، لكنها احتاجت بالرغم من ذلك إلى ساعة للدخول. شرحت أن أهلها هم ركاب في الدرجة الأولى في السفينة المشؤومة. أخذ موظف شاب شديد العصبية اسمها، فيما ذهب آخرون لتعليق لوائح بأسماء الناجين على الجدران الخارجية. تتم إذاعة الأسماء عبر الجهاز اللاسلكي من السفينة كارباثيا، بمساعدة موظف البث اللاسلكي الناجي من التايتانيك، لقد كتبوا بجرأة في أعلى اللائحة أن الأسماء لا تزال غير نهائية في الوقت الحاضر، مما أعطى الأمل للعديد بنجاة أشخاص لم تظهر أسماؤهم.

أمسكت آنابيل بإحدى اللوائح بين يديها المرتجفتين، وبالكاد استطاعت قراءتها عبر دموعها، وفي نهاية اللائحة تقريباً، رأته، اسماً واحداً، كونسويلو ورثينغتون، راكبة في الدرجة الأولى. لا يوجد أي ذكر لوالدها وأخيها على اللائحة، ولتهدئة أعصابها، ذكّرت نفسها أن اللائحة غير نهائية. ثمة عدد قليل جداً من الأسماء في اللائحة.

سألت آنابيل الموظف «متى ستعرفون الأخبار عن الآخرين؟»، بينما كانت تعيد اللائحة إليه.

أجابها «في غضون ساعات قليلة، حسبما نأمل»، بينما كان أناس آخرون يصرخون خلفها، وينادون. كان الناس يشهقون، ويبكون، ويتجادلون فيما حاول المزيد من الأشخاص في الخارج الدخول. المشهد هو مشهد ذعر، وفوضى، ورعب، ويأس.

سألت آنابيل «هل لا تزال أعمال البحث والإنقاذ مستمرة؟»، وهي تجبر نفسها على التفاؤل. تعرف على الأقل أن أمها على قيد الحياة، بالرغم من أنها لا تعرف في أي حالة هي. لكن لا شك في أن الآخرين نجوا أيضاً.

قال الموظف بعينين حزينتين: «أنقذوا آخر المراكب في الثامنة والنصف من هذا الصباح». لقد سمع قصصاً عن جثث طافية في الماء، وأشخاص يصرخون ليتم إنقاذهم قبل أن يموتوا، لكنه ليس مؤهلاً لإخبار القصة، ولا يملك الشجاعة ليقول لهؤلاء الأشخاص إن عدد الوفيات بلغ المئات، وربما أكثر. لائحة الناجين حتّى الآن لا تتعدى الستمئة شخص، وأذاعت السفينة كارباثيا أنه تم إنقاذ أكثر من سبعمئة شخص لكنهم لا يملكون كل الأسماء بعد. إذا كان هذا كل شيء، يعني ذلك أن أكثر من ألف شخص قد ماتوا. لم يشأ الموظف تصديق ذلك أيضاً. قال بنبرة متعاطفة: «يفترض أن نحصل على بقية الأسماء في غضون الساعات القليلة القادمة»، فيما هدده رجل أحمر الوجه بضربه إذا لم يسلّمه اللائحة، ففعل على الفور. كان الناس ساخطين، وخائفين، وفاقدين للسيطرة بسبب توقهم إلى الحصول على المعلومات والطمأنينة. كان الموظفون يسلّمون أكبر عدد ممكن من

اللوائح. وأخيراً، عادت آنابيل وسائق والدها، توماس، إلى السيارة، لانتظار المزيد من الأخبار. عرض عليها أخذها إلى المنزل، لكنها أصرّت على أنها تريد البقاء والتحقق من اللوائح حين يتم تحديثها خلال الساعات القليلة المقبلة. لم ترد التواجد في أي مكان آخر.

جلست بصمت في السيارة، وأغمضت عينيها أحياناً، للتفكير في أهلها، وهي ترغب بأن يكونوا قد نجوا، فيما شعرت بالامتنان لوجود اسم أمها على اللائحة لغاية الآن. لم تأكل أو تشرب طوال اليوم، وفي كل ساعة كانا يعودان للتحقق من الأسماء. في تمام الساعة الخامسة، قيل لهم إن لوائح الناجين اكتملت، باستثناء بعض الأولاد الصغار الذين لم يتمكنوا من التعرف إليهم بالاسم بعد. إلا أن جميع الأشخاص الآخرين الذين تم إنقاذهم من قبل كارباثيا جرى ذكر أسمائهم على اللائحة.

سأل أحدهم «هل تم إنقاذ أي أشخاص آخرين من قِبَل سفن أخرى؟».

هزّ الموظف رأسه بصمت. بالرغم من وجود سفن أخرى تنتشل جثثاً من المياه الباردة، كان أفراد طاقم كارباثيا هم الوحيدين الذين تمكنوا من إنقاذ ناجين، من قوارب النجاة في أغلب الأحيان، ومن المياه في حالات قليلة. كل الذين كانوا في مياه الأطلسي الباردة ماتوا قبل وصول كارباثيا، بالرغم من أن المنقذين وصلوا إلى مكان الحادث بعد ساعتين من غرق التايتانيك. إلا أن الوقت كان طويلاً جداً على أي كان للبقاء على قيد الحياة في مياه المحيط الباردة.

تحققت آنابيل من اللائحة مرة إضافية أخرى. هناك 706 ناجين. رأت اسم أمها مجدداً، لكن لا وجود لاسم ورثينغتون آخر على اللائحة، لا أرثر ولا روبرت، وكل ما استطاعت فعله هو التمني أن يكون هناك خطأ. ربما خطأ غير مقصود، أو أنهما فاقدا الوعي ولا يستطيعان قول اسميهما للمسعفين. ما من طريقة أخرى لمعرفة المزيد من الأخبار. قيل لهم إن السفينة كارباثيا ستصل إلى نيويورك خلال ثلاثة أيام، أي في الثامن عشر من الشهر. عليها الإبقاء على أملها حتى ذلك الحين، والامتنان لنجاة أمها. رفضت التصديق أن والدها وأخاها ماتا. لا يمكن ذلك.

بقيت مستيقظة طوال الليل، بعدما عادت إلى المنزل، ولم تأكل أي شيء. جاءت هورتانس لزيارتها، وأمضت الليلة عندها. لم تتحدثا كثيراً، وإنما أمسكتا فقط بيدي بعضهما وبكتا كثيراً. حاولت هورتانس طمأنتها، وجاءت أمها لفترة وجيزة لمواساة آنابيل أيضاً. ما من كلمات تخفف من وطأة ما حصل. صُدم العالم كله بالخبر. إنها مأساة تفوق أي تصور.

همست هورتي «الحمد لله أنك كنت مريضة ولم تذهبي». فيما استلقتا على سرير آنابيل معاً بعدما غادرت أمها، وذهبت إلى منزلها. اقترحت أن تمضي ابنتها الليلة هناك، والبقاء حتى عودة والدة آنابيل. لم تشأ ترك آنابيل لوحدها. اكتفت آنابيل بالإيماء برأسها للتعليق، وشعرت بالذنب لعدم وجودها معهم، متسائلة ما إذا أمكن لوجودها أن يساعد بطريقة ما. كان في وسعها ربما إنقاذ واحد منهما على الأقل، أو إنقاذ شخص آخر.

خلال الأيام الثلاثة التالية، تجولت وهورتي في المنزل مثل شبحين. هورتي هي الصديقة الوحيدة التي أرادت رؤيتها أو التحدث إليها في صدمتها وحزنها. لم تأكل آنابيل أي شيء تقريباً بالرغم من نصائح مدبرة المنزل. كان الجميع يبكون باستمرار، وأخيراً، خرجت آنابيل وهورتي في نزهة لتنشق بعض الهواء. جاء جايمس ورافقهما، وكان لطيفاً جداً مع آنابيل، وأخبرها كم هو آسف لما حصل. لم تستطع المدينة، والعالم، التفكير في شيء آخر.

لم تصل الكثير من الأخبار نسبياً من كارباثيا، باستثناء التأكيد أن التايتانيك غرقت فعلاً، ولائحة الناجين كاملة ونهائية. وحدهم الأطفال والأولاد الذين لم يتم التعرف إليهم ليسوا مذكورين في اللائحة، ويتوجب على عائلاتهم التعرف إليهم في المرفأ، إذا كانوا أميركيين. وإلا ستتم إعادتهم إلى تشيربورغ وساوثامبتون إلى عائلاتهم هناك. ثمة ستة منهم لا ينتمون إلى أحد من الناجين وهم صغار جداً لقول أسمائهم. يهتم الآخرون بهم في غياب أهلهم، ولا مجال لمعرفة من يكونون. إلا أن الآخرين، بما في ذلك المرضى أو المصابين، مذكورون على اللائحة. لا تزال آنابيل غير مصدقة ذلك فيما أوصلها توماس إلى حوض كونارد ليلة الثامن

عشر. لم تشأ هورتي الذهاب معها، لأنها لم تشأ التطفل، فذهبت آنابيل إلى الرصيف 54 بمفردها.

رأت الحشود المنتظرة سفينة كارباثيا تتقدم ببطء إلى المرفأ، مع زوارق سحب، مباشرة بعد التاسعة مساء. أحسّت آنابيل أن قلبها يخفق بقوة فيما راقبتها، وأثارت السفينة دهشة الجميع بالذهاب إلى حوض وايت ستار عند الرصيفين 59 و60. هناك، على مرأى من جميع المراقبين، أنزلت ببطء قوارب النجاة الباقية من التايتانيك، وكان ذلك كل ما بقي منها، لإعادتها إلى وايت ستار لاين، قبل أن تتوقف للكارباثيا. كان المصورون محتشدين في أسطول من القوارب الصغيرة يحاولون التقاط الصور لقوارب النجاة، واصطفّ الناجون من الكارثة بمحاذاة السياج. كان الجو حولهم أشبه بأجواء الجنازة، تعمّه الفوضى، فيما انتظر أقارب الناجين بصمت مخيف لرؤية من سيخرج، وصرخ المراسلون والمصورون لبعضهم لتحديد أفضل المواقع لالتقاط أفضل الصور.

بعد إيداع قوارب النجاة، تحركت الكارباثيا ببطء إلى حوضها الخاص عند الرصيف 54، وربطها عمال كونارد بسرعة. ثم أُنزل الممر المتحرك أخيراً. بصمت، وباحترام مؤلم، أخرج الناجون من التايتانيك أولاً. عانق ركاب من الكارباثيا بعضاً منهم وشدّوا على أيديهم. كان هناك الكثير من الدموع، والقليل من الكلام، فيما نزل الناجون، الواحد تلو الآخر، وانهمرت الدموع على وجوه معظمهم، فيما كان بعضهم لا يزالون متأثرين بما رأوه وعاشوه في تلك الليلة المريعة. لن ينسى أحد بسرعة الأنين والصرخات المكبوتة في الماء، ونداءات الاستغاثة. أولئك الذين كانوا في قوارب النجاة كانوا خائفين جداً مما حال دون رفعهم آخرين إلى قواربهم، خشية أن ينقلبوا نتيجة الجهد، وأن يُغرقوا أشخاصاً أكثر من أولئك الذين غرقوا أصلاً في الماء. كانت المشاهد حولهم مريعة لجثث طافية، فيما انتظروا وصول المساعدة وإنقاذهم.

حين نزلوا من الكارباثيا، كانت هناك نساء مع أولاد صغار، وبعض النساء ما زلن يرتدين فساتين السهرة من آخر ليلة لهنّ على السفينة

المشؤومة، مع بطانيات عليهنّ. كانت بعض النساء مصدومات كثيراً مما حال دون تغيير ملابسهن خلال الأيام الثلاثة الماضية، وجرى جمعهن في المساحة الموجودة في غرف الطعام والصالونات الرئيسية في الكارباثيا. لقد قام الركاب العاديون وأفراد الطاقم بكل ما في وسعهم للمساعدة، لكن أحداً لم يستطع تغيير عدد الوفيات والخسارة المؤلمة للحياة، في ظروف لم يتوقعها أحد.

بقيت آنابيل منقطعة الأنفاس إلى أن لمحت أمها لحظة وصولها إلى بوابة الممر. راقبت كونسويلو تأتي صوبها من بعيد، بملابس مستعارة، ووجه تبدو عليه آثار المأساة، ورأسها الشامخ عالياً بوقار مجلل بالحزن. رأت آنابيل كل ذلك على وجهها. ما من وجه آخر مألوف معها. لم ترَ والدها وأخاها في أي مكان. ألقت آنابيل نظرة أخيرة خلف أمها، لكن كونسويلو كانت لوحدها وسط بحر من الناجين الآخرين، معظمهم من النساء، مع عدد قليل من الرجال بدوا محرجين قليلاً حين خرجوا مع زوجاتهم. كان هناك وميض مستمر للكاميرات، فيما سجل المراسلون أكبر عدد ممكن من اللقاءات. وفجأة، أصبحت أمها تقف أمامها، وأخذتها آنابيل بين ذراعيها بقوة كبيرة لدرجة أنهما عجزتا عن التنفس. كانت كونسويلو تبكي بقوة، وكذلك آنابيل حين تشبثتا ببعضهما، فيما تدفق الركاب والعائلات حولهما. وضعت آنابيل ذراعها حول أمها، ومشتا ببطء. كان المطر يهطل، إلا أن أحداً لم يهتم لذلك. ارتدت كونسويلو فستاناً صوفياً سميكاً لا يلائم مقاسها، وانتعلت حذاء سهرة، وكانت لا تزال تضع القلادة والقرطين الماسيين من الليلة التي غرقت فيها السفينة. لا تحمل أي معطف، لذلك أعطى توماس بسرعة بطانية من السيارة لآنابيل لتضعها على أمها.

بالكاد ابتعدتا عن ممر السفينة، حين طرحت آنابيل السؤال الواجب طرحه. إنها تعرف الجواب، لكنها لا تجرؤ على التأكد. همسته لأمها: «روبرت وبابا؟...». هزّت أمها رأسها، وبكت بقوة أكبر فيما اصطحبتها آنابيل إلى السيارة. بدت أمها فجأة ضعيفة جداً وأكبر سناً. أصبحت أرملة في الثالثة والأربعين من عمرها، وبدت مثل امرأة عجوز فيما ساعدها

توماس برفق على الصعود إلى السيارة، وغطاها بعناية بالبطانية. اكتفت كونسويلو بالنظر إليه وبكت، ثم شكرته بهدوء. تشبثت وآنابيل ببعضهما بصمت في طريق العودة إلى المنزل. لم تتحدث أمها مجدداً إلا حين وصلوا إلى المنزل.

كان جميع الخدم بانتظارها عند المدخل الأمامي لمعانقتها، وتقبيلها، والإمساك بها، وحين رأوا أنها لوحدها، عبّروا لها عن أسفهم وحزنهم. في غضون ساعة، جرى تعليق الإكليل الأسود على الباب. كان هناك العديد منها في نيويورك تلك الليلة، بعدما اتضح مَن لم يعد إلى المنزل ولن يعود أبداً.

ساعدت آنابيل أمها على الاستحمام وارتداء ثياب النوم، واهتمت بها بلانش مثل طفلة صغيرة. لقد اهتمت بكونسويلو منذ كانت فتاة صغيرة، وحضرت ولادة كل من آنابيل وروبرت. والآن، حصل هذا. فيما رتبت الوسادات خلف كونسويلو، بعدما ساعدت آنابيل على وضعها في السرير، توجب على بلانش مسح عينيها باستمرار، والتفوه ببعض عبارات المواساة. أحضرت صينية عليها الشاي، والعصيدة، والتوست، والمرق، وأنواع الحلويات المفضلة لديها، لكن كونسويلو لم تأكل شيئاً. جلست فقط تحدق إليهما، عاجزة عن التفوه بأي كلمة.

نامت آنابيل في سرير أمها تلك الليلة، وأخيراً في الساعات الأكثر ظلمة، حين ارتجفت كونسويلو من رأسها حتى أخمص قدميها وعجزت عن النوم، أخبرت ابنتها بما حصل. لقد كانت في قارب النجاة رقم أربعة، مع قريبتها مادلين أستور، التي لم ينجُ زوجها أيضاً. قالت إن قارب النجاة كان نصف ممتلئ، لكن زوجها وروبرت رفضا الصعود إليه، وأرادا البقاء لمساعدة الآخرين، وإفساح المجال للنساء والأولاد. إلا أنه كان يوجد متسع لهما. قالت كونسويلو بيأس: «ليتهما صعدا إلى القارب». آل وايدنر، وثاير، ولوسيل كارتر، وجميعهم معروفون من قبلها، كانوا في قارب النجاة أيضاً. إلا أن روبرت وآرثر أصرا على البقاء على متن السفينة لمساعدة الآخرين على الركوب في قوارب النجاة، وضحيا

بحياتيهما. تحدثت كونسويلو أيضاً عن رجل اسمه توماس أندروز، كان أحد أبطال تلك الليلة. وحرصت على إخبار آنابيل أن والدها وأخاها كانا أيضاً شجاعين جداً، مما يوفر عزاء بسيطاً الآن.

تحدثتا لساعات، فيما استرجعت كونسويلو آخر اللحظات على متن السفينة، وأمسكت بها ابنتها، وبكت فيما أصغت إليها. أخيراً، ومع أول دخول لضياء الفجر، خلدت كونسويلو إلى النوم مع تنهيدة.

الفصل الثاني

أُقيمت مئات الجنازات ذلك الأسبوع في نيويورك، وفي أمكنة أخرى أيضاً. امتلأت الصحف في كل مكان بقصص مؤلمة وحكايات مرعبة. اتّضح للجميع أن العديد من قوارب النجاة غادرت السفينة نصف فارغة، وهي تحمل فقط ركاب الدرجة الأولى، مما صدم العالم. البطل الأكثر شهرة كان قبطان "الكارباثيا"، الذي أسرع إلى مكان الحادث لإنقاذ الناجين. لا يزال هناك القليل من التفسيرات حول سبب غرق السفينة. بعدما ارتطمت بجبل الجليد، لم يعد في وسعهم الحؤول دون غرقها. لكن كان هناك الكثير من التعليقات عن سبب عبور "التايتانيك" للمجال الجليدي، بعدما جرى تحذيرها. لحسن الحظ أن كارباثيا استمعت إلى مناشدات الإغاثة عبر الجهاز اللاسلكي، وإلا ربما لما كان بقي أحد على قيد الحياة.

جاء الطبيب لفحص كونسويلو، ووجدها في صحة جيدة جداً، بالرغم من حزنها وصدمتها. بدت وكأن كل الحياة قد خرجت منها. وتُركت آنابيل لتخطط لجنازة والدها وأخيها بأدق التفاصيل. ستقام الجنازة المشتركة في دار العبادة التي كان والدها يفضلها.

كانت الجنازة حزينة ووقورة، وجاء مئات المعزّين لتقديم مواساتهم. كان كلا النعشين في جنازة ورثينغتون فارغين، إذ لم يتم انتشال أي من الجثتين لسوء الحظ. من بين الأشخاص البالغ عددهم 1517 الذين ماتوا، تم العثور فقط على إحدى وخمسين جثة. أما الجثث الباقية فقد اختفت بهدوء في قبر مائي في البحر.

مئات الأشخاص الذين حضروا الجنازة جاؤوا إلى المنزل بعد ذلك، حيث جرى تقديم الطعام والشراب. لبعض الجنازات طابع احتفالي، لكن هذه الجنازة ليست كذلك. فقد كان عمر روبرت أربعة وعشرين عاماً

فقط، ووالده ستة وأربعين، وكلاهما في ريعان الشباب، وماتا بطريقة مأساوية. اتّشحت آنابيل وكونسويلو بالأسود الحالك. وضعت آنابيل قبعة سوداء أنيقة فيما وضعت أمها خمار الأرملة. تلك الليلة، حين غادر الجميع، بدت كونسويلو منهارة على نحو لا يصدق لدرجة أن آنابيل لم تكفّ عن التساؤل عما بقي من أمها. بدا وكأن روحها ماتت مع زوجها وولدها، وقلقت آنابيل جدياً عليها.

ارتاحت آنابيل كثيراً حين أعلنت أمها في أثناء الفطور بعد أسبوعين من الجنازة أنها تريد الذهاب إلى المستشفى حيث تقوم بالعمل التطوعي. قالت إنه سيفيدها التفكير في شخص آخر، ووافقتها آنابيل الرأي.

سألتها آنابيل بهدوء، مع نظرة قلقة: «هل أنت واثقة أنك قادرة على ذلك، ماما؟». لا تريد أن تمرض أمها، بالرغم من أن شهر مايو قد بدأ والجو أصبح دافئاً.

قالت أمها بحزن: «أنا بخير». بخير ستبقى عليه لوقت طويل. بعد ظهر ذلك اليوم، ارتدت كل من المرأتين فستان حداد ومئزر مستشفى أبيض، وذهبتا إلى مستشفى سان فانسنت، حيث عملت كونسويلو كمتطوعة طوال أعوام. عملتا خصوصاً مع المعوزين، واهتمّتا بالإصابات والجروح أكثر من الاهتمام بالأمراض المعدية. لطالما افتتنت آنابيل بالعمل، وكشفت عن موهبة طبيعية فيها، وامتلكت أمها طريقة لطيفة وقلباً حنوناً. إلا أن الجانب الطبي أثار دوماً حيرة آنابيل، وكانت تقرأ كلما سنحت لها الفرصة كتباً طبية لتفسير الإجراءات التي تراها. لم تخف أبداً، على عكس هورتي، التي أغمي عليها في المرة الوحيدة التي أقنعتها فيها آنابيل بالانضمام إليهما، وكلما أصبح الوضع فوضوياً أكثر، أحبته آنابيل أكثر. تفضل أمها تقديم الطعام على الصواني، فيما تساعد آنابيل الممرضات حيث يُسمح لها، وتغيّر الضمادات، وتنظف الجروح. لطالما قال المرضى إنها تملك لمسة رقيقة على نحو مذهل.

عادتا مرهقتين تلك الليلة، بعد قضاء بعد ظهر طويل ومتعب، وعادتا إلى المستشفى مجدداً في وقت لاحق من ذلك الأسبوع. صرف ذلك على

الأقل انتباه آنابيل وأمها عن خسارتهما المزدوجة. فجأة، تحول الربيع الذي كان يفترض أن يكون الفترة الأكثر حماسة من حياة آنابيل، بعد حفل تقديمها إلى المجتمع، إلى وقت حزن وعزلة. لن تقبلا أي دعوات خلال السنة التالية، مما أقلق كونسويلو. ستبقى آنابيل في المنزل في ثوب الحداد، فيما ستتم خطبة كل الفتيات الأخريات اللواتي أقمن حفلات التقديم إلى المجتمع. خشيت أيضاً أن تؤثر المأساة التي ضربتهما في مستقبل ابنتها بطريقة غير جيدة، لكنهما لا تستطيعان القيام بأي شيء. بدا وكأن آنابيل لا تفكر في ما تفوّته. كانت حزينة على خسارتهما أكثر مما هي حزينة على مستقبلها، أو غياب الحياة الاجتماعية.

استمرت هورتي في زيارتهما، وفي منتصف شهر مايو، احتفلن بهدوء بذكرى ميلاد آنابيل التاسعة عشرة. كانت كونسويلو منزعجة جداً عند الغداء، وقالت إنها تزوجت عندما بلغت الثمانية عشرة من عمرها، أي في السنة التي جرى فيها تقديمها إلى المجتمع، وأنجبت روبرت حين كانت في مثل عمر آنابيل الآن. دفعها التفكير في ذلك للبكاء مجدداً، وتركت الفتاتين في الحديقة، وصعدت إلى الأعلى للاستلقاء.

قالت هورتي بتعاطف: «مسكينة أمك». ثم نظرت إلى صديقتها وقالت: «مسكينة أنتِ. أنا آسفة جداً بيل. كل هذا مريع جداً». شعرت بالأسف الكبير عليها بحيث احتاجت إلى ساعتين إضافيتين للاعتراف أنها حددت وجايمس موعد الزفاف، في شهر نوفمبر، ويخططان لإقامة حفل استقبال ضخم. قالت آنابيل إنها مسرورة بما أخبرتها به، وكانت تقصد ذلك فعلاً. سألتها هورتي «ألا تهتمين فعلاً لأنك لا تستطيعين الخروج الآن؟». لو كانت مكانها لكانت ستكره فكرة حبسها في المنزل لمدة سنة، لكن آنابيل تقبلت الأمر. عمرها فقط تسعة عشر عاماً، ولن تكون السنة التالية مسلية لها. إلا أنها نضجت كثيراً خلال الشهر الذي مضى على وفاة أخيها ووالدها.

قالت آنابيل بهدوء: «لا أبالي، ما دامت ماما راغبة بالعمل في المستشفى، يعطيني ذلك شيئاً لفعله حين أذهب معها».

حرّكت هورتي عينيها يميناً ويساراً «آه، لا تخبريني عن هذا، يقرفني

ذلك». لكنها عرفت أن صديقتها تحبه. «هل ستذهبين إلى نيوبورت هذه السنة؟». يملك آل ورثينغتون مزرعة جميلة هناك، في رود آيلند، قرب مزرعة آل أستور.

«تقول ماما إننا سنذهب. قد نذهب باكراً، في شهر يونيو، بدلاً من الانتظار حتى شهر يوليو، قبل بدء الموسم. أظن أن هذا سيفيدها». الاهتمام بأمها هو همّ أنابيل الوحيد الآن، على عكس هورتي، التي تهتم بالتخطيط لزفافها، وبمئات الحفلات التي ستذهب إليها، وبخطيبها المتيمة به. حياتها هي ما كان يفترض أن تكون عليه حياة أنابيل، لكنها لم تعد كذلك. عالمها، مثلما عرفته، انقطع وتغير إلى الأبد.

قالت هورتي بسعادة: «على الأقل سنكون معاً في نيوبورت». إنهما تحبان المكان هناك لأنهما تذهبان للسباحة، حين تسمح لهما أمّاهما. تحدثتا عن مشاريع الزفاف لبعض الوقت، ثم غادرت هورتي. بالنسبة إلى أنابيل، كانت ذكرى ميلاد هادئة جداً.

في الأسابيع التي تلت الجنازات، تلقّت كونسويلو وأنابيل العديد من الزيارات، مثلما كان متوقعاً. جاء أصدقاء روبرت، وجاء عدد من النساء الأرامل المتقدمات في السن لتقديم واجب العزاء لكونسويلو، إضافة إلى رجلين من مصرف أرثر يعرفانهما جيداً. أخيراً، أتى رجل ثالث، التقت به كونسويلو مرات عدة وأحبته كثيراً. اسمه جوشيا ميلبانك، وعمره ثمانية وثلاثون عاماً، وهو محترم كثيراً في مصرف أرثر. إنه رجل هادئ، وصاحب تصرفات رصينة، وأخبر كونسويلو قصصاً عدة عن أرثر لم تسمعها قبلاً، مما جعلها تضحك. تفاجأت كم استمتعت بزيارة جوشيا، وكان قد مضى على وجوده ساعة حين عادت أنابيل من جولة مع هورتي. تذكرت أنابيل أنها التقت به من قبل، لكنها لا تعرفه جيداً. إنه أقرب إلى جيل والدها من جيلها، وهو أكبر من أخيها بأربعة عشر عاماً، ولا يملكان أي شيء مشترك بالرغم من أنهما التقيا في الحفلات. لكن مثل أمها، تأثرت بلطافته وتهذيبه، وكان لطيفاً مع أنابيل أيضاً.

ذكر أنه ذاهب إلى نيوبورت في يوليو، مثلما يفعل دوماً. يملك منزلاً

بسيطاً ومريحاً هناك. أصل جوشيا من بوسطن، من عائلة محترمة مثل عائلتهما، بل إنها أغنى من عائلة ورثينغتون. عاش حياة هادئة، ولم يتبجح أبداً بها. وعدهما بالمجيء وزيارتهما مجدداً في نيوبورت، وقالت كونسويلو إنها تودّ ذلك. بعدما غادر، لاحظت أنابيل أنه أحضر باقة كبيرة من زهر الليلك الأبيض تم وضعها في إناء. ومدحته كونسويلو بعدما غادر.

قالت بهدوء: «إنه فعلاً رجل لطيف جداً، وهي تتأمل زهر الليلك بإعجاب. «أحبه والدك كثيراً، وأفهم الآن السبب. أتساءل لماذا لم يتزوج أبداً».

قالت أنابيل وهي تبدو غير مهتمة: «بعض الأشخاص لا يتزوجون، لا يتوجب على الجميع الزواج ماما». بدأت تتساءل ما إذا كانت ستصبح واحدة من هؤلاء. لا تتخيل ترك أمها الآن، للذهاب مع رجل. لا تريد ترك كونسويلو لوحدها. ولم تعتبرها مأساة إذا لم تتزوج. سيكون الأمر كذلك بالنسبة إلى هورتي، لكن ليس بالنسبة إليها. بعد رحيل والدها وأخيها، واهتزاز أمها في الصميم، شعرت أنابيل أنها تملك مسؤوليات أكثر أهمية في المنزل، ولم تشمئز من الأمر. فالاهتمام بأمها أعطى لحياتها معنىً.

قرأت أمها أفكارها، مثلما تفعل غالباً «إذا كنت تقولين لي إنك لا تريدين الزواج، يمكنك نسيان الموضوع في الوقت الحاضر. نحن في سنة الحداد، كما يفترض بنا. بعدها سنعثر لك على زوج. هذا ما أراده والدك».

استدارت أنابيل لمواجهتها بجدية حينها، وقالت بصرامة مثل أي شخص باتت لديه مسؤوليات: «لا يريدني بابا أن أتركك لوحدك»، هزّت كونسويلو رأسها. «هذا هراء وأنت تعرفين ذلك. أنا قادرة تماماً على الاهتمام بنفسي». لكن فيما قالت ذلك، امتلأت عيناها بالدموع مجدداً، ولم تقتنع ابنتها.

قالت أنابيل بصرامة: «سنرى». وخرجت من الغرفة لإعداد الشاي وإيصاله إلى غرفة كونسويلو. حين عادت، وضعت ذراعها حول أمها،

ورافقتها بهدوء إلى الطابق العلوي لأخذ قيلولة، وجعلتها تستلقي على سريرها، السرير الذي تشاركته مع الزوج الذي أحبته ومات، مما حطم قلب كونسويلو.

قالت وقد بدت محرجة: «أنت رائعة معي، حبيبتي».

قالت آنابيل بمرح: «لا، لست كذلك». إنها نور الشمس الوحيد الباقي في المنزل. لم تجلب لأمها أي شيء سوى الفرح. وكانتا كل ما بقي لبعضهما. لا يوجد أحد سواهما الآن. وضعت شالاً خفيفاً فوق كونسويلو، ثم نزلت إلى الأسفل للمطالعة في الحديقة، على أمل أن تشعر أمها بأنها قادرة على الذهاب إلى المستشفى في اليوم التالي. إنه مصدر الإلهاء الوحيد الذي تملكه آنابيل، ويمنحها ذلك شيئاً مهماً لفعله.

بالكاد تستطيع الانتظار للذهاب إلى نيوبورت في الشهر المقبل.

الفصل الثالث

غادرت آنابيل وأمها إلى نيوبورت قبل شهر من المعتاد، أي في شهر يونيو. إنه وقت جميل من السنة، ومثلما يحصل دوماً، يذهب الموظفون أوّلاً لتحضير المنزل. يكون الموسم الاجتماعي في نيوبورت مذهلاً عادة، لكنهما تخططان هذه السنة لحياة هادئة جداً. يستطيع الناس زيارتهما في المنزل، لكن بعد شهرين من موت والدها وأخيها، لا مجال أبداً لأن تخرج آنابيل وأمها. تم وضع الأشرطة السوداء، التي باتت مألوفة الآن، على الباب الأمامي في نيوبورت للإشارة إلى حزنهما.

ثمة عدد من العائلات في الوضع نفسه في نيوبورت هذه السنة، ومنهم آل أستور. مادلين أستور، التي فقدت زوجها جون جاكوب في حادثة التايتانيك، تتوقع ولادة طفلها في شهر أغسطس. ضربت المأساة بقوة مجتمع نيويورك، لأنها كانت الرحلة الأولى للسفينة وعلى متنها العديد من نخبة المجتمع والأرستقراطيين. كانت الأخبار المستمرة عن عدم براعة أفراد الطاقم في إخراج الناس من السفينة تثير الإزعاج أكثر فأكثر. فقد كانت كل قوارب النجاة تقريباً نصف فارغة. دخل بعض الرجال عنوة إليها مع النساء والأولاد. ولم ينجُ أحد تقريباً من الركاب العاديين. ستُجرى تحقيقات رسمية حول الموضوع في الوقت المناسب.

كانت نيوبورت هادئة جداً في شهر يونيو، لكنها بدأت تزداد حيوية مع بدء وصول الناس من بوسطن ونيويورك وملء منازلهم الريفية في شهر يوليو. في الحقيقة، إن ما يسميه الناس منازل ريفية في نيوبورت، تعتبر في الواقع قصوراً بأحجام كبيرة في أي مكان آخر. إنها منازل مع قاعات حفلات، وثريات ضخمة، وأرضيات رخامية، ومفروشات لا تقدر بثمن، وحدائق مذهلة تطلّ على البحر. إنه مجتمع مميز مؤلف من

نخبة المجتمع من كل الساحل الشرقي، ومقرّ جميل جداً للأغنياء. وجد آل ورثينغتون أنفسهم تماماً هناك. فمنزلهم الريفي هو أحد أكبر المنازل وأكثرها جمالاً في المدينة.

بدأت أنابيل تستمتع عند وصول هورتي. ذهبتا إلى الشاطئ معاً، وقامتا بنزهات، وانضم إليهما غالباً جايمس خطيب هورتي في مناسبات الغداء على العشب في الهواء الطلق. وكان يدعو بين الحين والآخر أصدقاءه، مما سرّ أنابيل، وزعمت أمها أنها لا تلاحظ ذلك. طالما أنهم لا يذهبون إلى الحفلات، لا تمانع أن ترى أنابيل شبّاناً آخرين. إنها فتاة جيدة ومخلصة كثيراً لأمها، وهي تستحق ذلك. تساءلت كونسويلو ما إذا كان أحد أصدقاء جايمس، أو أحد الأصدقاء السابقين لروبرت، سيثير اهتمام أنابيل. ازداد قلقها هذه السنة من أن تؤثر سنة الحداد في قدر أنابيل إلى الأبد. فبعد موسم الميلاد، حين أقامت كل الفتيات حفلات تقديمهن إلى المجتمع، جرت خِطبة ست من الفتيات الشابات في عمر أنابيل. إلا أن أنابيل لن تلتقي بأحد ما دامت في المنزل مع أمها. بعد الشهرين الماضيين، باتت تبدو أكبر سناً وأكثر نضجاً من الأخريات. يمكن لمثل هذا الأمر أن يخيف الرجال بعمر الشباب. وأكثر من أي شيء آخر، أرادتها أمها أن تتزوج. استمرت أنابيل في عدم الاكتراث للأمر، وكانت سعيدة لرؤية هورتي والآخرين، لكن لم يثر أي من الرجال أي اهتمام لديها.

جاء جوشيا ميلبانك لرؤيتهما بعدما وصل في شهر يوليو أيضاً. إنه لا ينسى أبداً إحضار هدية معه حين يزورهما، أزهار في المدينة، وفاكهة أو حلويات في نيوبورت. أمضى ساعات في التحدث مع كونسويلو، فيما جلسا معاً على المصطبة الكبيرة على كرسيين هزازين، وبعد زيارته الثالثة، مازحتها أنابيل بشأنه.

«أظن أنه يستلطفك ماما»، قالت وهي تبتسم.

«لا تكوني سخيفة». تورّدت كونسويلو خجلاً من الفكرة. فآخر ما تفكّر فيه هو عريس. تنوي البقاء مخلصة لذكرى زوجها إلى الأبد، وأعلنت ذلك أمام الجميع. ليست واحدة من تلك الأرامل اللواتي يبحثن عن زوج،

بالرغم من أنها أرادت بشدة واحداً لأنابيل. «إنه فقط لطيف معنا»، أضافت كونسويلو بحزم، مقتنعة تماماً بما تقوله. «إنه أصغر مني على أي حال، وإذا كان مهتماً بأحد، فبكِ أنتِ وليس بي». لكن عليها الاعتراف أنه لا يوجد أي دليل على ذلك. بدا مرتاحاً في التحدث مع الأم أو الابنة على حدٍّ سواء، ولم يكن أبداً مغازلاً، وإنما فقط ودوداً.

«ليس مهتماً بي، ماما»، أكدت أنابيل مع ابتسامة عريضة، «وهو أصغر منك فقط بخمس سنوات. أظن أنه شخص لطيف جداً. وهو في عمر ملائم ليكون والدي».

«الكثير من الفتيات في عمرك يتزوجن رجالاً في مثل عمره»، قالت أمها بهدوء. «ليس كبيراً جداً، بالله عليك. أظن أن عمره فقط ثمانية وثلاثون عاماً، إذا كنت أذكر جيداً».

«إنه يناسبك أكثر». ضحكت أنابيل، وذهبت مع هورتي. إنه يوم صيفي حار، وتريدان الذهاب للسباحة، ووعدهما جايمس بالانضمام إليهما لاحقاً. ثمة حفل كبير سيقام عند آل سكايلر هذه الليلة، وسيحضره جايمس وهورتي وكل أصدقائهما، لكن أنابيل لا تستطيع ذلك طبعاً. لم تجرؤ على سؤال أمها، ولا تريد إزعاجها.

لكن تلك الليلة، في أثناء الجلوس على المصطبة، استطاعتا سماع أصداء الحفل والموسيقى من بعيد. كانت هناك أسهم نارية، وعرفت كونسويلو أن الحفل يقام لمناسبة خِطبة إحدى بنات سكايلر. تألم قلبها على أنابيل، فيما استمعتا إلى الأصوات المنبعثة من الحفل.

تفاجأتا كثيراً حين مرّ جوشيا في وقت لاحق من السهرة ليحضر لكل منهما قطعة حلوى من الحفل. كان في طريق العودة إلى منزله، وتأثرت المرأتان بالتصرف اللطيف. بقي لشرب كوب ليموناضة معهما، ثم قال إن عليه المغادرة، نظراً إلى وجود ضيف عنده في المنزل. وعدهما بالعودة قريباً، حين شكرتاه. حتى أنابيل تأثرت بتصرف الصداقة. ليس لديها أي اهتمام رومنسي به، لكنها شعرت وكأنه في مقام أخيها. أحبت التحدث

إليه، وكان يمازحها تماماً مثلما كان روبرت يمازحها، واشتاقت إلى ذلك كثيراً.

«أتساءل لماذا لم يصطحب ضيفه إلى الحفل»، قالت كونسويلو، فيما أدخلت الأكواب وإبريق الليموناضة إلى المطبخ.

مازحتها آنابيل «قد يكون ضيفاً غير لائق، امرأة غير ملائمة. ربما لديه عشيقة»، وضحكت فيما شهقت أمها. نظراً إلى حسن تربية جوشيا، ومدى تهذيبه، بدا الأمر غير محتمل أبداً. وما كان ليذكر أمر الضيف أبداً لو كانت الحال كذلك.

«لديك خيال غير لائق»، وبختها أمها، وبعد برهة صعدت المرأتان إلى الطابق العلوي، وتحدثتا عن جوشيا، وعن مدى لطافته لإحضاره الحلوى لهما من الحفل. إنها المرة الأولى التي تشعر فيها آنابيل بالأسف لعدم تمكنها من الذهاب. ذهب كل أصدقائها إلى هناك، وبدا الأمر وكأنه احتفال حقيقي مع الألعاب النارية وكل ذلك. سيكون صيفاً هادئاً جداً، باستثناء هورتي وجوشيا اللذين حرصا دوماً على الزيارة باستمرار، إضافة إلى بعض الأصدقاء الآخرين أيضاً.

عاد جوشيا في اليوم التالي، ودعته كونسويلو لتناول الغداء في الهواء الطلق مع آنابيل وهورتي. بدا جوشيا مرتاحاً تماماً مع كلتا الفتاتين، بالرغم من أن هورتي تضحك كثيراً وتبدو سخيفة في أغلب الأحيان، وقال لها إن لديه أختاً في مثل عمرها، من الزواج الثاني لوالده بعدما ترمّل. لا تزال آنابيل عاجزة عن تخيل هورتي كامرأة متزوجة، وهذا ما ستصبح عليه بعد أربعة أشهر. لا تزال طفلة، لكنها مهووسة بجايمس. كان جوشيا قد ذكر أن أخته تزوجت في شهر أبريل وهي الآن حامل. بدا معتاداً تماماً على حياة الفتيات الشابات ومغامراتهن واهتماماتهن، واستمتعتا كلتاهما بالتحدث إليه.

ذكر لهما ضيفه في المنزل، وقال إنه رفيق له من جامعة هارفارد، ويأتي لزيارته كل صيف. قال إنه طالب مجتهد وهادئ، ويتجنب عموماً

المناسبات الاجتماعية والحفلات.

بقي جوشيا حتى وقت متأخر من بعد الظهر، وأوصل آنابيل إلى المنزل بعدما غادرت هورتي. كانت أمها جالسة على المصطبة، تتحدث مع صديقة. من الممتع وجودهما هنا. فالكثير من الأشخاص يأتون للزيارة، وثمة إحساس بحياة قوية حولهما. الأمر ممتع خصوصاً بالنسبة إلى آنابيل التي باتت تخشى العودة إلى المدينة. أخبرت جوشيا عن عمل المستشفى الذي تحبه، ومازحها بشأنه.

«أعتقد أنك تريدين أن تصبحي ممرضة حين تكبرين»، قال لها، بالرغم من أنه يعرف جيداً، تماماً مثلها هي، أن هذا لن يحصل أبداً. فأكثر ما يمكنها الحصول عليه هو عمل تطوّعي، لكنها لا تزال تقرأ الكثير عن الموضوعات الطبية. إنه شغفها السري.

قالت بصراحة، وهي لا تخشى أن تكون نزيهة معه: «في الواقع، أفضّل أن أكون طبيبة». شعرت وكأنها تستطيع إخباره أي شيء، ولن يسخر منها. لقد أصبح صديقاً جيداً منذ وفاة والدها، وبَدءِ زياراته لهما. لكنه بدا مذهولاً هذه المرة. لقد فاجأته. إنها شخص أكثر جدية مما اعتقد، ولاحظ من التعبير على وجهها أنها تعني تماماً ما تقوله.

قال لها وقد بدا رزيناً لدقيقة: «هذا طموح كبير جداً، هل ستفعلين ذلك فعلاً؟».

«لن تسمح لي أمي أبداً. لكنني أودّ ذلك إذا استطعت. أستعير أحياناً الكتب الطبية والكتب التي تتحدث عن بنية الجسم من المكتبة. لا أفهم كل ما يقولونه، لكنني تعلمت بعض الأمور المهمة. أظن أن الطبّ مذهل. وهناك الآن طبيبات نساء أكثر من قبل». بدأت النساء تدخل إلى كليات الطبّ قبل ستين عاماً، لكنه لا يزال غير قادر على تخيل آنابيل وهي تفعل هذا، وشكّ في أنها محقّة، لأن أمها لن تسمح لها بذلك. تريد أن تحظى آنابيل بحياة أكثر تقليدية، أي الزواج وإنجاب الأولاد، بعد حفل تقديمها إلى المجتمع.

اعترف لها «لم أشأ أبداً أن أصبح طبيباً، لكنني أردت أن أنضم إلى السيرك حين كان عمري عشرة أعوام أو أحد عشر عاماً». ضحكت على ما قاله، لأن هذا شيء مضحك للاعتراف به. «أحببت الحيوانات، ولطالما أردت أن أكون لاعب خفّة كي أتخلّص من فروضي المنزلية. لم أكن تلميذاً مجتهداً».

«لا أظن أنني أصدقك، إذ ذهبت إلى هارفارد»، قالت وهي لا تزال تضحك. «أظن أنه كان من الممتع الانضمام إلى السيرك. لماذا لم تفعل ذلك؟».

«عرض عليّ والدك وظيفة بدلاً من ذلك، بالرغم من أن هذا حصل في وقت متأخر. لا أعرف، لكنني ربما لم أملك الشجاعة الكافية لذلك. إلا أنني لم أملك أبداً طموحات مثل طموحاتك. مجرد التفكير في كل سنوات الدراسة تلك يقتلني. أنا كسول جداً لأكون طبيباً».

قالت بلطافة: «لا أصدق ذلك، لكنني أعرف أنني أحب هذا». لمعت عيناها بقوة فيما قالت ذلك.

«مَن يعرف، ربما قد تتمكنين في يوم ما من استخدام بعض ما تعلمته من الكتب، في عملك التطوعي. هذا واجب نبيل».

قالت وهي تبدو خائبة الأمل: «لا يسمحون لك بفعل الكثير».

سألها باهتمام «ماذا تودين أن تفعلي؟».

«أنجز تطريزاً جميلاً جداً، والجميع يقولون ذلك. أودّ أن أجرب تقطيب وخياطة الجروح في وقت ما. أنا واثقة من أنني أستطيع فعل ذلك». بدا مصدوماً بما قالته، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

«عليّ تذكير نفسي بضرورة عدم جرح نفسي أمامك، وإلا ستُخرجين الإبرة وعدّة التطريز من جيبك!».

اعترفت وهي تبتسم له بخجل «أودّ ذلك».

«يفترض أن يبقيك أحدهم مشغولة، آنسة ورثينغتون، وإلا أشعر أنك ستقعين في ورطة».

«الورطة الطبية تلائمني جدًا. فكّر فقط، لو لم نكن ما نحن عليه، لاستطعت الذهاب إلى كلية الطب وفعل أي شيء أريده. أليس هذا مزعجاً؟»، سألته وهي تبدو مثل طفلة وامرأة في الوقت نفسه، ومن دون أن يفكر، عانقها مثلما يفعل مع أخته الصغيرة. تشعر بالشيء نفسه حياله، وتشعر بوجود رابط معه كأنه أخوها. بدأت تنشأ علاقة صداقة جميلة بينهما.

قال بطريقة عملية: «لو لم تكوني ما أنت عليه، لما فكّرتِ في الذهاب إلى كلية الطب». وأومأت برأسها علامة الموافقة.

«هذا صحيح. لكنني لو كنت رجلاً، لاستطعت فعل ذلك. كان في وسع روبرت فعل ذلك، لو أراد، وكان والداي سيسمحان له. من الصعب جداً أحياناً أن أكون امرأة. هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن فعلها وليس هذا ملائماً. هذا مضجر فعلاً»، قالت وهي تركل حصاة صغيرة بحذائها، وضحك عليها.

«لا تقولي لي إنك واحدة من تلك النساء اللواتي يرغبن بالكفاح من أجل الحقوق والحرية». لا تبدو له من هذا النوع، وسيفاجئه الأمر.

«لا. أنا راضية تماماً عن الأمور كما هي. أتمنى فقط لو أستطيع أن أكون طبيبة».

«حسناً، أتمنى لو أستطيع أن أكون ملك إنكلترا، لكن هذا لن يحصل أيضاً. بعض الأشياء بعيدة عن متناولنا، آنابيل، وعلينا القبول بذلك. لديك حياة جيدة كما هي».

قالت موافقة: «نعم، وأحب أمي. لن أفعل أي شيء يزعجها، وسيزعجها ذلك كثيراً».

«نعم، صحيح».

«لقد عانت الكثير هذه السنة، وأريد أن أجعلها سعيدة».

قال بارتياح: «ستفعلين، أستطيع ملاحظة ذلك. أنت ابنة رائعة، وشخص طيب».

قالت هورتي: «لا، ليست كذلك». في الوقت الذي ظهرت فيه من

حيث لا يدريان، وجلست قربهما. عادت للذهاب للسباحة مع آنابيل مجدداً. «قامت بتشريح ضفدع ذات مرة. قرأت كيفية فعل ذلك في كتاب. هذا أقرف شيء رأيته في حياتي. لا شك في أنها ليست شخصاً طبياً». ضحكوا هم الثلاثة على ما قالته.

قال جوشيا: «أعتقد أن هذا صحيح». وقد بدأ يعرف آنابيل بصورة أفضل. إنها فتاة شابة مميزة، في العديد من النواحي.

قالت آنابيل بفخر: «نعم، صحيح، فعلت ذلك وفقاً لما ورد في الكتاب. كان ذلك مثيراً جداً. أتمنى فقط لو أنني أستطيع تشريح شخص حقيقي. جثة، مثلما يحصل في كلية الطب».

قالت هورتي: «آه، يا الله». وبدت عليها أمارات المصابين بالغثيان، وبدا جوشيا مصدوماً وإنما مسروراً.

قال لهما: «عليكما الذهاب للسباحة». وودعهما بينما اتجه نحو المصطبة لوداع كونسويلو.

سألته باهتمام «عما كنتم تتحدثون أنتم الثلاثة؟».

«آه مثل العادة، الحفلات، حفلات التقديم إلى المجتمع والخطبة والزفاف». قال ذلك بهدف حماية آنابيل لأنه عرف أن أمها سيغمى عليها إذا عرفت أن آنابيل تتمنى لو تستطيع تشريح جثة. كان لا يزال يضحك في سرّه حين عاد إلى منزله. لا شك في أن آنابيل ورثينغتون هي امرأة شابة لافتة للنظر، وليست أبداً فتاة عادية عمرها تسعة عشر عاماً.

عندما عاد إلى منزله، كان رفيقه في الجامعة قد عاد للتو من الغداء، ولوّح له جوشيا حين رآه. هنري أورسون هو أحد أقدم أصدقائه، ويستمتع بالوقت الذي يقضيانه معاً كل صيف. إنهما صديقان مقربان منذ أيام الجامعة، وكان هنري رجلاً مهماً يحظى بإعجاب الجميع.

سأله جوشيا «كيف كان الغداء؟». كانا رجلين وسيمين، ولطالما استطاعا نيل إعجاب كل النساء، لكنهما كانا مسؤولين حيال ذلك. لم يضللا النساء أبداً أو يستفيدا من وسامتهما لاستغلالهنّ. كان هنري مخطوباً قبل

عامين، وخاب أمله كثيراً حين وقعت خطيبته في غرام شاب أصغر سناً منها. ولم ينخرط في أي علاقة جدية منذ ذلك الحين، مما جعل كل أمهات نيوبورت يتأملن خيراً، تماماً كما هي الحال مع جوشيا.

قال هنري بصراحة: «مضجراً، كيف كان وقتك أنت؟». يجد هنري اللقاءات الاجتماعية العديدة متعبة، ويفضل مناقشة العمل مع رجال جديين آخرين بدلاً من مغازلة الفتيات الشابات.

قال جوشيا وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «تناولت الغداء في الهواء الطلق مع فتاة شابة تريد تشريح جثة إنسان». فضحك هنري بصوت عالٍ.

قال هنري: «يا الله»، وهو يبدو مسروراً ومتأثراً، وادعى أنه خائف. «تبدو خطيرة. ابقَ بعيداً عنها».

قال جوشيا: «لا تقلق». وهو يضحك، فيما دخل الاثنان معاً إلى المنزل. «سأفعل».

تسلّى الرجلان طيلة فترة بعد الظهر، في أثناء مناقشة وضع العالم الاقتصادي، الذي هو شغف هنري. إنه موضوع يجعله مملاً بالنسبة إلى النساء وإنما ممتعاً بالنسبة إلى الرجال، لأنه كثير المعرفة وصاحب رؤية ذكية، ويسعد جوشيا دوماً بالتحدث إليه. لقد تدبر وظيفة لهنري في مصرف والد آنابيل قبل أعوام عدة، وكان محترماً جداً بين زملائه ومدرائه. وبالرغم من أنه ليس اجتماعيًا بقدر جوشيا، إلا أنه أبلى بلاءً حسناً في المصرف أيضاً. لم يلتقِ هنري أبداً بآنابيل أو بكونسويلو، لكن جوشيا وعده بتعريفه إليهما خلال إقامته في نيوبورت، فيما هزّ هنري رأسه.

قال هنري: «ليس إن كانت آنابيل ستقرمني مثل الجثة»، ثم ابتسم.

قال جوشيا: «اللعنة، لا تقلق. إنها مجرد طفلة».

الفصل الرابع

غالباً ما زار جوشيا آل ورثينغتون خلال شهري يوليو وأغسطس، مثلما فعل جايمس وهورتي، وعدد من الأصدقاء الآخرين. عرّفهما جوشيا إلى هنري، كما وعد، فقدّم هذا الأخير تعازيه لكونسويلو، وعلّم آنابيل العديد من ألعاب التسلية، مما أفرحها كثيراً، خصوصاً حين تغلبت عليه مرات عدة. كانت تستمتع بصحبة الأصدقاء الذين التقتهم في نيوبورت، وبالرغم من ابتعادها وأمها عن الدوامة الاجتماعية هذا الصيف، شعرت بعزلة أقل مما فعلت في المدينة. بدت الحياة طبيعية تقريباً هنا، بالرغم من غياب والدها وأخيها اللذين كانا يبقيان غالباً في المدينة للعمل على أي حال.

حين غادرتا نيوبورت في نهاية شهر أغسطس، بدت بصحة جيدة وسمراء وسعيدة، وبدت أمها بحال أفضل أيضاً. كان صيفاً جميلاً ومسالماً بالنسبة إليهما، بعد الربيع المأساوي.

بعد عودتهما إلى المدينة، انضمت آنابيل إلى أمها للعمل في المستشفى مجدداً. وتطوعت للعمل لوحدها يوماً في الأسبوع في مستشفى نيويورك لغوث المعوّقين والمقعدين. أخبرت جوشيا عن كل ذلك حين جاء إلى المنزل في المدينة لتناول الشاي.

«لم تتوصلي إلى العمل على أي جثة بعد، أليس كذلك؟»، سألها، وهو يدّعي القلق، فضحكت لما قاله.

«لا. أحضر فقط الطعام وأباريق الماء إلى المرضى، لكن إحدى الممرضات قالت إنني قد أتمكن من مشاهدة عملية جراحية في يوم ما».

قال لها مع ابتسامة عريضة: «أنت فعلاً فتاة مميزة».

في نهاية الشهر، تحلّت كونسويلو أخيراً بالشجاعة لترتيب أغراض

زوجها وابنها. رمت البعض منها، ووهبت معظم الثياب، وإنما تركت مكتب أرثر وغرفة نوم روبرت على حالهما. لم تملك الشجاعة لإفراغ الغرفتين، ولا حاجة إلى فعل ذلك. فهما لا تحتاجان إلى هاتين الغرفتين.

لم تريا جوشيا كثيراً في شهر سبتمبر، مقارنة مع زياراته الصيفية. كان مشغولاً في المصرف، وما زالتا تسوّيان مسألة الأملاك مع المحامين الموكلين للاهتمام بهذا الشأن. بالرغم من أن أرثر لم يملك أي سبب للتفكير في أن أي شيء قد يحصل له، إلا أنه ترك أغراضه في ترتيب مثالي، وكانت آنابيل وأمها في وضع مادي ممتاز. تستطيعان العيش بارتياح لبقية حياتهما مما تركه لهما، وسيكون هناك عقارات كثيرة لتوريثها لأولاد آنابيل يوماً ما، بالرغم من أن هذا آخر أمر يخطر في بالها.

لم ترَ آنابيل كثيراً هورتي هذا الشهر أيضاً. فزفافها بعد ستة أسابيع فقط، ويتوجب على هورتي فعل الكثير. عليها تجربة فستان الزفاف، وطلب الجهاز، وقد أعطاهما والدها منزلاً، وستشتري وجايمس المفروشات له. سيذهبان إلى أوروبا في شهر العسل، وسيغيبان حتى الميلاد، وعرفت آنابيل أنها ستشتاق إليها في أثناء غيابها. بعدما تتزوج، لن يبقى الأمر أبداً على حاله. لاحظت آنابيل ذلك مع صديقات أخريات، وبدأت تشتاق إلى هورتي منذ الآن.

كانت بداية شهر أكتوبر حين جاء جوشيا أخيراً للزيارة مجدداً. كانت آنابيل في مستشفى غوث المعوّقين والمقعدين، وكانت كونسويلو في الحديقة، تستمتع ببعد ظهر مشمس مع كوب شاي. تفاجأت لرؤية جوشيا، لكنه دوماً محط ترحيب، وفيما وقفت لإلقاء التحية عليه، بدت مسرورة فعلاً.

«لم نرَكَ منذ زمن، جوشيا. كيف حالك؟».

ابتسم لها «بخير، كنت في بوسطن خلال الأسابيع القليلة الماضية. احتاج أفراد عائلتي إلى بعض الأغراض التي توجب عليّ تسليمهم إياها هناك. كيف حالك أنت وآنابيل؟».

«نحن بخير. آنابيل مشغولة في المستشفى مجدداً، لكن هذا يلهيها على الأقل. لا تستطيع فعل الكثير هنا». لا يزال أمامهما ستة أشهر إضافية من الحداد الرسمي، وعرفت كونسويلو بالرغم من عدم تذمر آنابيل أبداً، أن الأمر صعب عليها. لم تخرج أبداً مع صديقاتها منذ ستة أشهر، وهذا مضجر بالنسبة إلى فتاة عمرها تسعة عشر عاماً. تحتاج إلى الخروج والاستمتاع، لكن لا يسع كونسويلو فعل أي شيء.

قال جوشيا بهدوء: «أعرف أن هذا الوقت طويل جداً بالنسبة إليكما معاً». بينما كان يجلس معها في الحديقة، واعتذر عن شرب الشاي.

اعترفت كونسويلو «أنا لا أهتم لنفسي، لكنني أهتم لها، سيكون عمرها عشرين عاماً تقريباً قبل أن تخرج إلى العالم مجدداً. لا يبدو هذا عادلاً». لكن ما حصل لكونسويلو لم يكن عادلاً أيضاً. هكذا هي الحياة في بعض الأحيان.

طمأنها جوشيا «ستكون بخير، آنابيل هي من الأشخاص الذين يستفيدون من كل الأوضاع. لم تتذمر لي مرة واحدة من عدم تمكنها من الخروج». فأومأت أمها برأسها.

«أعرف. إنها غالية على قلبي. أنا آسفة لأنك لم ترها اليوم. سيخيب أملها. تكون دوماً في المستشفى بعد ظهر الاثنين». أومأ برأسه، وتردد لبرهة، وبدا شارداً في الفضاء، ثم عاد إلى كونسويلو بنظرة جدية مفاجئة.

«في الواقع، لم آتِ لأرى آنابيل اليوم. جئت لأراك أنت، بسبب مسألة أردتُ مناقشتها معك على انفراد». بدا رزيناً وعملياً فيما قال ذلك، كما لو أنه في مهمة من المصرف.

«شيء يتعلق بأملاك أرثر؟ ألا تستطيع معالجة ذلك مع المحامين، جوشيا؟ تعرف كم أنا سيئة في كل ذلك. كان أرثر يستلم كل شيء. كل هذا غامض بالنسبة إليّ».

«لا، لا، كل شيء بخير. المصرف يعالج الأمور مع المحامين، وكل

شـيء على ما يرام. إنها مسـألة خاصـة، وربما أنا أسـتبق الأمور، لكنني أردت مناقشة المسألة معك، وأتمنى أن تحافظي على السرية». لم تستطع تخيل المسألة فيما استمعت إليه، ولم تفهم ضرورة عدم وجود آنابيل. قلقت لبرهة من صحة رأي آنابيل قبل أشهر عدة، وأنه يحاول التودد إليها. أملت ألا يكون ذلك صـحيحاً. إنها تسـتلطفه كثيراً، لكن إذا كشـف عن أي اهتمام رومنسي من أي نوع كان، فسترفض كونسويلو. لا تكشف عن أي ميول تجاهه، ولا تجاه أي شخص آخر. برأي كونسويلو، لقد طُوي هذا الفصل من حياتها.

قال بوضـوح، كي لا يرتبك أي منهما: «أردت التحدث إليك بشـأن آنابيل». أدرك أنه أقرب إلى عمر كونسويلو من عمر ابنتها، لكنه لا يشعر بأي ميل رومنسي تجاه كونسويلو، وإنما يكنّ لها فقط الاحترام والإعجاب والصـداقة الودودة. كانت كونسـويلو وآنابيل مضيافتين جداً معه بعد موت أرثر، واستمتع كثيراً بقضاء الوقت معهما.

«أعرف أنك في فترة حداد لمدة ستة أشهر إضافية، وأنك قلقة عليها. من المؤسـف أنها فوّتت كل هذه السـنة بعد حفل تقديمها إلى المجتمع، وكل الفرص الناجمة عن ذلك. قررتُ في البداية ألا أقول أي شـيء لك، مهما كانت مشـاعري. إنها شـابة جداً، واعتقدت فعلاً أنها سـتكون أكثر سـعادة مـع شـخص فـي مثـل عمرها. لكـن كي أكون صـريحاً، لا أظـن أن هذا صحيح».

«آنابيل امرأة شابة استثنائية في نواحٍ عدة، وذكية، ومثقفة، وتواقة إلى المعرفة، وناضـجة أكثر من عمرها. لا أعرف كيف سـيكون شعورك حيال الموضوع، لكنني أودّ الحصول على إذنك، عند انتهاء فترة الحداد، لطلـب يدهـا للـزواج، ومعرفة رأيهـا. إذا بقينـا أنا وأنـتِ متكتمين حيال الموضوع، واحتفظنا بالأمر لأنفسنا، سيمنحها ذلك ستة أشهر إضافية لتعتاد عليّ. إذا وافقتِ، أنوي الاستمرار في زيارتكما. لكنني أردتُ إذنك أولاً». جلست كونسويلو هناك تحدق إليه. برأيها، إنه الجواب لدعائها والحلم الذي أصـبح حقيقـة. كانـت قلقة كثيراً على الحياة التي فوّتتها آنابيل هذه السـنة،

وخشيت أن تصبح ابنتها عانساً. لكن بالرغم من أنه أكبر منها بتسعة عشر عاماً، رأت كونسويلو أن جوشيا مثالي بالنسبة إلى آنابيل.

جوشيا من عائلة ممتازة، ومثقف، ومهذب كثيراً، وساحر، ووسيم، ولديه وظيفة مهمة في مصـرف والد آنابيل. وحسـب ما رأته، خصوصـاً خـلال الصـيف، أصـبح الاثنـان صـديقين جيديـن، الأمر الـذي اعتبرته كونسـويلو أساسـاً صـلباً للزواج أكثر من القصة العاطفية التي لن تدوم على أي حـال. بهـذه الطريقة، بدأت هي وأرثر. كان صـديقاً لعائلتها، وطلب إذن والدها للتقرب منها، ولطالما كانا صديقين بقدر ما كانا زوجاً وزوجة. لا تتخيل عريساً أفضل لابنتها، ومثل جوشيا، رأت أن آنابيل ستكون بحال جيدة مع رجل أكبر سـناً وأكثر نضـجاً. أضـاف بحذر: «أتمنى ألا تكوني صدمت أو غضبت». فيما انحنت كونسويلو وعانقته عناق الأم.

«لا، أنا مسـرورة كثيراً. أعتقد أنك أنتَ وآنابيل تناسـبان بعضكما». برأيها، لم تكن سـنة الحداد مضـيعة للوقت في النهاية. إنها الطريقة المثالية كـي يتعرفـا جيداً بعضـهما إلـى بعض. ولا توجد منافسـة في الحفلات من شـباب سـخيفين لتبديل رأي آنابيل. جوشـيا رجل محترم، وسيكون زوجاً رائعاً لأي كان، خصوصاً ابنتها. ويبدو أن آنابيل لا تعارضه، لا بل إنها تستلطفه كثيراً. سألت كونسويلو بسذاجة «هل تظن أنها تشك في نواياك؟». لا تعرف إذا تودّد إليها أم لا، أو قبّلها، أو غازلها، أو لمّح لها عما يدور في باله. لم تقل آنابيل أبداً أي شـيء لأمها، مما جعلها تظن أنها لا تعرف أبداً ما يجول في بال جوشيا.

قال لكونسـويلو بصـراحة: «لم أقل أبداً أي شـيء، لن أفعل ذلك قبل أن أتحدث إليك، بالرغم من أنني كنت أفكر في الموضـوع طوال فصـل الصيف، لكنني رأيت أن الوقت مبكر جداً. وكنت بعيداً لسوء الحظ خلال الأسابيع القليلة الماضية. لا أظن أن آنابيل تشك في أي شيء. أودّ الانتظار للتحدث معها بشأن هذا الموضوع، إلى أن تنتهي سنة الحداد في شهر أبريل. أسـتطيع ربما التحدث معها خلال شـهر مايو». عرف أنها ستكون قد بلغت العشـرين حينها، ويكون هو في التاسـعة والثلاثين، أي أنه سـيكون كبيراً

نوعاً ما عليها. خشي أن تعارض ذلك، لكنه غير أكيد. لم تكن مغناجة معه، لكنه أحسّ أنهما أصبحا فعلاً صديقين جيدين. وتماماً مثل أمها، رأى أن هذا ركيزة ممتازة للزواج. إنها سابقة بالنسبة إليه. لم يطلب قبلاً يد أي امرأة للزواج، لكنه أمل ألا يكون قد فات الأوان. في الآونة الأخيرة، بدأ يفكر أنه يحب إنجاب أولاد منها. بدت مثل صديقة العمر المثالية بالنسبة إليه. كانت كونسويلو متحمسة كثيراً.

قالت كونسويلو: «لم يكن في وسعي العثور على شخص أفضل لها، لو اخترتك بنفسي». وبدت مسرورة، وضغطت على الجرس لطلب رئيس الخدم. حين ظهر ويليام، طلبت منه كأسي شراب خفيف. ذهل جوشيا قليلاً. لم يتوقع أن يكون الأمر بهذه السهولة.

«لست واثقاً من أنه يجدر بنا الاحتفال الآن. لا يزال علينا طلب رأيها، في شهر مايو. قد لا تعتبر الأمر فكرة رائعة مثلنا نحن. إنها شابة جداً، وأنا في ضعف عمرها».

قالت كونسويلو: «أظن أنها واعية أكثر من ذلك، وهي تستلطفك جوشيا. أظن أنكما ستتفقان جدًّا». بينما عاد رئيس الخدم، وأعطى كلاً منهما كأساً من الشراب الخفيف.

قال: «أظن ذلك أيضاً». بدا سعيداً وتمنى لو يستطيع سؤال آنابيل بعد الظهر، لكن من غير الملائم طلب يدها مباشرة بعد موت أرثر وروبرت. قال جوشيا بتفاؤل: «أتمنى أن توافق».

ذكّرته كونسويلو «يعود هذا إليك، لديك الأشهر الستة القادمة للفوز بقلبها وإتمام الصفقة».

قال بحذر: «من دون أن تعرف ما أرمي إليه».

اقترحت عليه حماته المستقبلية "ربما يمكنك إعطاء تلميح بسيط بين الحين والآخر"، فضحك.

"إنها ذكية جداً ولن يمرّ ذلك عليها. إذا بدأت التلميح، قد أطلب يدها أيضاً. ولا أريد إخافتها بفعل ذلك سريعاً جداً".

قالت كونسويلو: "لا أظن أن إقناعها سيكون صعباً مثلما تظن". وابتسمت له ابتسامة عريضة تحت نور شمس بعد ظهر يوم دافئ من شهر أكتوبر. بفضله، كان هذا يوماً مثالياً. أسفت فقط لعدم وجود أرثر لمشاركتها الفرحة، لقد اعتقدت أن ما يجري كان سيفرحه لو كان على قيد الحياة.

كانا لا يزالان يتحدثان بطريقة ودودة مع بعضهما، عن خطة جوشيا، حين وصلت آنابيل إلى الحديقة وهي لا تزال تضع مئزر المستشفى. كان هناك دم عليه، وهذا ما أزعج أمها.

وبختها كونسويلو "انزعي عنك هذا، واذهبي لغسل يديك. بالله عليك آنابيل، أنت تحضرين الجراثيم إلى المنزل". ذهبت آنابيل بسرعة، وعادت بعد خمس دقائق، من دون المئزر، في فستان حداد أسود. بدت مثل ناذرة عفة شابة. إنها صاحبة طلة رزينة، لكنها ابتسمت حين رأت جوشيا، وكان الشيء الوحيد الحزين فيها هو فستانها. بدت في مزاج رائع.

"أمضيت يوماً مذهلاً"، أعلنت، ثم لاحظت الشراب الخفيف الذي كانا يشربانه. تلاحظ دوماً كل شيء، ولا تفوّت أبداً أي تفصيل. "لماذا تشربان؟ بماذا تحتفلان؟".

أجابتها أمها بهدوء "جاء جوشيا لإخباري أنه حصل على ترقية في المصرف، سلّموه كل أنواع الحسابات ليهتم بها. ورأيت أنه يجدر بنا تهنئته. هل تودين شرب كأس أنتِ الأخرى؟". أومأت آنابيل برأسها. إنها تحب الشراب الخفيف، وذهبت لإحضار كأس بنفسها، ثم هنّأت جوشيا على ترقيته، بالرغم من أنها لم تجد أبداً القطاع المصرفي مثيراً جداً. كانت تسأم حين يتحدث والدها وروبرت عن ذلك أيضاً. إنها أكثر اهتماماً بالعلوم.

سألها برفق "ماذا فعلت في المستشفى اليوم؟". أحسّ فجأة وكأنها أصبحت زوجته، وكان يشعر بعواطف حنونة جداً تجاهها، لكن لا يُسمَح له بالكشف عنها.

قالت: "الكثير من الأمور المهمة". وابتسمت له، ثم ارتشفت القليل من الشراب الخفيف. لم تكن تعرف أنها تشرب احتفالاً بخطوبتها المستقبلية،

وهذا ما جعل جوشيا وكونسويلو يبتسمان أيضاً. لقد أصبحا متآمرين بعد ظهر اليوم. "سمحوا لي بمشاهدة كيفية تقطيب جرح كبير".

حذرتها أمها "إذا أخبرتني عن ذلك، سأصاب بالغثيان". فضحكت آنابيل، فيما انتقلتا إلى موضوع آخر. قالت كونسويلو: "عليك التوقف عن فعل ذلك في يوم ما، ستكبرين يوماً ما وتتزوجين، ولا يمكنك التسكّع في المستشفيات ومراقبتهم وهم يقطبون الجروح".

ذكّرتها آنابيل مبتسمة "أنت تفعلين ذلك".

"لا أفعل. أحمل الصواني إلى المرضى في مستشفى أكثر تمدناً، ولم أكن أملك الوقت لفعل ذلك حين كنت صغيرة. يمكنك العودة إلى هذا العمل حين تكبرين".

تذمرت آنابيل "لا أفهم لماذا يجدر بي التوقف إذا تزوجت، الكثير من النساء أنجبن الأولاد ولا يزلن يعملن في المستشفى. بالإضافة إلى ذلك، قد لا أتزوج أبداً. من يعلم؟".

"لا أريد سماع ذلك!"، قالت أمها مقطّبةً حاجبيها، ثم التفتت نحو جوشيا. بالكاد تستطيع انتظار موعد زواجهما وإنجاب الأولاد. سيكون ذلك فصلاً جديداً تماماً في حياتهم، وعرفت أن آنابيل ستكون أماً رائعة. إنها صبورة جداً وحنونة، وستكون زوجة ممتازة لجوشيا.

تحدثوا بعدها عن زفاف هورتي، الذي بات بعد أسابيع قليلة فقط. إنها مشغولة جداً بحيث بالكاد تراها آنابيل الآن. وقال جوشيا إنه سيذهب إلى الزفاف. قالت آنابيل بهدوء إنها لا تستطيع، ثم تفاجأت بجواب أمها.

قالت كونسويلو: "لا أرى لمَ لا يمكنك الذهاب إلى دار العبادة، ما من شيء يمنعنا من الذهاب إلى دار العبادة. في الواقع، ربما يجدر بنا الذهاب على نحو أكثر تواتراً. يمكنك العودة إلى المنزل بعد ذلك، وتفادي حفل الاستقبال. لكنك تستطيعين على الأقل رؤية هورتي وهي تتزوج. في النهاية، تبقى صديقتك الأقدم والأعزّ".

سارع جوشيا إلى القول: "أسعد باصطحابكما أنتما الاثنتين". فيما

استدار نحو عروسه المستقبلية التي لم تكن تعرف في ماذا يفكر. ستكون هذه فرصته الأولى لمرافقتها أمام العموم، وتحمّس كثيراً للفكرة.

قالت كونسويلو بهدوء: "لا أظن أنه يجدر بي الذهاب". ليست مستعدة بعد للظهور أمام العموم. "لكن سيكون رائعاً إذا رافقت آنابيل إلى دار العبادة".

سأل آنابيل مباشرة "هل تودّين ذلك؟". ابتسمت له ابتسامة عريضة فيما أومأت برأسها.

"أودّ ذلك". ستكون كل صديقاتها هناك. بهذه الطريقة على الأقل، يمكنها حضور الزفاف. وسيكون الذهاب مع جوشيا ممتعاً، تماماً مثلما كان الذهاب مع روبرت. رافقها أخوها غالباً إلى الحفلات، بالرغم من أنها كانت حفلات صغيرة قبل حفل تقديمها إلى المجتمع. وستقيم هورتي زفافاً ضخماً. تمت دعوة ثمانيمئة شخص، ومعظمهم سيأتون على الأرجح.

قالت أمها: "علينا أن نتدبر شيئاً لترتديه". يتوجب على آنابيل ارتداء فستان أسود ملائم، ولا تملك أي شيء رسمي بألوان داكنة.

"سيكون ذلك ممتعاً جداً"، قالت آنابيل وهي تصفق بيديها، وتبدو مثل طفلة فيما ابتسم لها كل من أمها وجوشيا.

قالت لها أمها مع نظرة حنونة: "سيكون كل شيء رائعاً من الآن وصاعداً". ارتاحت كثيراً لنوايا جوشيا.

عندها، وضعت آنابيل ذراعيها حول عنق جوشيا وعانقته. بدا مسروراً جداً. قالت بسعادة: "شكراً لك على اصطحابي".

قال ممازحاً: «إنها إحدى التضحيات الواجب القيام بها في الحياة، سأتدبر أمري». بالكاد يستطيع انتظار الأشهر الستة المقبلة، ومن ثم سيذهبان إلى زفافهما. فكرت أمها في الأمر نفسه في الوقت نفسه، وتبادلت هي وجوشيا نظرة المعرفة فوق رأس آنابيل، وابتسما. لا تعرف آنابيل ذلك بعد، لكن مستقبلها أصبح آمناً الآن. هذا كل ما أرادته لها أمها منذ ولادتها.

الفصل الخامس

كانت آنابيل متحمسة بقدر هورتي نفسها، فيما ارتدت ثيابها للذهاب إلى زفاف أفضل صديقاتها. كانت أمها قد اتصلت بالخياطة، التي خاطت لها فستاناً جميلاً من قماش التافتا الأسود خلال وقت قياسي. كان أعلى الصدر والحاشية مزينين بالمخمل الأسود. وثمة سترة متناغمة من المخمل الأسود مع قبعة مزينة بالفرو، بحيث جعل الفرو وجهها مشرقاً. بدت آنابيل مثل أميرة روسية. ونظراً إلى الالتزام بقاعدة عدم وضع أي مجوهرات خلال فترة الحداد، أعارتها أمها زوجاً من الأقراط الماسية. بدت فاتنة حين جاء جوشيا لاصطحابها. وكذلك بدا هو، في ثياب رسمية وسترة خطافية، وقبعة باريسية أنيقة. كانا ثنائياً مذهلاً، وتلألأت الدموع في عيني كونسويلو فيما راقبتهما. تمنّت فقط لو أن آرثر هنا لرؤية ذلك. لكن، ربما لو كان هنا، لما حصل ذلك أبداً. فقد بدأ جوشيا بزيارتهما بسبب تعاطفه مع حزنهما. اتخذ القدر منعطفات غريبة.

ألحت عليهما كونسويلو لأخذ السيارة، وتوماس السائق، وذهبا إلى الزفاف في سيارة هيسبانو-سويزا الرائعة التي كانت تخص والدها، ويتم استعمالها فقط في المناسبات المهمة. برأي كونسويلو، هذا حدث بالغ الأهمية. إنها المرة الأولى التي ستتم فيها رؤية صهرها المستقبلي أمام العموم مع ابنتها الوحيدة. فهل من شيء أكثر أهمية من ذلك، باستثناء الزفاف؟

راقبتهما بحنان فيما خرجا من الباب، ثم صعدت إلى غرفة نومها، وتاهت في أفكارها. تذكرت المرة الأولى التي خرجت فيها مع آرثر، بعدما طلب يدها من والدها. كان ذلك لحضور حفل تقديم صديقة إلى المجتمع. وكانت أصغر بسنة واحدة من ابنتها في ذلك الحين.

أوصلتهما السيارة إلى دار العبادة، في الجادة الخامسة، وفتح السائق الباب لجوشيا أولاً. استدار وأخرج آنابيل من السيارة. كانت تربط شعرها

الأشقر إلى الخلف، تحت قبعة المخمل والفرو، مع قطعة قماش مخرمة صغيرة فوق الوجه. بدت أنيقة مثل أي امرأة باريسية، وأكبر من عمرها، بسبب الفستان الأسود الكبير. لم يكن جوشيا يوماً فخوراً أكثر من ذلك.

قال بمرح: «تعرفين، بالنسبة إلى فتاة تفرك الأرضيات في المستشفى وتشرّح الجثث، تبدين جميلة جداً حين ترتدين الثياب الأنيقة». فضحكت، مما جعلها تبدو أكثر جمالاً فيما تلألأ قرطا أمها الماسيان تحت القماش المخرم الرقيق. بدت أنيقة، ومثيرة، ورومنسية، وفرح جوشيا كثيراً بالمرأة التي أمل أن يتزوجها. لم يدرك تماماً كم هي جميلة في الواقع، لأنها لم تهتم كثيراً بنفسها، ولم ترتدِ أبداً خلال فترة الحداد ثياباً منمقة ولم تتبرج. حضر حفل تقديمها إلى المجتمع في السنة الفائتة، لكن حتى حينها لم تكن بهذا الجمال. لقد تحولت إلى امرأة خلال العام المنصرم.

رافقهما مرشد يرتدي بذلة رسمية وسترة خطافية إلى أحد المقاعد الخشبية الطويلة في الجهة التي تعود لمدعوي العروس في دار العبادة. لقد توقع حضورهما، ولاحظ جوشيا أشخاصاً ينظرون إليهما بإعجاب واضح. إنهما ثنائي لافت جداً للنظر. كانت أنابيل غير واعية لذلك، مذهولة بأزهار الأوركيدة البيضاء التي طلبتها والدة هورتي. شاهدت أنابيل الفستان قبلاً، وعرفت أن هورتي ستبدو رائعة فيه. لديها جسم رائع. الفستان من الساتان الأبيض، مغطى بالمخرمات البيضاء، مع ذيل يمتد لأميال وراءها. هناك ست عشرة فتاة في فساتين من الساتان الرمادي الباهت، يحملن أزهار أوركيدة بالغة الصغر. إنه زفاف أنيق جداً، وستحمل هورتي باقة كبيرة من زنبق الوادي.

أخذا مقعديهما بينما نظرت أنابيل من حولها. تعرفت إلى جميع الجالسين على المقاعد الخشبية أمامها وخلفها، وعرف جوشيا معظمهم أيضاً. ابتسم الناس وألقوا تحيات صغيرة. بدوا مهتمين لرؤيتها مع جوشيا، ولاحظ بعدها أن أمها سمحت لها بوضع أحمر الشفاه. برأيه، ما من امرأة في دار العبادة أجمل من أنابيل فيما جلست قربه، بما في ذلك العروس فيما جاءت عبر الممشى، على عزف مقطوعة العروس من لوهنغرين لواغنر.

تركزت كل العيون على هورتي، ولم يكن والدها يوماً أكثر فخراً. أدركت أنابيل حينها أنه في يوم زفافها، لن يكون هناك أحد ليرافقها في الممشى، لا والدها ولا أخاها. مجرد التفكير في ذلك جعل الدموع تتلألأ في عينيها، وحين لاحظ ذلك، ربّت جوشيا على ذراعها. أحسّ بما كانت تفكر فيه. بدأ يفهمها جيداً، ويتعرف إليها أكثر. وبالرغم من أنه لم يدخل إلى حياتها منذ زمن بعيد، بدأ يغرم بها. استمتع بالجلوس قربها خلال الاحتفال. سارت الأمور كلها على ما يرام، وحين عاد العروسان في الممشى بعد انتهاء مراسم الزفاف، كان الجميع يبتسمون. سارت الفتيات الست عشرة مع عدد موازٍ من الشبان خلف العروسين، إضافة إلى صبي عمره خمس سنوات حمل خاتمي الزواج، وفتاة عمرها ثلاث سنوات حملت سلة الأزهار، وارتدت فستاناً من قماش الأورغنزا الأبيض لكنها نسيت رش بتلات الورد واكتفت بالإمساك بها في يدها.

ألقى جوشيا وأنابيل التحية على الأصدقاء بين حشد الأشخاص الذين التقوا بهم في دار العبادة. ثم سارا في خط استقبال التهاني لتهنئة العروسين وأهلهما، وأخيراً، بعد ساعة من الزفاف، غادر الجميع دار العبادة للذهاب إلى حفل الاستقبال. تمنت أنابيل لو أنها تستطيع الذهاب معهم، وعرفت أنه سيكون حفلاً رائعاً طوال الليل، لكن لا مجال أبداً لتشارك فيه. عاد جوشيا معها في السيارة إلى المنزل، ورافقها إلى المنزل، فيما شكرته أنابيل على مرافقتها.

قالت وهي تبدو مسرورة جداً: «أمضيت وقتاً رائعاً». كان رائعاً فعلاً رؤية كل صديقاتها، والتعرف حتى إلى بعض أصدقاء جوشيا الذين كانوا طبعاً أكبر منها سناً، وإنما بدوا لطفاء جداً.

قال بصراحة: «وأنا أيضاً». كان فخوراً بالذهاب معها. إنها شابة جميلة جداً.

«يجدر بك الإسراع كي لا تتأخر على الحفل»، قالت فيما نزعت قبعتها، وقبّلته على وجنته، ودفعته نحو الباب. بدت أكثر أناقة من دون القماش المخرم، وكان قرطا أمها يتلألأن بقوة.

قال لها: «لست مستعجلاً، اعتذرت عن الذهاب إلى الحفل». كان يبتسم لها.

«حقاً؟». بدت مذهولة. «لماذا؟ سيكون هذا زفاف العام». لقد رتّب أهل هورتي كل شيء، ولا تريد أن يفوّته جوشيا. لم يخطر في بالها سبب اعتذاره عن المشاركة.

ضحك، ثم أضاف «حضرت الكثير من حفلات الزفاف هذه السنة، بما يجعلني أكتفي منها لسنوات طويلة. ستكون هناك حفلات أخرى. لِمَ يجدر بي الذهاب إلى الحفل، فيما لا تستطيعين أنتِ فعل ذلك؟ لا يبدو هذا منصفاً بالنسبة إليّ. كان الزفاف في دار العبادة كافياً. رأينا الكثير من الأشخاص. أستطيع الذهاب إلى الحفلات في أي وقت. لِمَ لا نذهب إلى المطبخ ونحضّر شيئاً لنأكله؟ أصنع سندويشاً لذيذاً وعجة خفيفة». لم يتناول أي منهما العشاء. اختفى الموظفون في الليل، وكانت أمها في الأعلى، نائمة على الأرجح.

«هل أنت جاد؟ ألا تظن أنه يجدر بك الذهاب إلى حفل الاستقبال؟»، ألحّت عليه. لقد شعرت بالذنب لمنعه من الذهاب.

ضحك مجدداً «سيكون غريباً فعلاً إذا ذهبت بعدما اعتذرت، سيظنون أنني مجنون، ولن أحصل على كرسي. فلنذهب ونتحقق ماذا يوجد في المطبخ، وسأبهرك بمهاراتي في الطبخ».

«في هذه البذلة؟». كان يرتدي بذلة رسمية وسترة خطافية مع أزرار لؤلؤية وماسية.

«أستطيع نزع السترة، إذا كان ذلك لا يصدمك». كان يرتدي السترة الرسمية التقليدية مع أزرار مزخرفة، مصنوعة كلها في باريس مع القبعة. كان ذا طلة بهية جداً، وبدا شريكاً مثالياً لها.

قالت: «لن أصدم. أنا أيضاً سأنزع سترتي». ونزعت عنها السترة المخملية المزينة بالفرو، وكشفت عن كتفين قشديتين وصدر جميل نظر إليه بتكتم.

قال وهو يبتسم لها بإعجاب: «هذا فستان جميل جداً».

قالت بخجل: «أنا مسرورة لأنك أحببته». جعلتها الأمسية ناضجة فجأة. كان حفل تقديمها إلى المجتمع الحدث الوحيد من نوعه الذي حضرته. واستمتعت كثيراً بالذهاب إلى الزفاف برفقة جوشيا.

رافقته آنابيل إلى المطبخ، وأنارت الأضواء. كان كل شيء نظيفاً وفي ترتيب مثالي. تحققا من الثلاجة وعثرا على البيض، والزبدة، وخضار مطهوة، ونصف حبشة، وبعض اللحم البقري. أخرجت معظم هذه الأغراض ووضعتها على طاولة المطبخ. ثم عثرت على الخس وبعض الخضار الطازجة.

وضعت الأطباق على طاولة المطبخ، وهي في فستان السهرة، فيما نزع جوشيا سترته الخطافية، وحضّر العشاء. قطّع لحم البقر والحبش إلى قطع ناعمة، وحضّر السلطة، وأعدّ عجة جبن ممتازة في المقلاة. كانت وجبة لذيذة، فيما جلسا إلى طاولة المطبخ، وتحدثا، وعلّقا على ما شاهداه. أخبرها ببعض الإشاعات عن أشخاص التقت بهم، وأطلعته هي على أخبار بعض صديقاتها. كان حديثاً شيقاً، وجلسا يتحدثان لوقت طويل بعدما انتهيا من تناول الطعام. لا تملك مفتاح حجرة الشراب الفرنسي، وقال إنه يسر لو قدمت له كوب حليب. إنها أجمل أمسية عرفتها آنابيل منذ أعوام.

تحدثا عن العطلات، وقال إنه سيذهب إلى بوسطن للتواجد مع عائلته في مناسبة الشكر، لكنه قال إنه سيكون في نيويورك في الميلاد. ذكّرت نفسها بضرورة سؤال أمها إذا كان في وسعهما دعوته لعشاء الميلاد. سيكون الاحتفال صعباً عليهما هذه السنة. يصعب التصديق أنه بعد عام على حفل تقديمها إلى المجتمع، تغيرت حياتها بصورة جذرية، وقالت له ذلك.

قال بهدوء: «لا تعرفين أبداً ما تخبئه لك الحياة، عليك أن تكوني ممتنة لما تملكينه، طالما أنك تملكينه. لا يمكن التوقع بالقدر، ولا نعرف أحياناً كم نحن محظوظون إلى أن تتغير الأمور».

أومأت برأسها، ونظرت إليه بحزن. «أعرف كم كنا محظوظين،

وكذلك أمي. جميعنا كنا نعرف. لطالما شعرت أنني محظوظة بأفراد أسرتي الذين أملكهم. لا أصدق أن أبي وأخي قد رحلا»، قالت بهدوء، وفيما نظر إليها وضع يده برفق فوق يدها.

«يعمل القدر أحياناً على إبعاد بعض الأشخاص، ثم يدخل أشخاص آخرون في الوقت الذي لا نتوقعه. عليك أن تكوني واثقة بأن الأمور ستبقى جيدة من الآن وصاعداً. لقد بدأت حياتك».

أومأت برأسها مجدداً. «لكن بالنسبة إلى أمي، انتهى الأمر. لا أظن أنها ستتعافى يوماً». قلقت عليها آنابيل كثيراً.

قال بهدوء: «لا تعرفين ذلك، يمكن أن تحصل الأشياء الجيدة لها أيضاً».

قالت آنابيل بهدوء: «أتمنى ذلك». وشكرته على وجبة الطعام. كانت أمسية جميلة. ساعدها على وضع الأطباق في حوض الغسيل، ثم استدارت نحوه مبتسمة، وتعززت الصداقة بينهما. «أنت طاهٍ ممتاز».

«انتظري حتى تتذوقي أطباق السوفليه. أحضّر أيضاً الحشوة في مناسبة الشكر».

«كيف تعلمت الطهو؟». بدت مسرورة. لم يحاول أي من الرجال في عائلتها الطهو أبداً، حتى إنها غير واثقة ما إذا كان أيّ منهم يعرف مكان المطبخ.

ضحك. «إذا بقيت عازبة لوقت طويل مثلي، تموتين جوعاً أو تتعلمين إطعام نفسك. أو تخرجين إلى المطعم كل ليلة، فيصبح الأمر مرهقاً. في الكثير من الأوقات، أفضّل البقاء في المنزل والطهو».

«وأنا أيضاً، بشأن البقاء في المنزل. لكنني لست طاهية جيدة».

«لا حاجة إلى أن تكوني هكذا»، ذكّرها، وبدت محرجة لبرهة. تمت خدمتها طوال حياتها. وكذلك هو.

«يجدر بي التعلم في يوم من الأيام. ربما سأفعل ذلك». تأثرت بمدى براعته وتنظيمه في المطبخ.

قال متطوعاً: «أستطيع تعليمك بعض الأمور». وأحبت الفكرة.

قالت بحماسة: «يبدو هذا ممتعاً». تمضي دوماً وقتاً جيداً معه.

«اعتبري الأمر مثل العلوم، فتصبح المسألة أسهل عليك». ضحكت فيما أطفأت الأنوار، ولحق بها على السلالم. عبرا بابين، وعادا إلى الردهة الأساسية، تحت الثريا. كان يحمل سترته الخطافية، وكانت قبعته وقفازاه على طاولة الردهة. حملها، وارتدى سترته، ووضع القبعة على رأسه. بدا أنيقاً أكثر من أي وقت مضى، لن يشك أحد في أنه حضّر العشاء.

«تبدو رائعاً، سيد ميلبانك. أمضيت وقتاً رائعاً معك الليلة».

قال لها: «وأنا أيضاً». وقبّلها بخجل على خدّها. لا يريد استعجالها، فلا يزال أمامهما أشهر ليكونا فقط صديقين، بالرغم من مباركة أمها. «أراك قريباً. شكراً على الذهاب معي إلى زفاف هورتي، آنابيل. يمكن لمثل هذه الأمور أن تكون مضجرة جداً إلا إذا ذهبت بصحبة أحد ممتع».

«أظن ذلك أيضاً»، وافقته الرأي. «وأفضل شيء كان التحدث في المطبخ بعد ذلك». ضحكت، وابتسم لها أيضاً.

«ليلة سعيدة آنابيل»، قال لها هذا وفتح الباب، واستدار للنظر إليها قبل أن يغلقه وراءه. رفعت سترتها عن الكرسي، ووضعت قبعتها على رأسها في زاوية مجنونة، وصعدت السلالم إلى غرفتها وهي تبتسم وتتثاءب. لقد أمضت وقتاً رائعاً، وكانت مسرورة جداً بصداقتها مع جوشيا.

الفصل السادس

بعد إلحاح آنابيل، الذي أفرح كونسويلو كثيراً، دعتا جوشيا لتناول العشاء ليلة الميلاد. لم تكن هذه خطوة رومنسية من جانب آنابيل، وإنما شعرت فقط أنه كان لطيفاً جداً معهما وعليهما فعل شيء له في المقابل لأنه وحيد في الميلاد. وكما هي الحال دوماً، تناولوا عشاء ليلة الميلاد بثياب رسمية. ارتدت آنابيل وأمها فستاني سهرة، وكما كان مقرراً، وصل جوشيا في بذلة رسمية مع قميص رسمي وأزرار لؤلؤية وماسية للكمين كانت تخص جده. وفاجأهما بإحضار الهدايا لهما.

اشترت آنابيل وشاح كاشمير لجوشيا، وكتاب طهو كمزحة منها، لكنه قال إنه أحبه. وأحرجت آنابيل حين اكتشفت أنه اشترى لها سواراً ذهبياً جميلاً من تيفاني، ووشاحاً جميلاً من الحرير الأسود لأمها.

تشاركوا أمسية جميلة ودافئة، وجلسوا أمام الموقد بعد العشاء. إنه ميلاد صعب عليهما هذه السنة، وتجنب جوشيا التطرق إلى موضوع المحاكمات الحالية التي تتناولها الأخبار بشأن التايتانيك. عرف أنه مهما حصل، لا ترغبان أبداً بسماع ذلك. لن يغير هذا أي شيء بالنسبة إليهما الآن.

أعلنت آنابيل لهما أن هورتي عادت من شهر العسل بعد ظهر اليوم، واستعجلت لإخبارها أنها حامل. كانت هورتي واثقة من ذلك وقالت إنها وجايمس متحمسان، بالرغم من أنها تجد الأمر مخيفاً قليلاً. لقد أصبحت زوجة للتو، وستصبح لاحقاً أماً، في وقت ما من أواخر أغسطس، حسبما تصورت. قالت هورتي إنها حملت بالطفل في باريس، ثم ضحكت بطريقة غامضة، مثل الفتاة الصغيرة التي لا تزال عليها بالرغم من وضعها الاجتماعي الجديد، وأطلقت كل أنواع التلميحات عن حياتهما الجديدة التي لم تشأ آنابيل

سماعها. قالت هورتي إن الزواج رائع، وجايمس مذهل. لم تذكر آنابيل أي شيء من ذلك أمام أمها أو جوشيا، وإنما قالت فقط إن هورتي حامل وهي متحمسة كثيراً لذلك. عند الاستماع إلى هذه الأخبار، أملت كونسويلو أن يتشارك جوشيا وآنابيل في الميلاد القادم النوع نفسه من الأخبار، على افتراض أن يكونا قد تزوجا حينها، وأملت بشدة أن يفعلا ذلك. لا ترى كونسويلو أي جدوى من الخطبة الطويلة بعد الإعلان عنها.

قبل أن يغادر تلك الليلة، قال جوشيا إنه سيذهب للتزلج في فيرمونت خلال رأس السنة مع رفيقه القديم، هنري أورسون. بما أنهما آخر رجلين عازبين من عمرهما، بحسب قوله، قال إنه من الجميل وجود شخص يمكن تشارك الأمور معه. رحلتهما إلى وودستوك للتزلج خلال رأس السنة هي تقليد يقومان به كل عام، وهو يتطلع إليه بشدة هذه السنة، بعد إضافة قفزة تزلج جديدة إلى حلبة التزلج. سأل جوشيا آنابيل إذا كانت تجيد التزلج أو السير بأحذية التزلج على الثلج. قالت إنها لا تعرف، لكنها تحب التعلم. مرّت نظرة مبطّنة بينه وبين كونسويلو، ووعد بتعليمها في وقت ما. اقترح أن يقوم هو وآنابيل وأمها برحلة معاً إلى فيرمونت. أشرقت عينا آنابيل، وقالت إن هذا يبدو ممتعاً كثيراً. قال إنه توجد مزالج رائعة في وودستوك أيضاً.

بقي جوشيا حتى بعد منتصف الليل، ثم شكرهما مجدداً على الهدايا والوجبة اللذيذة، واختفت كونسويلو بطريقة غريبة فيما تمنى الشابان ليلة سعيدة لبعضهما. شكرته آنابيل كثيراً على السوار، الذي أحبته، ووضعته فوراً حول معصمها.

قال بحنان: «أنا مسرور لأنه أعجبك، أعرف أنه لا يفترض بك وضع المجوهرات الآن، لكن إذا عارضت أمك، ربما يمكنك وضعه لاحقاً». لم يشأ إهانة كونسويلو بإهداء آنابيل سواراً فيما هما في فترة الحداد، لكنه أراد إعطاءها شيئاً تستمتع به لوقت طويل. ولم يشأ أن يقدم لها شيئاً باهظاً جداً، وإلا قد تشك في ما يجول في باله. رأى أن السوار الذهبي البسيط جيّد، وتحمست آنابيل له.

قالت فيما رافقته إلى الباب: «استمتع بوقتك في التزلج». كان

يرتدي معطفاً أسود أنيقاً جداً ويضع وشاحاً من الحرير الأبيض فوق بذلة التوكسيدو. بدا أنيقاً جداً، كما هي حاله دوماً. وبدت آنابيل أنيقة وشابة في فستان السهرة الأسود البسيط.

وعدها «سأتصل بك حين أعود، سأعود بعد الأول من يناير». قبّلها على وجنتها، وفعلت هي الشيء نفسه، فيما ودّعا بعضهما.

وجدت آنابيل أمها في المكتبة تتصفح كتاباً. إنه أحد كتب والدها التي قرأتها آنابيل قبلاً.

«لماذا جئتِ إلى هنا؟»، سألت آنابيل، وبدت متفاجئة. فأمها لا تحب المطالعة كثيراً، والتفتت نحو ابنتها مبتسمة ابتسامة لطيفة.

«فكرت في أنك قد ترغبين أنت وجوشيا بالتواجد لوحدكما لتمني ليلة سعيدة لبعضكما». ثمة معنى أكثر عمقاً في عينيها، وبدت آنابيل منزعجة قليلاً.

«جوشيا؟ لا تكوني سخيفة، ماما. نحن مجرد صديقين. لا تباشري في تخيل أفكار عنه. سيفسد ذلك كل شيء. أحب الصداقة التي نشأت بيننا».

سألت كونسويلو «ماذا لو أراد أكثر؟». وقطّبت ابنتها حاجبيها.

«لا يريد. ولا أنا. نحب الأمور مثلما هي. إذا كانت هورتي تزوجت وستنجب طفلاً، لا يعني ذلك أنه عليّ فعل الشيء نفسه. لا أستطيع حتى الخروج من المنزل قبل أربعة أشهر. لذا، لن ألتقي بأي كان قبل فترة، ومن يعرف ما إذا كنتُ سألتقي بشخص يعجبني وأرغب بالزواج به». تنهدت ووضعت ذراعيها حول أمها. سألت بحنان «هل تحاولين التخلص مني ماما؟».

«طبعاً لا، أريدك فقط أن تكوني سعيدة. وما من شيء يجعل المرأة أكثر سعادة من الزوج والطفل. اسألي هورتي. أراهن أنها تتحرق شوقاً لحمل الطفل بين ذراعيها».

«تبدو سعيدة جداً»، اعترفت آنابيل مبتسمة ابتسامة خجولة. «كانت تحاول إخباري كل شيء عن شهر عسلها. يبدو وكأنهما أمضيا وقتاً جميلاً».

«متى تتوقع ولادة الطفل؟».

«في نهاية شهر أغسطس، حسبما أظن. ليست واثقة. تقول إن ذلك حصل في باريس، وجايمس متحمس أيضاً. يريد صبياً».

«كل الرجال يقولون ذلك. لكنهم يغرمون فعلياً ببناتهم. هكذا فعل والدك لحظة رآك». ابتسمتا للذكرى. كان ميلاداً صعباً بالنسبة إليهما، لكن وجود جوشيا معهما ساعد قليلاً. يكون كل شيء أكثر سهولة ومتعة عند وجوده.

تأبّطت ذراع والدتها، وصعدتا السلالم إلى غرفتيهما، وتبادلتا الهدايا في اليوم التالي. اشترت لها أمها معطفاً رائعاً من الفرو، واشترت آنابيل لأمها زوجاً من الأقراط الياقوتية من كارتييه. حاولت أن تحضر لها الهدية التي كان سيحضرها والدها، وإن بقيمة أكثر تواضعاً. لطالما أحضر هدايا رائعة لهم جميعاً. وأرادت التعويض لأمها نوعاً ما هذه السنة، بالرغم من أنها عرفت أنها لا تستطيع التعويض عن كل ما خسرتاه. لكن أمها تأثرت كثيراً بالمبادرة، وبجمال هدية ابنتها، ووضعت القرطين على الفور.

نزلتا معاً إلى الطابق السفلي، وتناولتا فطوراً كبيراً حضّرته بلانش. تساقط الثلج خلال الليل، وبدا أن ثمة سجادة بيضاء تغطي الحديقة. بعد الفطور، ارتدتا الثياب، وذهبتا للقيام بنزهة في الحديقة العامة. سيكون صعباً عليهما قضاء النهار لوحدهما. لقد خسرتا نصف عائلتهما، وفي مثل هذه الأيام، يمكن الإحساس كثيراً بغياب أرثر وروبرت.

في النهاية، كان اليوم أقل ألماً مما توقعتا. تخوفتا منه كثيراً، وحاولتا إبقاء نفسيهما مشغولتين. تناولت كونسويلو وآنابيل الغداء معاً، وتسلتا خلال فترة بعد الظهر، وبحلول موعد العشاء، كانتا متعبتين ومستعدتين للتوجه إلى السرير. لقد اجتازتا النهار، وهذا هو الشيء الرئيسي، وفيما خلعت ثيابها تلك الليلة، وجدت آنابيل نفسها تفكر في جوشيا في فيرمونت. تساءلت ما إذا كان وصل هو وهنري إلى هناك بأمان ويستمتعان الآن. تحب الذهاب معهما للتزلج في يوم ما، مثلما اقترح عليها. يبدو ذلك ممتعاً.

وأملت أن تحظى بالفرصة، ربما في السنة المقبلة، إذا استطاعت إقناع أمها بالذهاب.

كانت بقية العطلة أكثر سهولة من الميلاد. أمضت آنابيل بعض الوقت مع هورتي، وكل ما تتحدث عنه صديقتها الآن هو الطفل، تماماً مثلما لم تتحدث عن أي شيء سوى الزفاف خلال الأشهر الستة الماضية. لا تفكر في شيء آخر أو تشغل نفسها في أمر آخر. هنأتها كونسويلو حين رأتها، وتحدثت هورتي لنصف ساعة عن باريس، وكل الثياب التي اشترتها، والتي لن تتمكّن من ارتدائها بعد فترة وجيزة. قالت إنهما سيذهبان إلى نيوبورت هذا الصيف أيضاً، وإذا أنجبت الطفل هناك، لا مشكلة لديها. ستنجبه في المنزل على أي حال، في نيوبورت أو نيويورك. عند الاستماع إليها وهي تتحدث مع كونسويلو عن ذلك، أحست آنابيل أنها غير معنية بالمحادثة. لا تملك شيئاً للإسهام به. تحولت هورتي إلى امرأة متزوجة وأم بين ليلة وضحاها. لكن آنابيل لا تزال تحب صديقتها، سواء أكانت مضجرة أم لا. أحضرت لها هورتي كنزة جميلة من باريس، مع أزرار لؤلؤية. لونها وردي باهت، وتحرقت آنابيل شوقاً لارتدائها هذا الصيف.

قالت هورتي بنبرة معتذرة: «لم أشأ أن أشتري لك واحدة سوداء، هذا كئيب جداً، ويمكنك ارتداء هذه الكنزة قريباً جداً. أتمنى أن يناسبك ذلك».

«أحبها!»، طمأنتها آنابيل، وكانت تقصد ذلك فعلاً. للكنزة ياقة مخرمة جميلة، ولونها وردي ناعم جداً. بدت رائعة مع بشرة آنابيل وشعرها.

تناولت المرأتان الشابتان الغداء معاً مرات عدة ذلك الأسبوع، وشعرتا بنضوج كبير للذهاب إلى أستور كورت في فندق سان رجيس. كانت هورتي تأخذ وضعها الجديد على محمل الجد، فترتدي الثياب الرسمية، وتضع المجوهرات التي قدّمها لها جايمس، وتبدو أنيقة جداً. حين ذهبتا إلى الغداء، ارتدت آنابيل معطف الفرو الجديد الذي قدمته لها أمها في الميلاد. وشعرت قليلاً كأنها تتزين بثياب أمها. كما وضعت سوار جوشيا حول معصمها.

«مـن أيـن حصـلت علـى هـذا؟»، سـألتها هورتـي حيـن لاحظته. «أحبه».

قالت آنابيل ببسـاطة: «وأنا أيضـاً، قدمه لي جوشـيا ميلبانك لمناسـبة الميلاد. هذا تصرف لطيف منه. كما قدم لأمي وشاحاً».

«كنتما أنتما الاثنان رائعين في زفافي». ثم أشرقت عينا هورتي فجأة، وخطرت لها فكرة. «ماذا عنه؟».

«ماذا عنه؟». لم تفهم آنابيل أي شيء.

«بالنسـبة إليـك، أقصـد. تعرفيـن كـزوج». ضـحكت آنابيـل على تعليقها.

«لا تكوني سخيفة، هورت. إنه في ضعف عمري. تبدين مثل ماما. أقسم إنها مستعدة لتزويجي ببائع الحليب لو استطاعت».

«وهل بائع الحليب ظريف؟». ضحكت هورتي على الفكرة.

«لا. عمره مئة عام تقريباً ولا يملك أسناناً».

«جدياً، لِمَ ليس جوشيا؟ إنه يستلطفك. يتواجد دوماً قربك».

«نحن مجرد صـديقين. نحب الأمر بهذه الطريقة. التطرف في ذلك قد يفسد كل شيء».

«هذا سوار جميل جداً لتقديمه لمجرد صديقة».

قالت: «إنه مجرد هدية، وليس طلب اليد للزواج. جاء إلى العشاء ليلة الميلاد. كان الاحتفال حزيناً جداً هذه السنة»، وغيّرت الموضوع قليلاً.

«أعـرف»، قالـت هورتي بنبرة متعاطفة، ونسـيت أمر جوشـيا في الوقت الحاضـر. «أنا آسـفة بيل. لا بد من أن الأمر مريع». اكتفت آنابيل بالإيماء برأسـها، ثم انتقلنا إلى موضـوعات أخرى، وخصوصاً الثياب. لم تعـرف هورتـي ما يجدر بها ارتداؤه حين تصـبح أكبـر حجماً. إنها تنوي الذهـاب إلـى خياطة أمها لتدبر الأمور خلال الأسـابيع القليلة المقبلة. قالت إن حزام خصرها أصبح ضيقاً، ومشدّ الصدر يقتلها.

اقترحت آنابيل مع ابتسامة «قد تنجبين توأمين».

«ألن يكون ذلك ممتعاً؟»، قالت هورتي وهي تبتسم. لم تتخيل ما يعنيه ذلك، وكل الأمر مجرد حماسة رائعة بالنسبة إليها في الوقت الحاضر.

إلا أنها أصبحت أقل حماسة بعد أسبوعين، حين بدأت تشعر بالغثيان. وخلال الشهرين التاليين، بالكاد استطاعت النهوض من السرير. شعرت أنها مريعة. وحلّ منتصف شهر مارس قبل أن تشعر بالارتياح مجدداً. حتى ذلك الحين، توجب على آنابيل زيارتها لأن هورتي لا تستطيع الخروج. لم تذهب هورتي إلى أي حفل منذ الميلاد، ولم تعد متحمسـة لحملها مثلما كانت قبلاً. شعرت بالبدانة والغثيان في معظم الأوقات، وقالت إن الأمر غير ممتع أبداً. شـعرت آنابيل بالأسـف عليها، وأحضـرت لها الكتب والأزهار، والمجلات للمطالعة. أصـبحت مهمتها الرئيسـية في الحياة إسـعاد هورتي. وأخيراً، في شهر أبريل، نهضت هورتي من السرير. بدت ملامح الحمل بوضوح عليها حينها، بالرغم من أنها حامل في الشهر الخامس فقط. كل النساء في عائلتها قلن إنه طفل واحد، لكنها كانت ضخمة وقالت أمها إنه سيكون صبياً.

كان هذا محور الحديث الوحيد لهورتي، وفي معظم الأوقات، كانت تسـتلقي وتتذمر. قالت إنها تشـعر أنها مثل الحوت. وقالت إن جايمس لم يعـد يسـتمتع بالبقاء معها، وهذا فعـلاً مخيب للأمل. كان يخرج لوحده مع أصـدقائه في معظم الليالي، ووعدها أنه بعد ولادة الطفل، سيعوّضـان عن ذلـك ويخرجـان طـوال الوقت. لكن أمها ذكّرتها أنه عليها إرضـاع طفلها حينها، وحتى لو لم تفعل، ثمة طفل عليها الاهتمام به. إذاً، يبدو أن النضوج ليس ممتعاً كثيراً في النهاية. كانت آنابيل صـبورة جداً معها، تسـتمع إليها وهي تنتحب وتشكو، وأصبحت هورتي تبكي طوال الوقت أيضاً.

خططت كونسـويلو لإقامة احتفال ديني لمناسـبة الذكرى الأولى لوفاة أرثر وروبرت هذا الشـهر. أقيم الاحتفال في دار العبادة التي أقيمت فيها الجنـازة، ثـم تـلا ذلك غـداء في المنزل. حضـر كل الأصـدقاء المقربين لوالدها، وعدد من الأقارب بمن فيهم مادلين أسـتور، التي كان المرحوم زوجها نسيب أرثر، وجاء جوشيا طبعاً، وكل العاملين في المصرف، بمن فيهم هنري أورسون.

حضر جوشيا إلى المنزل كثيراً في الأشهر الأخيرة، وكان دوماً مساعداً وممتعاً، يبتسم أو يمازح طوال الوقت، أو يقدّم هدية صغيرة. اشترى لآنابيل سلسلة من الكتب الطبية التي أحبتها، و«غرايز أناتومي». إضافة إلى هورتي، أصبح أفضل صديق لها في العالم، وكانت صحبته أجمل الآن لأنه ليس مثل صديقتها هورتي حاملاً، ولا يتأسف على نفسه طوال الوقت. أمضت آنابيل دوماً وقتاً جيداً معه، وبدأ في الآونة الأخيرة يصطحبها إلى مطاعم فخمة لتناول العشاء. بعد مرور الذكرى الأولى للوفاة، كانت تتطلع شوقاً للذهاب معه إلى المناسبات الاجتماعية. لم تذهب إلى أي مكان، باستثناء زفاف هورتي، منذ أكثر من عام. قبل غرق التايتانيك، سافر أهلها لمدة شهرين وكانت هي مريضة جداً طوال شهر كامل قبل ذلك، وبالتالي لم تشارك في المناسبات الاجتماعية منذ خمسة عشر شهراً. وفي عمرها، هذا وقت طويل جداً.

ستبلغ العشرين في شهر مايو. وبعد أسبوعين من الاحتفال الديني الذي أقيم لراحة نفسي والدها وأخيها، دعاها جوشيا إلى ما وعدها بأن يكون عشاء رائعاً جداً في مطعم ديلمونيكو، حيث لم تذهب آنابيل أبداً لتناول العشاء قبلاً، وتحرقت شوقاً للذهاب. اشترت فستاناً جديداً للمناسبة، وصففت لها أمها شعرها. شكّت كونسويلو في ما سيحدث، وأملت أن تسير الأمور كما يجب لصالحهما معاً.

جاء جوشيا لاصطحابها عند السابعة مساءً. في سيارته الخاصة هذه المرة، ولحظة رأى آنابيل في الفستان الجديد، صفّر إعجاباً. إنه فستان من الحرير العاجي المثنى يكشف عن كتفيها، ووضعت فوقه شالاً من الحرير الأبيض. إنه تناقض واضح مع الأسود الرسمي الذي ارتدته لوقت طويل جداً. كانت أمها لا تزال ترتدي ثوب الحداد وقالت إنها لا تشعر أنها مستعدة للتخلي عنه بعد. خشيت آنابيل ألا تفعل ذلك أبداً. إلا أنها كانت ممتنة للتخلي عن فساتينها السوداء. لقد حان الوقت.

ذهبا إلى المطعم الأنيق عند السابعة والنصف مساءً، وتم اصطحابهما إلى زاوية هادئة جداً. من الممتع جداً الخروج، وتناول العشاء مع جوشيا.

الأمر حماسي أكثر مما كان مع هورتي، وشعرت بنضوج كبير فيما جلست قبالته إلى الطاولة ونزعت شالها. لا تزال تضع السوار الذهبي الذي قدمه لها في الميلاد. لم تنزعه أبداً.

سألها النادل إذا كانت تودّ شرب الكوكتيل، واعتذرت منه بتوتر. فقد طلبت منها أمها الاكتفاء ببعض المشروب الفرنسي.

«هل تودين شرب بعض الشراب الخفيف؟». عرض عليها حين وصل مشروبه.

«لا، أنا بخير»، ثم ضحكت. ناقشا ألف موضوع مهم، واستمتعا بصحبة بعضهما بعضاً. طلب كل منهما طبق «لوبستر نيوبورغ» الشهير في المطعم، وحلوى الأسكا المخبوزة.

أمضيا أمسية جميلة مع بعضهما، ومع وصول الحلوى، طلب جوشيا الشراب الخفيف لكليهما. أحضر النادل القنينة إلى الطاولة وفتحها لهما، وابتسمت آنابيل فيما ارتشفت القليل.

«هذا لذيذ»، علّقت آنابيل. لقد طلب قنينة فاخرة جداً. تناول جوشيا مشروباً أكثر منها، لكنه لا يزال رزيناً هو الآخر. أراد الاحتفاظ برزانته لما سيقوله لاحقاً. إنه يحضر للأمر منذ وقت طويل، وقد حان اليوم المنتظر أخيراً. شعر بالتوتر في معدته، فيما ابتسم لها وشرب.

قال لها: «على شرف حضورك آنسة ورثينغتون، وللصديقة الرائعة التي أصبحت عليها». فابتسمت له.

قالت بهدوء: «وأنتَ أيضاً». وارتشفت الشراب الخفيف مرة جديدة. لم يكن لديها أي فكرة عما يجول في خاطره. لاحظ الأمر في وجهها. إنها البراءة بعينها.

قال ببساطة: «أمضيتُ وقتاً رائعاً معك آنابيل». وكان هذا صحيحاً.

«وأنا أيضاً. نستمتع دوماً مع بعضنا». بدأت تتحدث حينها عن الكتب الطبية التي قدمها لها، لكنه قاطعها بلطافة، وبدت متفاجئة. يسمح لها عادة بالثرثرة لساعات عما تعلمته في هذه الكتب.

«أريد أن أقول لك شيئاً». نظرت إليه باستغراب، متسائلة عما سيكون ذلك. أملت ألا يكون هناك خطب ما. «انتظرت وقتاً طويلاً حتى أقول لك هذا. لم أرَ أنه من الملائم قول ذلك قبل شهر أبريل، بسبب ذكرى الوفاة. وستحلّ ذكرى ميلادك قريباً. وها نحن الآن».

سألت بسذاجة «هل نحتفل بشيء ما؟». وهي تشعر ببعض الدوار.

قال بهدوء: «أتمنى ذلك، يعود إليكِ أنتِ أن تقرري. ما أردت أن أقوله لك منذ الصيف الماضي هو أنني مغرم بك. لا أريد إفساد صداقتنا، أو إثارة ذهولك. لكن في مرحلة ما، وقعت بغرامك، آنابيل. أظن أننا رائعان معاً، ولا أستطيع البقاء عازباً إلى الأبد. لم ألتقِ أبداً بامرأة جعلتني أرغب بالاستقرار. لكن لا أعتقد أن هناك أساساً أفضل لذلك من الصداقة التي تجمعنا. لذا، أودّ أن أتشرف بطلب يدك للزواج، إذا كنت تقبلين». فيما قال الكلمات، رأى آنابيل تحدق إليه بذهول تام. كان فمها مفتوحاً قليلاً وعيناها متسعتان.

سألته أخيراً حين التقطت أنفاسها «هل أنت جاد؟».

أومأ برأسه. «نعم أنا جاد. أعرف أن الأمر فاجأك، ويمكنك التفكير في الموضوع إذا أردت. آنابيل، أنا مغرم بك منذ وقت طويل».

«لماذا لم تخبرني؟». لم يعرف إذا كانت سعيدة أو غاضبة. لكنها حتماً مصدومة.

«ظننتُ أنه يجدر بي الانتظار حتى الآن». أومأت برأسها. هذا ملائم ومنطقي. ويفعل جوشيا دوماً الشيء الصحيح. إنه أحد الأمور التي تحبها فيه. كانت لا تزال تحدق إليه وهي غير مصدقة.

سألها، وقد بدا قلقاً «هل أنت غاضبة؟». فهزّت رأسها. تلألأت الدموع في عينيها حين نظرت إليه.

قالت: «لا، طبعاً لا. أنا متأثرة جداً». فتطاولت إلى الأمام للإمساك بيده.

«أعرف أنني أكبر منك بكثير. يمكن أن أكون بمثابة والدك. لكنني لا

أريد ذلك. أريد أن أكون زوجك، وأعدك بأنني سأهتم بك إلى الأبد».

صدّقت ذلك فيما أصغت إليه، ثم تساءلت. «هل تعرف أمي؟». برّر ذلك اقتراحاتها الخجولة بشأن جوشيا بين الحين والآخر، والتي لم تفهمها آنابيل أبداً.

«طلبتُ إذنها في شهر أكتوبر، وقالت نعم. أظن أنها تعتقد أن ذلك سيكون لخيرنا نحن الاثنين».

همست آنابيل «وأنا أيضاً». مع ابتسامة خجولة. «لكنني لم أتوقع أبداً حصول ذلك. ظننتُ أننا مجرد صديقين».

«لا نزال كذلك»، أجابها وهو يبتسم أيضاً. «وإذا قبلتِ، سنظل دوماً هكذا. أظن أنه يجدر بالزوج والزوجة أن يكونا صديقين حميمين، إضافة إلى كل شيء آخر. أودّ مشاركة الأولاد معك وبقية حياتي. وسأبقى دوماً صديقك».

«وأنا أيضاً»، قالت وهي تبدو غامضة. ففكرة إنجاب أولاد منه صدمتها قليلاً، لكنها أثّرت في نفسها. فيما أصغت إليه، حاولت عدم التفكير في كل أنواع السلوك الغريبة التي وصفتها هورتي في باريس. فما تتشاركه مع جوشيا يبدو أكثر نقاوة. تكره إفساد ذلك. لكن لطالما كانت هورتي مجنونة قليلاً، وأصبحت الآن أسوأ حالاً، فالشيء الوحيد الذي يكبح هورتي الآن هو ازديادها بدانةً يوماً بعد يوم.

«هل ترغبين ببعض الوقت للتفكير في ذلك؟ أعرف أن الأمر فاجأك. بقيت متكتماً لوقت طويل». ثم ضحك. «لم أكن واثقاً ما إذا كنتِ ستصفعينني أو تقولين نعم».

«هل هذان هما الخياران الوحيدان؟»، سألت وهي تمسك بيده الأخرى. كانت تمسك أصلاً باليد الأولى. «أصفعك أو أقول نعم؟».

«مبدئياً». ابتسم لها، وشدّ على يديها.

«إذاً، الأمر بسيط. الجواب هو نعم. إذا صفعتك، سيُحدِث ذلك فوضى كبيرة. قد يطردوننا خارج المطعم. وقد لا تبقى أفضل صديق لي».

«بلى، سأفعل». ثم طرح عليها السؤال نفسه الذي طرحته عليه حين طلب يدها. «هل أنت جادة؟». كان يشير بذلك إلى النعم الخجولة التي لفظتها. إنها بالكاد مسموعة وإنما نابعة من القلب.

«نعم، أنا جادة. لم أفكر أبداً في علاقتنا بهذه الطريقة من قبل. وحين اقترحت عليّ أمي الموضوع، ظننتُ أنها مجنونة. لكن فيما أفكر الآن في الموضوع، أرى أنه ما من شخص آخر في هذا العالم أرغب بالزواج به». كانا يضحكان فيما شرحت الموضوع.

سألها «هل أخبرتك أنني أحبك؟».

قالت وهي تبتسم صغيرة ساحرة: «أظن أنك فعلت. لكنك تستطيع قولها مجدداً».

«أحبك آنابيل».

«وأنا أيضاً أحبك جوشيا. أحبك كثيراً كثيراً. أظن أن هذه أفضل طريقة لحماية علاقتنا إلى الأبد». وفيما قالت ذلك، رأى عينيها تتلألأن بالدموع، وفمها يرتعش، ولاحظ أنها منزعجة.

همس «ما المشكلة؟».

«أتمنى لو كان في وسعي إخبار روبرت ووالدي. هذا أهم شيء حصل لي في حياتي، وما من أحد لأخبره. تعرف أمي مسبقاً. من سيرافقني في ممشى دار العبادة؟». فيما قالت ذلك، انهمرت الدموع على وجنتيها.

قال بحنان: «سنتدبر الأمر». فيما مسح دموعها بيده. «لا تبكي حبيبتي. سيكون كل شيء على ما يرام».

قالت له: «أعرف». كانت واثقة تماماً من أنها ستكون في أيدٍ أمينة مع جوشيا. فجأة، بدا الأمر منطقياً جداً لها، بالرغم من أنه لم يكن هكذا مسبقاً. إلا أنها الآن فكرته، وفكرتها، وليس اقتراحاً مجنوناً وغير منطقي من شخص آخر. كل شيء منطقي الآن. «متى تريد فعل ذلك؟».

«لا أعرف. يعود الأمر لك. أنا في تصرفك من الآن وصاعداً. يمكننا الزواج متى تريدين».

«ماذا عن نيوبورت هذا الصيف؟»، قالت وبدت شاردة. «في الحديقة. سيكون ذلك أقل رسمية من دار العبادة». ولن يكون هناك ممشى، الأمر الذي يزعجها الآن. ليس لديها أعمام لمرافقتها في الممشى، ولا أحد ليحلّ مكان والدها أو أخيها. لا يوجد أحد على الإطلاق. ستضطر إلى السير في الممشى لوحدها. «ربما نستطيع جعل الزفاف مختصراً جداً، وإقامة حفل كبير بعد ذلك. بعد موت بابا وروبرت، من غير الملائم إقامة زفاف كبير، وأظن أن الأمر سيكون صعباً جداً على أمي. ماذا عن نيوبورت في شهر أغسطس؟».

«يبدو هذا رائعاً لي». ابتسم لها. تسير الأمور على نحو أفضل مما تصوّر أو تجرأ على الأمل منذ شهر أكتوبر الماضي. «هل يعطيك ذلك الوقت لتنظيم الزفاف؟».

«أظن ذلك. لا أريد زفافاً مثل زفاف هورتي، تقول إنها قد تنجب الطفل في نيوبورت».

«ربما تستطيع إنجابه خلال الزفاف». قهقه. لديه الإحساس أن الحياة ستكون ممتعة إلى الأبد مع آنابيل.

سألت آنابيل وهي تبدو قلقة «هل أستطيع الاستمرار في عملي التطوعي في المستشفى؟».

قال ببساطة وهو يبتسم لها: «يمكنك فعل أي شيء تريدينه».

«قالت أمي إنه عليّ التوقف عن فعل ذلك حين أتزوج».

«لست مضطرة إلى التوقف عن القيام بذلك لأجلي، إلا ربما حين تكونين حاملاً. من الأفضل التوقف عن العمل في تلك الفترة». عرفت بمجرد الإصغاء إليه أنه سيكون منطقياً وسيتواجد دوماً لحمايتها. بدا مثل الزواج المثالي بالنسبة إليها، ولم تتخيل لماذا لم تخطر الفكرة في بالها من قبل. أحبت كل ما يقوله، ولطالما فعلت ذلك.

تحدثا لبعض الوقت عن مشاريعهما. توفيت أمه قبل أعوام عدة، وتزوج والده امرأة أخرى لا يستلطفها جوشيا كثيراً، لكنه رأى ضرورة

دعوتهما إلى الزفاف، وأخته من والده مع زوجها. لديه عمّان وأخ. يعيش أخوه في شيكاغو، ولم يكن جوشيا واثقاً من أنه سيأتي. قال إن أخاه غريب الأطوار نوعاً ما. لا يظن أنه سيكون محاطاً بعائلته، وليس لآنابيل سوى أمها مع مجموعة من الأقارب بعيدي الصلة. قالت إنها تودّ إبقاء عدد المدعوين تحت المئة، أو ربما حتى خمسين. وتستطيع أمها إقامة حفل كبير لهما في المدينة في الخريف، الأمر الذي بدا رائعاً بالنسبة إليه. أحب فكرة إبقاء زفافهما خاصاً وشخصياً، كلحظة مميزة بالنسبة إليهما، وليس حشداً لآلاف الأشخاص. لم يرغب يوماً بزفاف كبير، ولا الآن خصوصاً.

سألها وقد عبّر صوته عن سعادته «إلى أين تريدين أن نذهب في شهر العسل؟ شهر أغسطس بات على الأبواب».

«إلى أي مكان لا نحتاج فيه إلى استعمال باخرة. لا أظن أنني أستطيع فعل ذلك لأمي، ولست واثقة من أنني أرغب بذلك أيضاً».

«سنتدبر الأمر. ربما كاليفورنيا أو مكان آخر في جبال الروكي. أو كندا، أو ربما حتى ماين. نيوإنجلند رائعة في هذه الفترة من السنة».

قالت بصراحة: «لا أبالي إلى أين نذهب، جوشيا، المهم أن أكون معك». هذا هو بالضبط شعوره تجاهها. أشار إلى النادل حينها ودفع الفاتورة. لقد سار كل شيء على ما يرام، واعتذر منها لعدم إحضار الخاتم بعد. شعر بالتوتر لناحية اختيار الخاتم المناسب.

أوصلها إلى المنزل، وكانت أمها لا تزال مستيقظة حين وصلا. بما أنها تعرف ما كان يحصل، شعرت بحماسة كبيرة حالت دون تمكنها من النوم. نظرت إليهما بتمعن فيما دخلا عبر الباب، وكانا يبتسمان.

«هل أصبح لديّ صهر؟»، سألت بصوت أعلى قليلاً من الهمس.

قال جوشيا بفخر: «في شهر أغسطس». ووضع ذراعه حول كتفي خطيبته الجديدة.

أضافت آنابيل «في نيوبورت». وهي تبتسم له بطريقة ساحرة.

«آه، يا الله، زفاف في نيوبورت في شهر أغسطس، وثلاثة أشهر فقط للتحضير له. هل أنتما مجنونان؟».

قالت آنابيل بهدوء: «نريد زفافاً صغيراً ماما». وفهمت أمها السبب. ارتاحت كثيراً هي الأخرى لسماعها ذلك.

قالت لها بكرم: «يمكنك الحصول على أي شيء تريدينه».

«نرغب فقط بخمسين أو ستين شخصاً، أو مئة على الأكثر، في الحديقة».

قالت كونسويلو ممازحة: «رغباتك أوامر». متمنية لو أنها تستطيع الاتصال ببائع الأزهار ومتعهد تقديم الطعام في الوقت الحاضر. إلا أنها توجهت بدلاً من ذلك نحو جوشيا وعانقته، ثم قبّلت ابنتها. «أنا سعيدة كثيراً لكما. أظن أنكما ستكونان سعيدين جداً».

«ونحن أيضاً»، قالا في الوقت نفسه، ثم ضحكوا جميعاً. أصرّت كونسويلو على أن تسكب لكل منهم كأس شراب خفيف، ثم تذكرت آنابيل فجأة ذلك اليوم في شهر أكتوبر حين عادت إلى المنزل من المستشفى لتجد أمها وجوشيا يشربان الشراب الخفيف في الحديقة.

سألته آنابيل «هل حصلت فعلاً على ترقية في ذلك اليوم؟». فيما سكبت أمها الشراب.

«لا، حصلت عليك أنتِ، أو على إذن أمك. أخبرتها أنني أريد الانتظار حتى شهر مايو لأسألك رأيك».

«أيها المخادعان»، ضحكت فيما شربت كونسويلو.

«أتمنى أن تكونا سعيدين بقدر ما كنت أنا وأرثر، وأن تعيشا حياة طويلة وسعيدة، وتنجبا دزينة من الأولاد». رفع كل من آنابيل وجوشيا كأسيهما، وارتشفا القليل، ثم اقتربت آنابيل من أمها وعانقتها بقوة. عرفت أن الأمر سيكون صعباً عليها نوعاً ما. يشتاقون جميعاً إلى والدها وأخيها.
«أحبك ماما»، قالت آنابيل بهدوء، فيما حضنتها كونسويلو بقوة.

«أنا أيضاً أحبك حبيبتي. وأنا مسرورة لأجلك. وأعرف أنه لو كان

والدك وروبرت على قيد الحياة، لفرحا هما أيضاً».

مسحت المرأتان عيونهما، فيما تنحنح جوشيا، واستدار بعيداً، كي لا تلاحظا أنه يبكي هو الآخر. إنها فعلاً أسعد ليلة في حياته.

الفصل السابع

خلال الأسابيع القليلة التالية، كانت كونسويلو مشغولة جداً. توجب عليها الاتفاق مع منسق الأزهار ومتعهد تقديم الطعام في نيوبورت، والتحدث إلى رجل الدين، وحجز الموسيقيين. قررت فتح المنزل في شهر يونيو. وافق والد جوشيا على إقامة حفل العشاء السابق للزفاف، وقرر إقامته في نادي نيوبورت الريفي.

توجب على كونسويلو أيضاً تحضير الدعوات. احتاجت آنابيل إلى فستان زفاف وجهاز. ثمة مليون تفصيل يجب التخطيط له وتنظيمه، وكانت هذه أسعد مرحلة تعيشها كونسويلو منذ عام. شعرت بالأسف لأن والد آنابيل لن يكون حاضراً لرؤيتها، وأرادت كونسويلو التعويض وجعل الزفاف أجمل بالنسبة إلى آنابيل.

تم إعلان خطوبتهما في نيويورك هيرالد في اليوم السابق لذكرى ميلاد آنابيل، وقدّم لها جوشيا في اليوم التالي خاتم الخطوبة. إنه خاتم ماسي زنة عشرة قيراطات كان لأمه. وبدا مذهلاً في يد آنابيل. قرر أن خاتم أمه أكثر أهمية من خاتم جديد يشتريه، وأحبته آنابيل. كانت آنابيل وأمها تبحثان عن فستان الزفاف، وبمحض الصدفة، عثرتا على الفستان المثالي في متاجر بي ألتمان في الأول من شهر يونيو. إنه فستان ضيق من القماش المخرم الفرنسي الرائع، جرت خياطته حسب تصميم باتو، وكان بسيطاً كفاية بحيث لا يبدو غريباً مع زفاف حديقة في نيوبورت. للفستان ذيل طويل جميل. بدت آنابيل مذهلة فيه. وحين طلبت من هورتي أن تكون وصيفة الشرف، صرخت صديقتها القديمة.

«هل أنت مجنونة؟ ألا يمكنك الزواج بعدما أنجب الطفل. إذا طلبت أمك خيمة، من الأفضل أن تطلب واحدة ثانية لي. فهي الشيء الوحيد الذي أستطيع ارتداءه».

أصـرّت آنابيل «لا أهتم لشـكلك أو لما سيقوله الآخرون، أريدك فقط أن تكوني هناك لأجلي». لا يزال الموضوع مؤلماً بالنسبة إليها هي وأمها، لكنها قررت السير في الممشى لوحدها.

«لا يفترض بي حتى الظهور أمام الناس حين أصبح في هذه المرحلة من الحمل. سـتتحدث عني كل النسـاء العجوزات في نيوبورت لسنوات». كانت آنابيل مدركة لذلك أيضاً، وكادت هورتي تنفجر بكاءً.

«ومن يهتم؟ أنا أحبك، كيفما كان شـكلك. ولا نريد الانتظار. شـهر أغسطس مثالي بالنسبة إلينا». توسلتها آنابيل.

«أكرهـك. ربما أسـتطيع السـباحة كثيراً وإنجـاب الطفل قبلاً. لكنني سـأبقى بدينـة». حيـن أدركت أن آنابيل لن تقتنـع بتأجيل الزفاف لأجلها، استسـلمت هورتـي أخيـراً ووعدتهـا بالتواجد هناك مهما كلّـف الأمر. إنه الأسـبوع الذي يسـبق موعد ولادتها، وكادت تضرب آنابيل حين أخبرتها أنهـا ربمـا تتأخر في الولادة، فقد أرادت هورتي إنجابه باكراً. لقد سـئمت من مظهرها البشع والبدين.

ذهبت آنابيل وهورتي معاً للتسوق، لشراء أغراض لجهازها. وتوجب على آنابيل وجوشيا تحديد مكان السكن. يملك جوشيا منزلاً صيفياً فاخراً جداً في نيوبورت، ورثه عن أمه، لكن شقته في نيويورك ستكون صغيرة جداً عليهما بعدما ينجبان الأطفال. اتفقا على البحث عن منزل أكبر بعد عودتهما من وايومينغ، التي اختاراها لشـهر العسـل. فمن الصعب جداً الآن محاولة العثور على مكان جديد للعيش فيه. في الوقت الحاضر، تعتبر شقته كبيرة عليهما. وهي قريبة من مكان عيش أمها، مما أعجب آنابيل. تكره الانتقال بعيداً وتركها لوحدها. عرفت تماماً كم ستشعر بالوحدة.

لكـن فـي الوقت الحاضـر، كانت كونسـويلو مشـغولة جداً للشـعور بالوحدة. قامت برحلتين إلى نيوبورت لمباشـرة التخطيط للزفاف وإخبار البستاني بما تريد زراعته. ونجحت في العثور على خيمة بالحجم المثالي، بقيت من زفاف أُقيم في العام الماضي.

في نهاية شـهر يونيو، ذهل جوشـيا وآنابيل بالانتهاء من ترتيب كل التفاصيل. كانت كونسويلو نموذجاً في الفاعلية، وأرادت أن تحصل آنابيل على الزفاف المثالي. كان جوشـيا رائعاً طوال الوقت. لم يكشـف أبداً عن أي توتر أو عصـبية، بالرغم من انتظاره الطويل للزواج في عمر التاسـعة والثلاثين. بعدما حسـم أمره، كان جاهزاً وهادئاً تماماً حيال الموضـوع. أكثر حتى من عروسه.

ما إن صدر الإعلان في الهيرالد، حتى بدأا يتلقيان الدعوات إلى كل مكان، وكانا يخرجان كل ليلة تقريباً. كانا ثنائياً لافتاً، واكتفت اثنتان فقط من صديقات كونسويلو بإصدار تعليقات مزعجة مفادها أن جوشيا كبير جداً على آنابيل. طمأنتهما كونسـويلو بأنه مناسـب جداً. قريبها، جون جاكوب أستور، في العقد الرابع، تزوج مادلين وهي في الثامنة عشرة من عمرها. وكان جوشيا يثبت كل يوم أنه الزوج المثالي لها. نجحت آنابيل في متابعة عملها التطوعي، برضـاه، حتى نهاية شـهر يونيو. أخذت بعدها إجازة من العمل حتى الخريف.

الشـيء الوحيد الذي تريده كونسـويلو منهما، وقد قالته لهما مراراً، هو الأحفاد بأسـرع ما يمكن. قالت آنابيل إنها إذا سـمعتها مرة أخرى تقول ذلك، فستصرخ.

لم تتوقف هورتي عن التحدث عن المفاجآت التي ستكون في انتظار آنابيـل، وكـم أن الـزواج رائـع. شـعرت بالانزعاج من سـماع كل تلك النصـائح غير المرغوبة التي قدّمتها لها صـديقتها، فيما أصبحت أكبر حجماً كل يـوم. كانـت هورتي عملاقة، وأملت آنابيل ألا تبدو مثلها حين تصـبح حاملاً. قالت ذلك لجوشيا يوماً ما، وضحك.

«سـتكونين رائعة حين يحصـل ذلك، آنابيل، وسيكون أطفالنا رائعين أيضـاً». قبّلها بحنان. لديهما الكثير للتطلع إليه، وعليهما فعل الكثير خلال الشهرين المقبلين.

بدا وكأن كل شخص يعرفه جوشيا يريد إقامة حفل على شرفهما. في

عمر التاسعة والثلاثين، قرر الزواج أخيراً. أقام له هنري أورسون حفل وداع العزوبية. عانت المجموعة كلها من آثار الحفل طوال ثلاثة أيام. اعترف جوشيا أنهم استمتعوا كثيراً، بالرغم من أنه لم يدخل في التفاصيل. لم يفعل ذلك أي من الرجال الذين حضروا الحفل.

غادرت كونسويلو إلى نيوبورت في شهر يونيو، وانضمت إليها آنابيل في منتصف شهر يوليو. وصل جوشيا، للمكوث في منزله، في نهاية الشهر. جاء هنري أورسون معه، لإعطاء الدعم المعنوي للعريس، الذي بدا أنه بخير. وسيقيم في منزل جوشيا حين يغادران في شهر العسل. أخذ جوشيا إجازة لثلاثة أسابيع إضافية هذه السنة، من أجل شهر العسل. تفهّمت إدارة المصرف الوضع، خصوصاً وأن آنابيل هي العروس.

أحبّت آنابيل هنري، صديق جوشيا. إنه ذكي، وظريف، ولطيف، وخجول قليلاً. حاولت دوماً تقرير أي واحدة من صديقاتها الشابات يجدر بها تعريفها إليه. لقد عرّفته قبلاً إلى عدد من صديقاتها واعترف لها أنه استلطف اثنتين منهن، لكن لم تصبح العلاقة جدية مع أي منهما، لكن آنابيل تأملت خيراً. وحين كان يتواجد وجوشيا معاً، كانا ظريفين، وسريعي البديهة. لطالما كان هنري لطيفاً جداً معها. إنه بالنسبة إلى جوشيا ما تمثله هورتي بالنسبة إليها، صديقه القديم من المدرسة. لقد أعجبت به آنابيل كثيراً.

استقرت هورتي في نيوبورت لقضاء فصل الصيف، في منزل أهلها، وجاء جايمس معها. كانا واثقين تقريباً من أن الطفل سيولد هنا، وكانت تأتي لزيارة آنابيل كل يوم. وساعدت آنابيل أمها حيثما استطاعت. لكن كونسويلو أصرّت على أنها تسيطر على كل شيء. أحضرت آنابيل فستان الزفاف معها. أقيم المزيد من الحفلات على شرفهما في نيوبورت. وأقام آل أستور حفلاً راقصاً كبيراً لهما. شكت كونسويلو من أنها لم تسهر أبداً هذا القدر من الليالي في حياتها، لكنها استمتعت بها كلها.

تخطّى عدد المدعوين للزفاف المئة، ووصل إلى مئة وعشرين مدعواً. كلما أقام أحدهم حفلاً على شرفهما، توجب عليهما إضافته إلى

اللائحة. لكن جوشيا وآنابيل كانا يستمتعان بوضوح. قال لها جوشيا في أثناء الغداء في يوم من الأيام، حين جاء مع هنري لتناول الغداء في الهواء الطلق، إنه لو كان يعرف أن الزواج ممتع إلى هذا الحد، لفعل ذلك قبل أعوام عدة.

ذكّرته آنابيل «من الجيد أنك لم تفعل، لأنك ما كنتَ لتتزوجني حينها».

«أنت محقة»، قال ضاحكاً فيما وصلت هورتي. أصبحت تتهادى الآن في مشيتها، وكلما رأتها آنابيل، كانت تسخر منها. يصعب التصديق أنه في الشهر المقبل ستصبح أكبر حجماً مما هي عليه الآن. بدت وكأنها على وشك الانفجار. توجب على جوشيا وهنري مساعدتها للجلوس، ثم احتاجا إلى المزيد من الجهد وربما إلى رافعة لمساعدتها على النهوض مجدداً.

قالت فيما ضحك الثلاثة عليها: «ليس هذا مضحكاً، لم أرَ قدميّ منذ أشهر». بدت وأصرّت على أنها مثل الفيل.

سألتها آنابيل مع نظرة قلقة «ماذا سترتدين للزفاف؟». لم تتخيل فستاناً كبيراً كفاية لها.

«شرشف نومي، حسبما أظن. أو الخيمة».

«جدياً، هل تملكين أي شيء يناسب مقاسك؟ لن تفلتي من المهمة».

طمأنتها «لا تقلقي، سأكون هناك، لن أفوّت الزفاف مهما كلّف الأمر». في الواقع، طلبت من خياطة أمها أن تخيط لها فستاناً مناسباً. إنه فستان عملاق باللون الأزرق الباهت، واختارت حذاء مناسباً له. لم يكن تماماً فستاناً يليق بوصيفة شرف، لكنه كل ما تستطيع ارتداءه. تكره ذلك، لكنه كل ما هو متوافر.

سترتدي كونسويلو فستاناً أخضر زمردياً مع قبعة متناسقة معه، وتريد التزين بطقم الزمرد الذي قدّمه لها أرثر. إنه لون جميل عليها، وعرفت آنابيل أنها ستبدو رائعة بصفتها أم العروس.

أخيراً حلّ اليوم المنتظر. وصل والد جوشيا وزوجته من بوسطن،

مع أخت جوشيا وزوجها وطفلهما. أحبتهم أنابيل جميعاً. كان العشاء السابق للزفاف جيداً. اتفقت كونسويلو مع عائلة جوشيا، ودعتهم إلى الغداء في اليوم الذي سبق الزفاف. تحمست العائلتان للزواج. إنه اتحاد عائلتين محترمتين، وشخصين محبوبين من الجميع. ومثلما توقع جوشيا، قرر أخوه غريب الأطوار، جورج، الذي يعيش في شيكاغو، عدم الحضور. إنه يشارك بدلاً من ذلك في مباراة غولف. هذه هي طريقته، ولم تتأثر مشاعر جوشيا. كان سيواجه الكثير من المشاكل لو أتى، وبالتالي فإن غيابه مصدر راحة. لم تكن عائلته يوماً طبيعية ومتوازنة وملتحمة بقدر عائلة أنابيل. وأثارت زوجة والده أعصابه. فصوتها عالٍ جداً، وهي تتذمر كلما أتيحت لها الفرصة لذلك.

تناولت كونسويلو وجبة طعام مبكرة مع أقارب جوشيا صباح يوم الزفاف، من دون حضور العروس أو العريس. لم تشأ أنابيل رؤية جوشيا قبل الزفاف، بدافع المعتقدات السائدة، وكان هو وهنري يرتاحان في منزله. إنه يوم حارّ جداً، وخشيت كونسويلو أن تذبل الأزهار ويذوب قالب الحلوى الخاص بالزفاف قبل بدء الاحتفال. سيقام الزفاف في الحديقة عند السابعة مساء، ويفترض أن يبدأ العشاء في تمام التاسعة. لم يشكّ أحد في أن الحفل سيستمر حتى وقت متأخر من الليل.

سيحضر مئة وأربعون شخصاً إلى الزفاف، وهم موزعون مناصفة تقريباً بين العروسين. وسيكون هنري أورسون طبعاً مرافق العريس.

هورتي هي وصيفة الشرف، هذا إذا لم تنجب الطفل قبل الزفاف، لقد بدت وكأنها على وشك الولادة. اعترفت لأنابيل، لمجرد تحذيرها، أنها تشعر بالانقباضات منذ يومين، وتدعو كي لا تنفجر مياه الرأس في الحفل. فمظهرها، حسبما قالت، سيّئ كفاية. عرفت أن الجميع سيصابون بالذعر لرؤيتها في الزفاف، وربما سيجدون في ذلك صدمة كبيرة. لكنها لا تستطيع خذل أفضل صديقة لديها. أخبرتها أنابيل أنه من المؤسف كفاية عدم وجود والدها أو أخيها، ولذلك لا تستطيع هورتي التغيب أيضاً.

جاءت بلانش معهما إلى نيوبورت لحضور الزفاف. كانت تتحرك

بحيوية في غرفة نوم أنابيل بعد الظهر، وتدللها مثل الطفلة. وحين حان الوقت، ساعدتها هي وكونسويلو على ارتداء فستان الزفاف، وتثبيت الأزرار الصغيرة. كان الفستان الضيق والمشدود عند الخصر رائعاً عليها. وبعد أخذ نفس عميق، ثبّتت كونسويلو التاج على شعر أنابيل الأشقر. تراجعت المرأتان للنظر إليها، فيما انهمرت الدموع على وجنتي كلّ منهما. لا شك في أن أنابيل هي أجمل عروس رأتاها في حياتهما.

همست كونسويلو فيما ابتسمت أنابيل لهما «أوه يا الله، تبدين مذهلة». كانت أنابيل أسعد امرأة على وجه الأرض، وتتحرق شوقاً ليراها جوشيا. وتمنوا جميعاً لو أن والدها كان موجوداً. عرفت كونسويلو أنه كان سيشعر بالغصة وهو يسير قربها في الممشى. لطالما كانت أنابيل مصدر فرحه وفخره.

ساعدتها المرأتان على نزول السلالم، وحملتا الذيل الطويل. ثم سلّمتها إحدى الخادمات الباقة العملاقة من زنبق الوادي، وبعدها خرجت أنابيل وأمها وبلانش من باب جانبي. ذهبت بلانش لتخبر المنظمين بأنها قادمة. كان المدعوون في أماكنهم، ووقف جوشيا وهنري، ووقفت هورتي قربهما، وبدت مثل بالون عملاق باللون الأزرق الباهت. شهقت العديد من نساء نيوبورت عند رؤيتها. لكن الجميع عرفوا أنه زفاف غير عادي. العريس أكبر من العروس بعشرين عاماً تقريباً، ولم يتزوج أبداً، وتعرضت العائلة لمأساة قبل عام واحد تقريباً. لذا، لا بد من بعض التنازلات.

وقفت كونسويلو للحظة أخيرة في الحديقة الجانبية، وهي تنظر بمحبة إلى ابنتها، ثم أخذتها بين ذراعيها وعانقتها.

«كوني سعيدة، حبيبتي... أنا وبابا نحبك كثيراً»، ثم انهمرت الدموع على وجنتيها، وأسرعت لأخذ مكانها في الصف الأمامي من الكراسي التي جرى ترتيبها في الحديقة الرئيسية حيث يقام الزفاف.

حضر المدعوون المئة والأربعون كلهم، وما إن أخذت كونسويلو مكانها، حتى بدأ الموسيقيون يعزفون مقطوعة العروس من لوهنغرين

لواغنر، مثلما فعلوا في زفاف هورتي. حانت اللحظة الكبيرة. العروس آتية. ألقت كونسويلو نظرة على جوشيا، وابتسم لها. عبر توهج حنون بينهما. وأكثر من أي وقت مضى، عرفت كونسويلو أنه الرجل المناسب. وهي واثقة من أن هذا هو رأي أرثر أيضاً.

وقف كل مدعوو الزفاف حسب إشارة رجل الدين، واستدارت كل الرؤوس. كان التوتر كبيراً، فيما عبرت العروس الفاتنة ببطء ورزانة ممشى الحديقة في خطى واثقة لوحدها. ما من أحد إلى جانبها، لا أحد ليوصلها إلى هناك، ويحميها، ويسلّمها إلى الرجل الذي ستتزوجه. جاءت إليه بفخر، وهدوء، وثقة ووقار تام، لوحدها. وبما أنه لا يوجد أحد ليسلّمها إلى جوشيا، وصلت إليه بنفسها بمباركة أمها.

حبس الجميع أنفاسهم حين رأوها، وصعق المدعوون بقوة المأساة التي ضربتهم حين رأوا العروس الصغيرة والجميلة تتجه نحوهم، مع الباقة العملاقة من زنبق الوادي بين يديها، ووجها مغطى بالطرحة.

وقفت أمام جوشيا ورجل الدين، فيما تنحى هنري وهورتي جانباً. وقف العروسان ينظران إلى بعضهما، وأمسك جوشيا يد أنابيل برفق. لقد كانت شجاعة جداً.

أشار رجل الدين إلى الحضور وبدأ الاحتفال. وحين سأل من يعطي الإذن لهذه المرأة بالزواج، أجابت أمها بوضوح من الصف الأمامي «أنا أفعل». وبدأ حفل الزفاف. في اللحظة المحددة وضع خاتم الزواج الماسي الضيق في إصبعها، فيما وضعت هي خاتم زواج ذهبياً بسيطاً في يده. تم إعلانهما زوجاً وزوجة، وقبّلا بعضهما، ثم سارا في الممشى وهما يبتسمان. انهمرت الدموع على وجنتي كونسويلو فيما راقبتهما، ومثلما فعلت ابنتها، سارت في الممشى وحيدةً خلف هنري وهورتي، التي تمايلت بسعادة وهي تتأبط ذراع هنري. لم يرَ أبداً امرأة حاملاً بهذا الحجم أمام الناس، ولم يفعل ذلك أي شخص آخر. لكنها قررت الاستمتاع بالزفاف، وفرحت بوجودها هنا. عثرت بسرعة على جايمس في المجموعة، ووقفت كونسويلو مع أنابيل وجوشيا في صف الاستقبال لتقبّل التهاني من المدعوين.

بعد نصف ساعة، كان الجميع يضحكون ويتحدثون ويستمتعون بالشراب الخفيف. كان زفافاً جميلاً وناعماً ومؤثراً. كانت أنابيل تنظر إلى جوشيا بحنان كبير فيما جاء هنري لتقبيلها وتقديم أطيب التمنيات لها، وتهنئة العريس.

قال لأنابيل ضاحكاً: «حسناً، فعلتها، جعلته متمدناً. قالوا إنه لا يمكن فعل ذلك».

مازحته «أنت التالي، علينا الآن العثور على عروس لك». بدا متوتراً عندما قالت ذلك، وادعى أنه يرتجف خوفاً.

«لست واثقاً من أنني مستعد لذلك. أظن أنني أفضل صحبتكما، والاستمتاع بحفلات الزفاف نيابة عن الآخرين. لا تمانعان إذا لحقت بكما، أليس كذلك؟». كان يمزح نوعاً ما، وقالت له أنابيل إنه محط ترحيب في أي وقت كان. عرفت كم هو مقرّب من جوشيا، تماماً مثلما هي مقرّبة من هورتي. ثمة مجال في حياتهما الجديدة للأصدقاء القدامى.

ألقى جوشيا وأنابيل التحية على كل المدعوين، وبعد التاسعة مساء حان وقت الجلوس إلى طاولات الطعام. كانت أنابيل وكونسويلو دقيقتين في تحديد المقاعد، وحرصتا على أن يجلس الناس الأكثر أهمية في نيوبورت على المقاعد المناسبة. جلست كونسويلو مع عائلة جوشيا، فيما جلس إلى طاولة العروسين، هنري وإحدى صديقات أنابيل، وجايمس وهورتي، وثلاثة أزواج آخرين يحبانهم كثيراً. معظم الضيوف كانوا أشخاصاً يرغبون فعلاً بحضورهم. تمت دعوة عدد قليل جداً من الضيوف بدافع الواجب، باستثناء بعض الرجال من مصرف أرثر الذين يعمل معهم جوشيا. بدا مناسباً دعوتهم إلى الزفاف.

تشارك جوشيا الرقصة الأولى مع أنابيل، وهي رقصة فالز بطيئة رقصاها بطريقة مثالية. إنها أغنية يحبانها ويرقصان عليها غالباً. كانا راقصين بارعين، وبدَوَا رائعين على حلبة الرقص. تنهد الجميع فيما راقبوهما. ثم رقص والد جوشيا مع العروس، ورقص جوشيا مع كونسويلو، وبعد ذلك،

انضم بقية المدعوين إليهم إلى حلبة الرقص. كانت الساعة قرابة العاشرة تقريباً حين بدأ الناس يتناولون الطعام اللذيذ الذي طلبته كونسويلو. رقصوا في الفترة الفاصلة بين تقديم الأطباق، وتحدثوا، وضحكوا، واستمتعوا، وعلّقوا على مدى جودة الطعام، وهذا أمر نادر في حفلات الزفاف. قطع العروسان قالب الحلوى عند منتصف الليل، ورقصا، ولم يبدأ المدعوون بالمغادرة إلا قرابة الثانية بعد منتصف الليل. كان الزفاف ناجحاً جداً، وفيما صعدا إلى سيارة الهيسبانو – سويزا التي تخص أرثر للذهاب إلى فندق نيو كليف لقضاء الليل، انحنى جوشيا لتقبيلها.

قال جوشيا: «شكراً لك على أجمل ليلة في حياتي». فيما بدأ رشّ الأرز وبتلات الورد عليهما، وأدخل العروس برفق إلى السيارة. شكرا قبلاً أمها كثيراً على الزفاف المثالي، ووعداها بالمرور بها في الصباح قبل أن يعودا إلى المدينة لأخذ القطار إلى وايومينغ. لقد وضّبا كل حقائبهما وحضرّاها في الفندق. سترتدي أنابيل طقماً من الكتان الأزرق الباهت حين يغادران في صباح اليوم التالي، وتعتمر قبعة كبيرة من القش مع أزهار زرقاء باهتة عليها مع قفازين متناسقين باللون الأزرق.

لوّحا للمدعوين فيما انطلقت السيارة لاصطحابهما إلى الفندق، وتساءلت أنابيل لبرهة ماذا ينتظرها هناك. آخر شيء رأته فيما انطلقا بعيداً هو جسم هورتي الضخم فيما لوّحت لهما. ضحكت أنابيل، فيما لوّحت لها وأملت ألا تبدو مثل هورتي بعد تسعة أشهر من الآن، إذا حملت. كان هنري آخر من قبّلها وصافح يد جوشيا. نظر الرجلان إلى بعضهما مباشرة في العينين، وابتسما، فيما تمنى لهما هنري السعادة. عرفت أنابيل أنه رجل طيب، وبمثابة أخ لجوشيا أكثر من أخيه الحقيقي.

جلسا في غرفة الجلوس في جناحهما الخاص لبعض الوقت، فيما لا تزال هي في ثوب زفافها وهو في بذلته الرسمية، وتحدثا عن الزفاف، والأصدقاء، ومدى جمالها، والمهمة المذهلة التي أنجزتها كونسويلو. كان غياب والدها وأخيها مؤلماً بالنسبة إلى أنابيل، وإنما كان ذلك محمولاً. لديها جوشيا الآن، للاعتماد عليه، وحبها، وحمايتها. ولديه هو أنابيل للاعتماد

عليها وعشقه لبقية حياتهما. لا يريدان المزيد.

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حين دخلا حمامين منفصلين وظهرا أخيراً. ارتدى بيجاما من الحرير الأبيض قدّمها له أحدهم للمناسبة، وارتدت هي ثوب نوم من الشيفون الرقيق الأبيض، وكان صدره مرصعاً باللآلئ الصغيرة، مع ثوب فوقي متناسق. ضحكت مثل الفتاة الصغيرة حين استلقت على السرير قربه. كان جوشيا في انتظارها وأخذها بين ذراعيه. عرف كم تشعر بالتوتر، وكانا مرهقين بعد الليلة الطويلة.

قال بهدوء: «لا تقلقي حبيبتي، لدينا الكثير من الوقت». ثم، وبطريقة أفرحتها وأذهلتها كثيراً، أمسك بها برفق إلى أن نامت، وهي تحلم بمدى روعة الزفاف. في حلمها، كانا يتبادلان العهود، وهذه المرة، كان والدها وأخوها يقفان قربها ويراقبانها. أحسّت بوجودهما على أي حال، وخلدت إلى النوم فيما أمسك بها جوشيا برفق، مثل الجوهرة النفيسة التي باتت ملكه.

الفصل الثامن

مثلما وعدا، مرّ جوشيا وآنابيل لوداع أمها وهما في طريقهما للسفر خارج البلدة. ستأخذهما سيارة الهيسبانو-سويزا، التي يقودها توماس، إلى المدينة، للحاق بالقطار بعد الظهر. سيذهبان إلى شيكاغو في أول قسم من الرحلة، ومن هناك يبدّلان القطارات لمتابعة رحلتهما غرباً إلى وايومينغ، إلى مزرعة زارها جوشيا ذات مرة وأحبها. سيركبان الخيل، ويذهبان للصيد، ويقومان بنزهات على القدمين وسط المشاهد الطبيعية المذهلة لغراند تيتونس. أخبرها جوشيا أن المكان أكثر جمالاً من جبال الألب في سويسرا، وأنهما لن يحتاجا إلى أخذ سفينة للوصول إلى هناك. سيمكثان لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً. ثم يعودان إلى نيويورك لبدء البحث عن منزل كبير كفاية لهما وللأولاد الذين يأملان إنجابهما. أملت كونسويلو أن تعود آنابيل حاملاً من شهر العسل، مثلما حصل مع هورتي.

تمعنت كونسويلو في وجه ابنتها في صباح اليوم التالي، بحثاً عن تغيرات، وعن رقة المرأة المحبوبة التي لم تكن موجودة قبلاً، لكنها لم ترَ سوى الطفلة المسرورة التي أحبتها كل حياتها. لم يتغير أي شيء. سُرّت كونسويلو لمعرفة أنها تكيفت جيداً مع الوضع الجديد. ما من تمرّد، أو نظرة ذهول خائف تبدو أحياناً على وجوه العروسات بعد ليلة الزفاف. كانت آنابيل سعيدة مثل أي وقت مضى، ولا تزال تعامل جوشيا كأنه صديق قديم وليس حباً جديداً. وقبل وداع أمها، توقفا في منزل جوشيا لوداع هنري أيضاً.

كانت كونسويلو تتناول الغداء مع والد جوشيا وزوجته حين وصل العروسان. كان الجميع في معنويات جيدة ويتحدثون عن جمال وروعة الليلة السابقة. عانقتها أمها بقوة مجدداً، وشكرت هي وجوشيا والده على

العشاء الذي أقيم قبل الزفاف، ثم غادرا بعد لحظات في سيارة الهيسبانو - سويزا.

كانت تودّ التوقف لوداع هورتي أيضاً، لكن أمها قالت إن جايمس أرسل رسالة مفادها أنها في المخاض. لقد صمدت خلال الزفاف، ودخلت في مرحلة المخاض خلال الليل. أمها والطبيب معها، فيما جايمس يتناول الغداء مع الأصدقاء. أملت آنابيل أن تسير الأمور على ما يرام معها. عرفت أن هورتي متوترة بشأن حجم الطفل، ومدى صعوبة الولادة. فإحدى صديقاتها، التي أجرت حفل تقديمها إلى المجتمع في الفترة نفسها معهما، توفيت في أثناء الولادة قبل أشهر قليلة فقط. كان الأمر محزناً بالنسبة إليهم جميعاً. حصل ذلك، ولا يمكن تفاديه في بعض الأحيان، وتحصل في الغالب التهابات بعد الولادة تقتل الأم في أغلب الأحيان. لذا، دعت آنابيل بصمت لهورتي فيما غادرا، متسائلة ما إذا كانت أمها محقة وما إذا كانت ستنجب صبياً. إنها فكرة مثيرة، وجعلتها تتساءل أيضاً ما إذا كانت ستعود هي أيضاً حاملاً من شهر العسل، مع طفل تحمل به في منطقة وايومينغ.

شعرت بالامتنان لأن جوشيا كان لطيفاً ومحترماً معها في الليلة السابقة. كان جوشيا الزوج المثالي واللطيف والمتفهم، ومثلما وعدها منذ البداية، لا يزال أفضل صديق لها. نظرت إليه بحنان فيما عبرا المدينة، وتحدثا قليلاً عن زفافهما، ووصف لها وايومينغ مجدداً. وعدها بتعليمها كيفية صيد السمك. بالنسبة إلى آنابيل، بدا ذلك مثل شهر العسل المثالي. ووافقها جوشيا الرأي حين قالت له ذلك.

وصلا إلى نيويورك عند الخامسة بعد الظهر، في التوقيت المثالي للحاق بقطار الساعة السادسة، واستقرا في أكبر حجرة في الدرجة الأولى في القطار. صفقت آنابيل بسرور حين رأت ذلك.

«هذا ممتع جداً! أحبه!»، قهقهت فيما ابتسم لها بسرور.

«أنت فتاة سخيفة، وأنا أحبك». وضع ذراعيه حولها، وقبّلها فيما شدّها بالقرب منه.

سيمضيان اليوم التالي في شيكاغو، قبل أخذ قطار آخر والتوجه غرباً تلك الليلة. وعدها بأن يريها المدينة خلال هذه المحطة القصيرة، وحجز جناحاً في فندق بالمر هاوس كي يرتاحا جيداً بين القطارين. لقد فكر في كل شيء. أراد أن تكون آنابيل سعيدة. تستحق ذلك بعد كل ما خسرته، وكل ما عانته، وأقسم لنفسه فيما غادر القطار محطة غراند سنترال إنه لن يخذلها أبداً. كان يقصد ذلك فعلاً. إنه وعد علني بالنسبة إليه.

عند الساعة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم، فيما غادر قطار جوشيا وآنابيل المحطة، لم يكن طفل هورتي قد ولد بعد. إنه مخاض طويل ومؤلم جداً. الطفل كبير، وهي صغيرة البنية. إنها تصرخ وتتألم منذ ساعات. عاد جايمس إلى المنزل بعد الغداء، ووجد صراخها قوياً جداً ومحزناً جداً بحيث سكب لنفسه مشروباً قوياً، ثم خرج من المنزل مجدداً لتناول العشاء مع الأصدقاء. يكره التفكير في هورتي وهي تمرّ في كل ذلك، لكنه لا يستطيع فعل أي شيء. إنه عمل النساء. إنه واثق من أن الطبيب وأمها والممرضتين يبذلون جميعاً كل ما في وسعهم.

كان في حالة يرثى لها حين عاد إلى المنزل عند الثانية بعد منتصف الليل، وذهل حين عرف أن الطفل لم يولد بعد. كان تعباً جداً ليلاحظ نظرة الرعب على وجه حماته. أصبحت هورتي ضعيفة جداً حينها بحيث خفّت حدّة صراخها، مما أثار ارتياحه، وانتشر صوت أنين مثير للشفقة في أرجاء المنزل. وضع وسادة فوق رأسه وخلد إلى النوم. إلا أن طرقاً قوياً على باب غرفة الضيوف، حيث كان ينام، بعيداً قدر الإمكان عن غرفة النوم التي تلد فيها زوجته، أيقظه أخيراً عند الساعة الخامسة فجراً. إنها حماته تقول له إن ابنه قد ولد، ووزنه عشرة باوندات تقريباً. لقد عذّب الطفل ابنتها كثيراً، لكنها لم تقل ذلك لجايمس. لو كان أكثر رصانة، لاكتشف الأمر بنفسه. شكرها على الخبر، وعاد للنوم، واعداً برؤية هورتي والطفل في الصباح حين يستيقظ. لم يكن في وسعه رؤيتها الآن على أي حال لأن الطبيب يقطّبها بعد التمزقات التي أحدثتها الولادة.

عانت هورتي من مخاض صعب استمر لست وعشرين ساعة،

وأنجبت طفلاً وزنه عشرة باوندات. كانت لا تزال تبكي بشدة فيما أنجز الطبيب تقطيباً دقيقاً، ثم أعطاها في النهاية مخدراً. كانت ولادة صعبة، وكان يمكن أن تموت بسهولة. لا يزال عليهم القلق من الالتهاب، ولم تخرج من مرحلة الخطر بعد. لكن الطفل بخير. أما هورتي فليست كذلك. كان دخولها إلى مرحلة الأمومة مثل أسوأ معمودية نار. ستهمس أمها لصديقاتها عن ذلك خلال الأشهر المقبلة. لكن كل ما يمكن قوله علناً هو أن الطفل ولد، والأم والطفل بخير. أما الباقي فيمكن تناقله بين النساء فقط، وراء الأبواب المغلقة، وإبقاء ألم الولادة، ومخاطرها الكبيرة، بمنأى عن مسامع الرجال.

حين سمعت كونسويلو الأخبار من والدة هورتي في اليوم التالي، شعرت بالأسف على مرور هورتي في مثل هذه المحنة الصعبة. كانت ولادة روبرت سهلة بالنسبة إلى كونسويلو، لكن آنابيل فرضت تحدياً أكبر إذ ولدت بخروج قدميها أولاً، ونجت الأم وطفلتها بأعجوبة. أملت أن تمرّ آنابيل بولادة أسهل مما فعلت هورتي. إنهم يفعلون كل شيء ممكن لإبعاد الالتهاب عنها في الوقت الحاضر. فبعد مثل هذه الولادة الصعبة، يصعب غالباً تفادي الالتهاب، بالرغم من أن أحداً لا يعرف السبب.

قالت كونسويلو إنها ستأتي لزيارتها خلال أيام قليلة، لكن أمها اعترفت أن هورتي غير مستعدة لاستقبال الزوّار بعد، وقد تبقى هكذا لفترة. إنهم يخططون لإبقائها في السرير شهراً كاملاً. قالت إن جايمس رأى هورتي والطفل لدقائق معدودة، ومشطوا لها شعرها ووضعوا لها البودرة على وجنتيها لكنها بكت. كان فرحاً جداً بابنه. دفع ذلك كونسويلو للتفكير في أرثر، الذي كان دوماً لطيفاً جداً معها بعد ولادة طفليهما. بالنسبة إلى رجل شاب، كان حنوناً ومتفهماً جداً. ولديها إحساس بأن جوشيا سيكون هكذا أيضاً. لكن جايمس مجرد ولد، ولا يعرف ما ينطوي عليه إنجاب طفل. قال في الزفاف إنه يرغب بطفل آخر قريباً، وضحكت هورتي وحرّكت عينيها في إشارة إلى عدم استحسانها الفكرة. شعرت كونسويلو بالأسف عليها، بعد أن عرفت ما عانته. أرسلت إليها سلة كبيرة من الفاكهة وباقة

عملاقة من الأزهار بعد الظهر، ودعت لها كي تتعافى قريباً. هذا كل ما يمكن فعله. إنها في أيدٍ أمينة. وعرفت كونسويلو جيداً أنه بعد هذه الولادة، لن تبقى هورتي الفتاة السعيدة والخالية من الهمّ كما كانت سابقاً. لقد قامت بواجباتها.

تبين أن هورتي نجحت في النهوض من السرير بعد ثلاثة أسابيع بدلاً من الشهر. كان الطفل ينمو بقوة، وأحضروا له امرأة مرضعة فيما جرى ربط ثديي هورتي لوقف حليبها. لا تزال ضعيفة قليلاً لتقف على قدميها، وإنما بدت بصحّة جيدة. إنها شابة وفي صحة سليمة، وكانت محظوظة في النجاة من الالتهاب، الذي لم يعد محتملاً أبداً. جاءت كونسويلو لزيارتها مرات عدة، وكان جايمس فخوراً جداً بابنه الضخم الذي أطلق عليه اسم تشارلز. كان الطفل يصبح أكثر بدانة كل يوم. وبعد ثلاثة أسابيع من ولادته، أعادوا هورتي إلى نيويورك في سيارة الإسعاف لمتابعة تعافيها في المدينة. سعدت بالعودة إلى المنزل. وقد تركت كونسويلو نيوبورت في اليوم نفسه.

شعرت بالوحدة حين عادت إلى نيويورك. كان المنزل هادئاً جداً من دون آنابيل التي كانت دوماً تضجّ بالحياة والمرح، وتهتم دوماً بأمها، وتعرض عليها مساعدتها في بعض الأمور. أحست كونسويلو بوحدتها وعزلة مستقبلها حين عادت إلى المنزل. يصعب العيش هنا لوحدها. وشعرت بالامتنان لأن العروسين سيعودان من شهر العسل بعد يومين. صادفت هنري أورسون في الشارع، وبدا هو الآخر وحيداً. كان جوشيا وآنابيل يبثان الكثير من الحياة والسعادة حولهما لدرجة أن الجميع شعروا بالحرمان من دونهما. تشوّق كل من كونسويلو وهورتي وهنري لعودتهما.

ثم عادا وسط هتاف كبير. أصرّت آنابيل على التوقف لرؤية أمها في طريق عودتها من المحطة، وفرحت كونسويلو برؤيتها، إذ بدت بصحة سليمة، وسعيدة وقد اكتسبت بشرتها سمرة بفعل تعرّضها للشمس. بدا جوشيا جيداً أيضاً. لا يزالان يتصرفان مع بعضهما مثل ولدين في ملعب المدرسة، فيتمازحان ويضحكان ويطلقان النكات على كل شيء.

قالت آنابيل إن جوشيا علّمها صيد السمك، واصطادت سمكة ترويت ضخمة بنفسها. بدا جوشيا فخوراً بها. ركبا الخيل، وقاما بنزهات على القدمين في الجبال، واستمتعا كثيراً بالحياة في المزرعة. بدت مثل طفلة غابت لقضاء فصل الصيف. يصعب التصديق أنها ناضجة ومتزوجة. ولاحظت كونسويلو عدم وجود أي شيء من دلائل المرأة على وجهها. لا تعرف ما إذا حملت بطفل ولا تتجرأ على السؤال. لكن آنابيل بدت الفتاة الرقيقة والسعيدة والحنونة نفسها التي كانت عليها حين غادرت. سألت عن هورتي، وقالت لها كونسويلو إنها بخير. لم تشأ إخافة آنابيل بقصص عن الولادة، ومن غير الملائم أن يسمعها جوشيا على أي حال، ولذلك قالت ببساطة إن كل شيء بخير، وأخبرتها أنّ الطفل سمّي تشارلز. تركت المهمة لهورتي لتخبر آنابيل بالبقية، إذ أرادت إخبارها. وأملت ألا تفعل هورتي ذلك. فمعظم تلك الأخبار مريعة لتسمعها امرأة شابة. خصوصاً امرأة قد تعيش التجربة نفسها قريباً. لا جدوى من إخافتها.

بقيا لساعة، ثم ودعوا بعضهم. وعدت آنابيل أمها بزيارتها في اليوم التالي، وبتناول العشاء معها تلك الليلة. وبعد معانقة كونسويلو، عاد الثنائي الشاب إلى المنزل. فرحت كونسويلو كثيراً لرؤيتهما معاً، لكن المنزل بدا أكثر فراغاً من أي وقت مضى حين غادرا. بالكاد تأكل هذه الأيام، وشعرت بالكثير من الوحدة للجلوس في غرفة الطعام لوحدها.

وفت آنابيل بوعدها، وجاءت لتناول الغداء مع أمها في اليوم التالي. كانت ترتدي طقماً من الملابس التي اشترتها لجهازها، وهو طقم صوفي كحلي رسمي جداً، لكنها بدت بالرغم من ذلك مثل الطفلة بالنسبة إلى أمها. حتى مع زخارف المرأة، وخاتم الزفاف في إصبعها، تصرفت مثل فتاة صغيرة. بدت سعيدة جداً حين تحدثتا خلال الغداء، وسألتها آنابيل عما تفعله. قالت أمها إنها غابت عن المدينة لوقت طويل، وبقيت في نيوبورت لوقت أكثر من المعتاد، واستمتعت بطقس شهر سبتمبر، وتنوي الآن مباشرة عملها التطوعي في المستشفى مجدداً. توقعت أن تقول لها آنابيل إنها ستنضم إليها، أو تذكر لها أنها ستعود إلى مستشفى غوث المعوّقين والمقعدين، لكنها

فاجأت أمها وقالت إنها تريد التطوع في مستشفى إيليس آيلند بدلاً من ذلك. يعتبر العمل هناك أكثر متعة وتحدياً بالنسبة إليها، وهم يواجهون نقصاً كبيراً في العاملين بحيث ستتاح لها فرصة أكبر للمساعدة في العمل الطبي، وليس فقط المراقبة أو حمل الصواني. غضبت أمها عند سماعها ذلك.

«هؤلاء الأشخاص مقرفون في أغلب الأحيان، ويحملون الأمراض من دول أخرى. الظروف هناك مريعة. أظن أن هذا تصرف أحمق جداً من قبلك. ستنتهين بالتقاط الأنفلونزا مجدداً أو مرض أسوأ من الأنفلونزا. لا أريدك أن تفعلي ذلك». لكنها امرأة متزوجة الآن، ويعود إلى جوشيا تقرير ما تقوم به. سألت ابنتها إذا كان يعرف بما يجول في فكرها. أومأت آنابيل برأسها وابتسمت. جوشيا حساس جداً حيال مثل هذه الأمور، ولطالما كان متفهماً ومتحمساً لاهتماماتها الطبية وعملها التطوعي. أخبرته عن مشاريعها الجديدة.

«يظن أنه لا بأس بذلك».

«حسناً، أنا لا أظن ذلك». قطّبت كونسويلو حاجبيها وكانت غاضبة جداً.

«ماما، لا تنسي أن أسوأ حالة أنفلونزا عانيت منها، التقطتها في مجموعة من قاعات الحفلات نتيجة المشاركة في المناسبات بعد حفل تقديمي إلى المجتمع. وليس من العمل مع الفقراء».

قالت كونسويلو بحزم: «هذا سبب إضافي كي لا تفعلي ذلك، إذا مرضت إلى تلك الدرجة في الحفلات بين أشخاص أصحاء ومرتبين، فتخيلي كيف ستمرضين نتيجة العمل مع أشخاص يعيشون ظروفاً غير صحية البتة ويضجّون بالأمراض. بالإضافة إلى ذلك، إذا حملت، وأتمنى أن تكوني كذلك أو تصبحين هكذا قريباً، ستكون فكرة مريعة تعريض نفسك والطفل لهذا الخطر. هل فكّر جوشيا في ذلك؟». عبر شيء في عيني ابنتها لم تفهمه كونسويلو، لكنه اختفى بلمح البصر.

«لست مستعجلة لتأسيس عائلة، ماما. نريد أنا وجوشيا الاستمتاع

بوقتنا أولاً». إنها المرة الأولى التي تسمعها كونسويلو تقول هذا، وتفاجأت. تساءلت ما إذا كانت تستعمل واحدة من الوسائل الجديدة، أو حتى القديمة، للحؤول دون حملها. لكنها لم تجرؤ على السؤال.

«متى قررتِ ذلك؟». كلام ابنتها أجاب عن سؤال كونسويلو ما إذا حملت آنابيل خلال الرحلة. يبدو أنها لم تحمل.

«أشعر بأنني صغيرة جداً. ونحن نستمتع كثيراً بوقتنا من دون طفل للقلق بشأنه. نريد القيام ببعض الرحلات الإضافية. إلى كاليفورنيا ربما في السنة المقبلة. يقول جوشيا إن سان فرانسيسكو رائعة، ويريد أن يريني الغراند كانيون. لا أستطيع فعل ذلك إذا كنت حاملاً».

قالت أمها بحزن وهي تبدو خائبة الأمل: «لكن الغراند كانيون يستطيع الانتظار، أنا آسفة لسماع ذلك. أتطلع لرؤية الأحفاد». لا تملك شيئاً في حياتها الآن، باستثناء زيارات آنابيل، بدلاً من العيش معها. سيملأ الأحفاد الفراغ بالنسبة إليها.

طمأنتها آنابيل قائلة: «ستحصلين عليهم، لكن ليس الآن. لا تكوني مستعجلة كثيراً. مثلما يقول جوشيا، لدينا متّسع من الوقت». لقد قال ذلك أكثر من مرة خلال الرحلة، ولم يكن لديها أي خيار سوى الموافقة. إنه زوجها في النهاية، وعليها التقيد برأيه.

«حسناً، لا أزال غير راغبة بعملك في إيليس آيلند. ظننتُ أنك تحبين العمل التطوعي الذي تقومين به». كان مستشفى غوث المعوّقين والمقعدين سيئاً كفاية، برأي كونسويلو. لكن إيليس آيلند يتخطى أي تصور.

«أظن أن مستشفى إيليس آيلند سيكون أكثر متعة، ويعطيني فرصة أكبر لتحسين مهاراتي»، كررت آنابيل، وبدت أمها مذهولة بما قالته.

«أي مهارات؟ ماذا تنوين أن تفعلي؟». تضج آنابيل دوماً بالأفكار الجديدة، خصوصاً في حقلي الطب والعلوم. إنه شغفها بوضوح، حتى لو لم تمارسه بأي طريقة رسمية.

قالت آنابيل بجدية، وهي تبدو حزينة قليلاً: «لا شيء ماما، أتمنى

فقط أن أساعد الناس أكثر، وأظن أنني قادرة على فعل شيء أكثر من ذلك الذي يسمحون لي به في المستشفيات هنا». لا تعرف أمها أنها تتمنى أن تكون طبيبة. إنه أحد الأحلام التي عرفت آنابيل أنه لن يتحقّق أبداً، فلِمَ الحديث عنه وإزعاج نفسها؟ لكنها تستطيع على الأقل أن تكون قريبة منه قدر الإمكان، عبر العمل التطوعي. سيمنحها مستشفى إيليس آيلند، والحاجة الماسة هناك، بسبب قلة الموظفين والأشخاص، فرصة لفعل ذلك. هنري أورسون هو من اقترح ذلك عليها. يعرف طبيباً هناك، ووعدها بتعريفها إليه. ولأنه هنري، وافق جوشيا على المشروع.

ذهبت آنابيل لزيارة هورتي بعد الغداء مع أمها. كان عليها ملازمة السرير لبعض الوقت، لكنها باتت تنهض أكثر فأكثر. صدمت آنابيل بمدى نحولها وتعبها. الطفل كبير وجميل، لكن هورتي بدت وكأنها خارجة من الحرب، وهذا ما قالته.

قالت بصراحة، بعينين تخبران كل القصة: «كان ذلك مريعاً، لم يقل أحد قبلاً إن الأمر سيكون هكذا. ظننتُ أنني سأموت، وقالت أمي إنني أوشكتُ على ذلك. ويقول جايمس إنه يريد طفلاً آخر قريباً. أظن أنه يحاول إنشاء سلالة أو فريق بايسبول أو ما شابه. ما زلت لا أستطيع الجلوس، وكنت محظوظة لأنني لم أصب بالتهاب. كاد ذلك يقتلني مثل آيمي جاكسون العام الماضي». بدت هورتي متأثرة جداً ومرتعدة كثيراً مما عانته. ولم تكف آنابيل عن التساؤل ما إذا كان الطفل يستحق ذلك. إنه رائع، لكنه لم يكن رائعاً لو أدت ولادته إلى مقتل هورتي، ويبدو أنه أوشك على فعل ذلك. بدا الأمر مرعباً حين أخبرتها هورتي كيف حصل كل شيء. «أظن أنني صرخت طوال الساعات الست والعشرين. لست واثقة حتى ما إذا كنت أريد فعل ذلك مجدداً. وتخيلي لو كانا توأمين، أظن أنني سأقتل نفسي بدلاً من المضي قدماً. تخيلي إنجاب طفلين في ليلة واحدة!». بدت مذعورة، فيما ظنت قبل ستة أشهر أن إنجاب التوأمين سيكون ممتعاً. تبين أن إنجاب الأطفال مسألة جدية أكثر مما اعتقدت قبلاً. والقصة التي أخبرتها إياها أرعبت صديقتها القديمة لدرجة أن آنابيل شعرت بالامتنان

لأنها ليست حاملاً. «ماذا عنك؟»، سألت هورتي وبدت فجأة محتالة وأشبه بذاتها القديمة. «كيف كان شهر العسل؟ أليس الزواج رائعاً؟ من المؤسف أنه ينتهي بولادة، بالرغم من أنني أعتقد أنه يمكن تفادي ذلك، إذا كنت محظوظة. ألا تظنين أنك حامل الآن؟».

أجابت آنابيل بسرعة «لا، لست حاملاً. ولسنا على عجلة. وما تخبرينني به يجعلني غير راغبة أبداً بتجربته».

«تقول أمي إنه لا يجدر بي التحدث عن ذلك أمام النساء اللواتي لم ينجبن الأطفال بعد». شعرت هورتي بالذنب حينها. «أنا آسفة إذا أخفتك».

قالت آنابيل بمرح: «لا بأس، جعلتني أشعر بالسرور لأنني لست حاملاً». استلقت هورتي على السرير مع تنهيدة متعبة، فيما أحضرت المرضعة البديلة الطفل لتريهما كم أصبح بديناً وجميلاً. إنه طفل جميل، وكان ينام بين ذراعي الممرضة.

«أعتقد أنه يستحق ذلك»، قالت أمه وهي تبدو غير واثقة فيما غادرت الممرضة. لا تحب هورتي حمله غالباً. لا تزال الأمومة تخيفها، ولم تسامح الطفل بعد على الآلام التي سببها لها. عرفت أنها ستذكر ذلك لوقت طويل طويل. «تقول أمي إنني سأنسى في النهاية. لست واثقة كثيراً. كان الأمر مريعاً فعلاً»، قالت مجدداً. «المسكين جايمس لا يملك أي فكرة، ولا يُسمح لي بإخباره. لا يفترض بالرجال معرفة هذه الأمور». بدا هذا مبدأ غريباً بالنسبة إلى آنابيل لأنهم كانوا سيخبرونه لو ماتت. لكن بما أنها لم تمت، يفترض أن يبقى الأمر غامضاً ويجب الادّعاء أن كل شيء كان سهلاً وجيداً.

«لا أفهم لماذا لا يستطيع أن يعرف. أنا أخبر جوشيا. ما من شيء لا أستطيع قوله له. وأظن أنه سيقلق عليّ، إذا لم أفعل».

«بعض الرجال هكذا. لكن جايمس ليس منهم. إنه طفل. وجوشيا أكبر بكثير، إنه أشبه بوالدك. إذاً، هل استمتعتِ؟».

ابتسمت آنابيل «أمضينا وقتاً رائعاً، تعلمت صيد السمك وامتطينا الخيل كل يوم». أحبت القفز ممتطقية الخيل فوق التلال السفحية مع جوشيا وسط بحور من الأزهار البرية.

«ماذا تعلمت أيضاً؟»، سألت هورتي مع نظرة شريرة، وتجاهلتها آنابيل. «تعلمت الكثير من الأمور المهمة من جايمس في شهر العسل في باريس». أحبت آنابيل الزواج من جوشيا، حتى لو لم يؤسسا عائلة في الوقت الحاضر. يحتاجان إلى العثور على منزل أولاً على أي حال، لأن شقته صغيرة جداً.

لم تصل هورتي إلى مبتغاها من خلال أسئلتها وتلميحاتها، وتعبت في النهاية وتوجب عليها أخذ قيلولة، فتركتها آنابيل وعادت إلى المنزل. من الجيد رؤيتها، والطفل جميل، لكن قصة الولادة أرعبت آنابيل. أرادت طفلاً، لكنها لا ترغب بعيش كل ذلك. وتساءلت كم سيمضي من الوقت قبل أن تنجب طفلاً بنفسها. كانت تودّ حمل تشارلز لبرهة، لكن هورتي لم تعرض عليها ذلك، وبدت أنها لا ترغب هي الأخرى بحمل الطفل. لكن نظراً إلى ما حصل معها، قالت آنابيل لنفسها إن الأمر مبرر، وتساءلت ما إذا كانت غريزة الأمومة تحتاج إلى الوقت، مثلما تحتاج إلى الوقت فكرة الاعتياد على التحول إلى زوج أو زوجة. لم تعتد لا هي ولا جوشيا تماماً على هذه الفكرة بعد.

الفصل التاسع

في الوقت الذي أصبح فيه الموسم الاجتماعي في نيويورك في أوجه في شهر نوفمبر، استعادت هورتي عافيتها، وكانت تتم دعوة جوشيا وأنابيل إلى كل مكان. صادفا غالباً هورتي وجايمس في الحفلات، وكانت معنويات هورتي جيدة. أصبح عمر الطفل ثلاثة أشهر تقريباً، ومضى على زواج جوشيا وآنابيل الوقت نفسه.

بين ليلة وضحاها، أصبح جوشيا وآنابيل الثنائي الأكثر شهرة وشعبية في نيويورك. كانا رائعين معاً، ولا يزالان يكشفان عن العلاقة المرحة نفسها. مازحا بعضهما باستمرار وكانا مرحين، وخاضا مناقشات طويلة وجدية بشأن مسائل سياسية وفكرية، مع هنري في أغلب الأحيان الذي كان يأتي لتناول العشاء. تحدثوا عن الكتب والأفكار التي يتشاركونها، وكانت المحادثات مع هنري حيوية دوماً. لعبوا هم الثلاثة وضحكوا كثيراً.

كان جوشيا وآنابيل يتناولان العشاء مع أمها مرتين على الأقل في الأسبوع، وأحياناً أكثر. حاولت آنابيل قضاء أكبر قدر ممكن من الوقت معها خلال النهار، لأنها تعرف كم أصبحت أمها وحيدة الآن، بالرغم من أن كونسويلو لم تتذمر أبداً من ذلك. كانت وقورة وحنونة. لم تلحّ كونسويلو على آنابيل بشأن تأسيس عائلة، لكنها تمنت أن تفعل. ولم تكفّ عن الملاحظة أن آنابيل تتحدث مع زوجها مثلما كانت تفعل مع أخيها روبرت. ثمة جزء في آنابيل لم ينضج بعد، بالرغم من كل ما حصل، لكن جوشيا بدا مفتوناً بذلك، وعاملها مثل الطفلة.

مثلما وعدها، عرّفها هنري على صديقه الطبيب في مستشفى إيليس آيلند، وبدأت آنابيل العمل هناك كمتطوعة. عملت لساعات طويلة ومضنية، مع أولاد مرضى في أغلب الأحيان. وكانت أمها محقة، بالرغم من أن

آنابيل لم تعترف أبداً بذلك لها، في أن العديد منهم كانوا مرضى بشدة حين وصلوا، وكانت العدوى متفشية. إلا أن العمل مذهل وأحبته. شكرت آنابيل هنري على ذلك كلما رأته. كان جوشيا فخوراً بمدى عمل زوجته، بالرغم من أنها نادراً ما شاركته التفاصيل. لكنه عرف كم هي متفانية بعملها في المستشفى والاهتمام بالمهاجرين.

كانت تذهب إلى مستشفى إيليس آيلند ثلاث مرات أسبوعياً، وتعمل هناك لساعات طويلة مرهقة وإنما مكافئة، وتعود غالباً إلى المنزل في وقت متأخر. عملت آنابيل في مجمّع المستشفى في الجهة الجنوبية من الجزيرة التي كانت على شكل U. كانوا يرسلونها أحياناً إلى القاعة الكبيرة في الردهة الكبيرة. دمّرتها النيران قبل ستة عشر عاماً، وتمت إعادة بناء المساحة حيث تعمل بعد ثلاث سنوات على الحريق. في القاعة الكبيرة، كان المهاجرون يوضعون في أقفاص كبيرة، حيث يستجوبون للتأكد من أن أوراقهم واستماراتهم صحيحة. معظم المهاجرين كانوا عمالاً لا يعرفون التعب، والعديد منهم مع زوجات وأطفال صغار، أو وحيدون. لبعضهم زوجات بانتظارهم لم يلتقوا بهن منذ وقت طويل أو بالكاد يعرفونهن. ساعدت آنابيل غالباً على إجراء المقابلات، وكانت تتم إعادة اثنين بالمئة منهم تقريباً، مع دموع ويأس، إلى البلدان التي جاؤوا منها. وبسبب الخوف من الترحيل، كان العديد من الأشخاص يكذبون في ردّهم على الأسئلة التي كانت تُطرح عليهم في أثناء الاستجواب. شعرت آنابيل بالأسف الكبير عليهم، وقد دوّنت أجوبة غامضة، أو غير صحيحة، أكثر من مرة. لم تملك الشجاعة لجعلهم مؤهلين للترحيل.

كان خمسون ألف شخص يصلون إلى إيليس آيلند كل شهر، ولو رأتهم كونسويلو، لشعرت بخوف على آنابيل أكثر مما تشعر به الآن. فالعديد من الأشخاص الذين يصلون إلى هناك يعانون من مشكلات مريعة، وبعضهم كانوا مرضى وتوجب إرسالهم إلى مجمّع المستشفى. المحظوظون كانوا يغادرون مستشفى إيليس آيلند في غضون ساعات، لكن الذين لا يملكون أوراقاً صحيحة، أو كانوا مرضى، يتم احتجازهم لأشهر أو حتى لسنوات. توجب عليهم امتلاك خمسة وعشرين دولاراً، وكان كل شخص يعتبر

دخوله موضع شك يرسل إلى المبنى المهجعي، إذا لم يتم إطلاق سراحه. أما المرضى فكان يتم إرسالهم إلى المستشفى الذي يضمّ 275 سريراً حيث تعمل آنابيل عادة، وتنجز العمل الذي تحبه كثيراً.

كان الأطباء والممرضون أقل من العدد اللازم، وعمل معظمهم بإفراط، مما دفعهم لتوكيل مهام للمتطوعين لم تكن آنابيل لتحصل عليها أبداً لولا ذلك. ساعدت على ولادة الأطفال، واهتمت بالأطفال المرضى، وساعدت على فحص العيون بحثاً عن الحُثار، علماً أن العديد من المهاجرين كانوا مصابين بهذا الداء. حاول بعضهم إخفاء أعراضه خوفاً من الترحيل. وكان هناك أربعون جناحاً للحصبة، والحمى القرمزية، والخناق، لا تستطيع الدخول إليها. إلا أنها اهتمت بكل شيء آخر تقريباً، وتأثر دوماً الأطباء الذين عملت معهم بحسها الفطري للتشخيص. بالنسبة إلى شخص غير مدرّب، كانت تملك مقداراً هائلاً من المعرفة نتيجة المطالعة التي قامت بها، وقدرة فطرية على إنجاز أي شيء طبي، فضلاً عن طريقة لطيفة مع المرضى. أحب المرضى آنابيل، ووثقوا بها تماماً، وكانت ترى أحياناً مئات المرضى في يوم واحد، إما لوحدها للمشاكل البسيطة، أو من خلال مساعدة الأطباء والممرضات في الحالات الأكثر خطورة. هناك ثلاثة أبنية كاملة مخصصة للأمراض المعدية، والعديد من المرضى الموجودين هناك لا يغادرون مستشفى إيليس آيلند أبداً.

كان قسم داء السلّ الأكثر حزناً في المستشفى، وكانت كونسويلو ستصاب بالجنون لو عرفت أن آنابيل تطوعت للعمل هناك مرات عدة. لم تخبر أمها أبداً، ولا جوشيا، لكن الأشخاص الأشد مرضاً هم الذين أثاروا اهتمامها، وشعرت هناك أنها تتعلم كثيراً عن إدارة ومعالجة الأشخاص المصابين بأمراض قاتلة.

كانت تعمل في قسم داء السلّ طوال اليوم، وقد تبقى في بعض الأوقات لساعة متأخرة من الليل، حيث عادت ذات ليلة إلى المنزل متأخرة ووجدت هنري وجوشيا يتحدثان في المطبخ، وقد علّق جوشيا على مدى تأخرها، واعتذرت وهي تشعر بالذنب. إنها تواجه صعوبة كبيرة في إبعاد نفسها عن المرضى في قسم داء السل. كانت الساعة العاشرة مساء حين عادت

إلى المنزل وكان هنري وجوشيا يحضّران العشاء ويتحدثان بحيوية عن المصرف. عانقها جوشيا بشدة. كانت متعبة كثيراً، ولا تزال تشعر بالبرد من رحلة المركب. طلب منها الجلوس أمام طاولة المطبخ، وأعطاها طبقاً من الحساء، وحضّر العشاء لها أيضاً.

كانت المحادثة بينهم على المائدة حيوية، مثلما هي دوماً بينهم هم الثلاثة، وفرحت للتفكير في شيء آخر غير مرضاها. أحبوا تبادل الأفكار الجديدة والقديمة، وتناقشوا في السياسة، وتساءلوا عن القواعد الاجتماعية التي تم قبولها في عالمهم طوال قرون، وأمضوا في الإجمال وقتاً جيداً. إنهم ثلاثة أشخاص أذكياء وهم أفضل الأصدقاء. أصبحت تحب هنري بقدر ما يفعل جوشيا، وكان مثل أخ لها، بالرغم من أنها لا تزال تشتاق إلى أخيها كثيراً.

كانت متعبة جداً للمشاركة في المحادثة تلك الليلة، وكان جوشيا وهنري لا يزالان يتناقشان بحماسة عن بعض المسائل السياسية حين تمنت لهما آنابيل ليلة سعيدة وخلدت أخيراً إلى النوم. أخذت حماماً ساخناً، وارتدت ثوب النوم، ونامت بين الشراشف وهي تفكر في العمل الذي أنجزته في مستشفى إيليس آيلند ذلك اليوم. وكانت نائمة تماماً قبل وقت طويل من مغادرة هنري ووصول جوشيا إلى السرير. استيقظت حين دخل، ونظرت إليه بنعاس فيما استلقى على السرير قربها، وتشبثت به. وفي غضون دقائق، أصبحت مستيقظة تماماً بعد أن ارتاحت لساعات عدة.

"آسفة، كنت متعبة جداً"، قالت بنعاس، وهي تستمتع بدفئه قربها في سريرهما. أحبت النوم بالقرب منه ومعانقته. أحبت كل شيء فيه، وأملت دوماً أن يحبها بالمقدار نفسه. لا تكون واثقة من ذلك أحياناً. العلاقات مع الرجال، ونقاط ضعفهم، غريبة عليها. الزوج مختلف كثيراً عن الأب أو الأخ. فالعلاقة مع الزوج أكثر دقة، كما أنها مربكة أحياناً.

همس لها "لا تكوني سخيفة، نحن نتحدث كثيراً. وأنت أمضيت يوماً طويلاً. أفهمك". كانت غير أنانية ولا تتردد أبداً في العمل بكدّ من أجل خير الآخرين. إنها كائن مذهل مع قلب طيب، وأحبها فعلاً. لا يشك أبداً في ذلك.

ساد صمت غريب بينهما لبرهة، فيما ترددت آنابيل، وأرادت سؤاله شيئاً ما. تشعر دوماً بالخجل من التطرق إلى الموضوع. "هل تفترض... يمكننا ربما... تأسيس عائلة قريباً..."، قالت بهمس، ولم يقل أي شيء لبرهة طويلة، لكنها أحست به يتصلّب قربها. طرحت عليه هذا الموضوع مرة قبلاً، ولم يعجبه الأمر حينها أيضاً. ثمة أوقات، وموضوعات، لا يحب جوشيا أن يدفعه أحد لمناقشتها. وهذا واحد منها.

"نملك الكثير من الوقت، آنابيل. تزوجنا فقط قبل ثلاثة أشهر. يحتاج الأشخاص إلى الاعتياد على بعضهم. أخبرتك ذلك قبلاً. امنحي المسألة وقتاً. لا تلحّي".

"لا ألحّ. أنا أسأل فقط". لم تكن متشوقة لعيش ما أخبرتها به هورتي، لكنها أرادت إنجاب طفله، وأرادت أن تكون شجاعة لأجله، مهما كان الأمر سيئاً.

"لا تسألي، وسيحصل ذلك. نحتاج إلى الاستقرار". بدا صارماً جداً، ولم تشأ خوض جدال معه أو إغضابه. إنه دوماً لطيف جداً معها، لكن حين تزعجه، يتراجع إلى الخلف ويصبح بارداً جداً معها، لأيام عدة أحياناً. ولا ترغب أبداً بإحداث شرخ بينهما الآن.

همست وهي تشعر بالتأنيب: "أنا آسفة. لن أذكر الأمر مجدداً".

"أرجوك لا تفعلي"، قال واستدار بعيداً عنها، وبدا صوته بارداً فجأة. إنه حنون ومحب في كل الموضوعات، ولكن ليس في هذا. إنها مسألة حساسة بالنسبة إليه. بعد دقائق قليلة، ومن دون كلمة، نهض مجدداً. استلقت على السرير، وانتظرته لوقت طويل، ثم خلدت أخيراً إلى النوم قبل أن يعود. وفي الصباح، حين استيقظت، كان مستيقظاً ومرتدياً ثيابه. يحصل ذلك معه في معظم الأوقات. أكّد ذلك ما قاله عن عدم إزعاجه بالضغط عليه، وذكّرها بعدم التطرق إلى الموضوع مجدداً.

في الأسبوع التالي، ذهبت لزيارة هورتي ووجدتها تبكي حين وصلت. كانت غاضبة جداً، وفهمت أنها حامل مجدداً. سيولد الطفل بعد

مضيّ أحد عشر شهراً على ولادة تشارلز، في شهر يوليو. كان جايمس مسروراً بذلك، وأمل أن يكون صبياً آخر. لكن بما أن ذكرى ولادة طفلها الأول لا تزال حية جداً في ذهنها، ذعرت هورتي من خوض التجربة مجدداً، فاستلقت على سريرها وبكت. حاولت آنابيل مواساتها، لكنها لم تعرف ما يجب قوله. كل ما استطاعت التفكير فيه لمواساتها هو القول إن الأمر ربما لن يكون سيئاً جداً في المرة الثانية. لكن هورتي لم تقتنع.

انتحبت وقالت بيأس "لا أريد أن أبدو منتفخة مجدداً!لم يكن جايمس قربي طوال فترة الحمل. تدمرت حياتي، ربما قد أموت هذه المرة، كدت أموت المرة الماضية".

"لن تموتي"، قالت آنابيل، وتمنت أن يكون ذلك صحيحاً. "لديك طبيب جيد، وستكون أمك معك. لن يسمحوا بحصول أي مكروه لك". لكنهما عرفتا تماماً أن نساء أخريات توفين في أثناء الولادة أو مباشرة بعدها، حتى مع الرعاية الممتازة. "لا يمكن أن يكون الأمر أسوأ من المرة الماضية"، طمأنتها آنابيل، لكن هورتي لم تقتنع أبداً. "لا أحب الأطفال"، اعترفت لها. "اعتقدتُ أنه سيكون ظريفاً جداً، مثل دمية عملاقة، لكنه لا يفعل سوى الأكل والتبرز والصراخ. الحمد لله أنني لا أرضعه. ولِمَ يجدر بي المخاطرة بحياتي من أجل ذلك؟".

"لأنك متزوجة، وهذا ما تفعله النساء!"، قالت أمها بصرامة، فيما دخلت إلى الغرفة، ووجهت إلى ابنتها نظرة معارضة. "عليك الشعور بالامتنان لأنك قادرة على إنجاب الأطفال وجعل زوجك سعيداً". يعرفن جميعاً نساء لا يستطعن الحمل، وقد تركهن أزواجهن من أجل نساء ينجبن الأطفال. لكن عند الإصغاء إليهما، شعرت آنابيل فجأة بالامتنان لأن هذه المسألة ليست عالقة بينها وبين جوشيا، بالرغم من أنها تجد طفل هورتي رائعا أكثر مما تظن أمه. بالرغم من ذلك، سيصبح لهورتي طفلان بحلول شهر يوليو المقبل، بعد أقل من عامين على الزواج. "أنتِ مدللة كثيراً، أيتها الفتاة الأنانية"، وبختها أمها، وغادرت الغرفة مجدداً، من دون أي تعاطف، بالرغم من أنها كانت حاضرة في التجربة المريعة التي عاشتها

هورتي. قالت فقط إنها عاشت بنفسها تجربة أسوأ، وأنجبت أيضاً أطفالاً ضخمين، وعانت من الإجهاض مرات عدة، وأنجبت طفلين ميتين، ولذلك لا داعي لأن تتذمر هورتي.

بعدما غادرت أمها الغرفة، قالت هورتي لصديقتها بغضب: "هل هذه هي مهمتنا فقط؟ مجرد التناسل؟ ولماذا الأمر سهل جداً بالنسبة إلى الرجال؟ كل ما يفعلونه هو اللعب معك، ثم تصابين أنت بكل البؤس والعمل، وتصبحين بدينة وبشعة وتتقيئين لأشهر، ثم تجازفين بحياتك لإنجاب الطفل، وتموت بعض النساء. وماذا يفعل الرجال في ذلك؟ لا شيء. يعيدون الكرّة معك مجدداً، ويخرجون مع أصدقائهم ويمرحون". عرفت آنابيل، مثل هورتي، أن هناك أخباراً في المدينة عن لهو جايمس كثيراً خارج المنزل، ومغازلته نساء أخريات. ذكّر ذلك آنابيل أن الحياة أو الزواج ليس مثالياً لأحد. أراد جوشيا الانتظار قبل تأسيس عائلة، لكنها واثقة من أنه لا يخدعها، فهو ليس من هذا النوع. في الواقع، الزواج المثالي الوحيد الذي عرفته هو زواج والديها، لكن والدها مات، وأصبحت أمها أرملة وحيدة في عمر الأربعة والأربعين. الحياة ليست عادلة فعلاً.

استمعت إلى هورتي تتذمر، وتنتحب لساعات عدة، ثم عادت إلى المنزل إلى جوشيا، وهي تشعر بالارتياح لأن حياتهما أكثر بساطة، بالرغم من أنه بقي بارداً معها تلك الليلة. لم يحب تعليقاتها في الليلة السابقة. خرج لتناول العشاء مع هنري تلك الليلة في نادي المتروبوليتان، وقال إنه يريد مناقشة بعض مسائل العمل معه. بقيت آنابيل في المنزل، وراحت تقرأ كتبها الطبية. في اليوم التالي، ستذهب إلى مستشفى إيليس آيلند مجدداً. كانت تقرأ كل ما في وسعها عن الأمراض المعدية، ولا سيما داء السل. بالرغم من أن هذا مرهق ومثير للتحدي، أحبت كل شيء كانت تفعله هناك. ومثلما يحصل غالباً، كانت نائمة حين عاد جوشيا إلى المنزل تلك الليلة. لكن حين استيقظت لفترة وجيزة في الليل، كان يمسك بها. ابتسمت فيما عادت للنوم. كل شيء جيد في عالمهما.

الفصل العاشر

بما أن جوشيا لم يكن مقرّباً من عائلته، أمضى هو وآنابيل مناسبة الشكر والميلاد مع أمها. وبما أنه وحيدٍ، وللتصرف معه بلطافة، دعوا هنري في كلا المناسبتين. إنه ذكي، وساحر، وحريص على كونسويلو، وهو بالتالي إضافة سعيدة إلى مجموعتهم.

هدأت هورتي في النهاية، واعتادت على فكرة إنجاب طفل آخر. لم تكن متحمسة، لكنها لا تملك أي خيار آخر. أرادت المزيد من الأولاد على أي حال، غير أنها ليست مستعدة للحمل بسرعة بعد محنتها الرهيبة في أغسطس، لكنها أملت أن تكون الولادة أسهل هذه المرة، ولم تشعر بالكثير من الغثيان.

كرّست آنابيل نفسها لعملها في مستشفى إيليس آيلند، بالرغم من معارضات أمها المستمرة. لم تسأل كونسويلو آنابيل عن الأحفاد مجدداً، وسمعتْ الرسالة عالية وواضحة بأنه لن يكون هناك أحفاد قريباً، بالرغم من أنها قلقت عليهما، لم تشأ التطفل. وعاملت جوشيا مثل ابن لها.

صدموا جميعاً في شهر أبريل أنه مرّ عامان على غرق التايتانيك. بطريقة ما، يبدو الأمر وكأنه حدث البارحة، فيما يبدو أطول بكثير من نواحٍ أخرى. لقد حصلت الكثير من الأمور. ذهبت آنابيل وأمها إلى دار العبادة ذلك اليوم، وأقامتا احتفالاً دينياً خاصاً في الذكرى الثانية لغياب أرثر وروبرت. كانت أمها وحيدة، لكنها تكيفت مع الخسارات في حياتها، وشعرت بالامتنان لأن جوشيا وآنابيل يمضيان الكثير من الوقت معها. إنهما كريمان جداً في ذلك.

في شهر مايو، بلغت آنابيل الحادية والعشرين. أقامت لها كونسويلو عشاء صغيراً، ودعت عدداً قليلاً من أصدقائها. جاء جايمس وهورتي، وبعض الأزواج الشباب من عمرهما، وهنري أورسون مع فتاة جميلة جداً تعرف إليها حديثاً. أملت آنابيل أن يتوصل إلى شيء ما من هذه العلاقة.

أمضوا أمسية رائعة. كان حفلاً جميلاً. وفي تلك الليلة، حين خلد جوشيا وآنابيل إلى النوم، طرحت على جوشيا السؤال المشؤوم مجدداً. لم تذكر له الأمر منذ أشهر. قدّم لها سواراً ماسياً جميلاً لمناسبة ذكرى ميلادها، وأعجب به الجميع، وحسدتها كل صديقاتها عليه، لكنها تريد منه شيئاً آخر، وهو أكثر أهمية بالنسبة إليها. الأمر يقضّ مضجعها منذ أشهر.

«متى سنؤسس عائلة؟»، همست له فيما استلقيا جنباً إلى جنب في السرير. قالت ذلك، وحدقت إلى السقف، كما لو أنها إذا لم تنظر إليه، تستطيع التوصل إلى جواب صريح. هناك الكثير من الأمور الآن التي لم تعد تقال بينهما. لا نريد إزعاجه، لكن بعد تسعة أشهر من الزواج، بات يصعب شرح بعض الأمور ولم يكف عن القول لها: «أمامنا متسع من الوقت»، و«لا حاجة إلى العجلة». لكم من الوقت؟

قال بصراحة: «لا أعرف». وبدا غير سعيد. لاحظت ذلك في عينيه حين استدارت للنظر إليه. قال لها وهو على وشك البكاء، وشعرت فجأة بالخوف «لا أعرف ماذا أقول لك، أحتاج إلى بعض الوقت». أومأت برأسها، واستدارت برفق للمس وجنته بيدها.

همست له «لا بأس. أحبك». هناك الكثير من الأمور التي لا تفهمها ولا يجدر بها السؤال عنها. «هل من شيء فيّ أستطيع تغييره؟». هزّ رأسه ونظر إليها.

«ليس أنتِ. إنه أنا. سأعمل على ذلك، أعدك»، قال لها فيما ملأت الدموع عينيه، وأخذها بين ذراعيه. إنها أقرب مسافة بينهما على الإطلاق وشعرت وكأنه يهدم أخيراً الجدران بينهما ويسمح لها بالدخول.

ابتسمت حينها وأمسكت به، وكرّرت كلماته. «لدينا متّسع من الوقت». حين قالت ذلك، انهمرت الدموع على وجنته.

في شهر يونيو، غادرت كونسويلو إلى نيوبورت. لم يعد لديها الآن الكثير من الأمور لفعلها في المدينة، وأحبت الذهاب إلى هناك قبل بدء الموسم. وعدتها آنابيل بموافاتها في شهر يوليو، وجوشيا في نهاية

الشهر.

غادرت كونسويلو المدينة حين كانت الأخبار الآتية من أوروبا تلفت انتباه الجميع. في 28 يونيو 1914، كان الأرشيدوق فرانس فرديناند، وريث الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، وزوجته، صوفي، في زيارة رسمية لساراييفو في البوسنة حين جرى اغتيالهما على يد إرهابي صربي شاب، اسمه غافريلو برينسيب. برينسيب هو عضو في اليد السوداء، منظمة صربية إرهابية مصممة على إنهاء الحكم النمساوي الهنغاري في البلقان. قُتل كل من الدوق الكبير وزوجته برصاصتين أُطلقتا من مسافة قريبة على رأسيهما. انتشرت الأخبار في كل العالم، وكانت النتائج في أوروبا مدمرة ولفتت انتباه الجميع في الولايات المتحدة.

سيطرت النمسا على الحكومة الصربية المسؤولة، وطلبت الدعم من ألمانيا. وفي غضون أسابيع من التخبطات الدبلوماسية، في 28 يوليو، أعلنت النمسا-هنغاريا الحرب على صربيا، وفتحت النار على مدينة بلغراد. بعد يومين، حشدت روسيا جنودها، واستعدت للحرب. أجبرت فرنسا حينها، بسبب ظروف المعاهدة التي تجمعهما، على دعم روسيا في خططها للحرب. وخلال أيام، بدأ قصر الورق الذي كان يحفظ السلام في أوروبا بالانهيار. الرصاصتان اللتان قتلتا الأرشيدوق النمساوي وزوجته أدتا إلى دخول كل دولة كبرى في أوروبا إلى دائرة الحرب. وفي 3 أغسطس، وبالرغم من احتجاجاتها كدولة محايدة، عبرت الجيوش الألمانية بلجيكا لمهاجمة فرنسا.

خلال أيام، تحالفت روسيا وإنكلترا وفرنسا مع بعضها، وأعلنت الحرب على ألمانيا والإمبراطورية النمساوية – الهنغارية. وقف الأميركيون وحكومتهم مذعورين أمام ما يحصل. وفي 6 أغسطس، أصبحت كل القوى الكبرى في أوروبا في حالة حرب، ولم يستطع الأميركيون التحدث عن أي شيء آخر.

أجّلت آنابيل الذهاب إلى نيوبورت بسبب تطور الأحداث في أوروبا. أرادت البقاء في المنزل بالقرب من جوشيا. ليست هذه معركتهم، بالرغم

من أن الحلفاء الأوروبيين يشاركون في الحرب. إلا أن الولايات المتحدة لم تظهر أي إشارة على تورطها في الحرب. وطمأنها جوشيا بأنه حتى لو تدخلت الولايات المتحدة في مرحلة ما، لكن هذا مستبعد، لا حاجة إلى أن تخاف آنابيل من أي شيء لأنها متزوجة «برجل عجوز» مثلما ذكّرها. في عمر الواحد والأربعين، لا مجال أبداً لإرساله إلى الحرب. طمأن الرئيس ويلسون الشعب الأميركي بأنه ينوي تماماً البقاء بعيداً عن الحرب في أوروبا. لكن الأمر مقلق جداً على أي حال.

ذهبت آنابيل إلى نيوبورت مع جوشيا في نهاية شهر يوليو، بعد أسبوعين من الموعد الذي قررته قبلاً. كانت مشغولة بالعمل في مستشفى إيليس آيلند كالمعتاد. شعر العديد من المهاجرين بالخوف على سلامة أقاربهم. كان واضحاً أن الحرب، التي تم إعلانها في العديد من الدول التي أتى منها المهاجرون، ستؤثر في عائلاتهم، وتوقف بعض الذين قرروا الانضمام إليهم في الولايات المتحدة. فقد جرى تجنيد العديد من أبنائهم وإخوتهم وأقاربهم في أوطانهم.

في نيويورك، قبل أن يغادرا، تحدثت آنابيل مع جوشيا وهنري عن الحرب في أوروبا بشكل مستمر خلال وجبات العشاء المتأخرة في حديقة آل ميلبانك. وحتى نيوبورت كانت متلهفة لمعرفة ما سيحصل. فللمرة الأولى، تراجعت الحياة الاجتماعية هناك بسبب أخبار الأحداث العالمية.

في عشاء الذكرى الأولى لزواج جوشيا وآنابيل، لاحظت كونسويلو أنهما أصبحا مقربين أكثر من أي وقت مضى، بالرغم من أنها وجدتهما جديين، وهذا مفهوم تماماً، نظراً إلى ما يحصل في العالم. جاء هنري من نيويورك لقضاء ذكرى الزواج معهما.

أنجبت هورتي طفلها حينها، الذي ولد متأخراً أسبوعين، في أول أغسطس، وقد أنجبت فتاة هذه المرة. كانت الولادة مجهدة ومضنية أيضاً، وإنما غير سيئة جداً مثلما كانت مع تشارلز. ولويز، مثلما أسموها، كان وزنها ثمانية باوندات ونصف الباوند فقط. لم تستطع هورتي المجيء إلى حفل عشاء آنابيل وجوشيا في منزل كونسويلو، لأنها لا تزال في السرير،

ويتم الاهتمام بها من قبل أمها والممرضة. إلا أن جايمس جاء إلى العشاء طبعاً. ومثلما يفعل دوماً، ذهب إلى كل حفل في نيوبورت ذلك الصيف، وهذا ما فعله أيضاً في نيويورك مع هورتي أو من دونها.

كان شهر أغسطس في نيوبورت أكثر هدوءاً من المعتاد، لا سيّما مع أخبار الحرب التي بدأت في أوروبا. بدا وكأن هناك سحابة قلق تخيّم فوقهم جميعاً، فيما تحدثوا عن حلفائهم في الجهة الأخرى من الأطلسي وقلقوا على أصدقائهم. ناقشت آنابيل وجوشيا المسألة باستمرار، واستمتعا معاً ببعض الأيام الهادئة بعد مغادرة هنري. ساد تفاهم مسالم بين جوشيا وآنابيل، لكن كونسويلو وجدتهما أكثر جدية من الأيام الأولى من زواجهما. كانت حزينة لأنهما لم يؤسسا عائلة بعد، ولم تذكر آنابيل الأمر لها أبداً. ذات مرة، حين شاهدت نظرة حزينة في عيني ابنتها، تساءلت ما إذا كان يوجد خطب ما، لكن آنابيل لم تخبرها بأي شيء، وبدت مخلصة لزوجها أكثر من أي وقت مضى. لا تزال كونسويلو تعتقد أنهما ثنائي مثالي، وتستمتع بالتواجد معهما ومع أصدقائهما. أملت فقط أن يولد حفيد لها في يوم ما، قريباً.

عاد الثنائي الشاب إلى نيويورك في أوائل سبتمبر، فاستأنف جوشيا مهامه في المصرف، وعادت آنابيل إلى عملها في مستشفى إيليس آيلند. أصبحت تنخرط في المزيد من العمل هناك، وشعرت بعاطفة عميقة واحترام كبير حيال الأشخاص الذين ساعدتهم، وكانوا بمعظمهم بولنديين وألمان وإيرلنديين. بقيت أمها قلقة على صحتها، بسبب قربها الكبير منهم. يحملون الكثير من الأمراض، وكان الأولاد مرضى في أغلب الأحيان، وعرفت كونسويلو أن داء السل متفشٍّ. لكن ما لم تعرفه هو أن آنابيل لم تخف أبداً بينهم. عملت هناك أكثر من أي وقت مضى ذلك الخريف، بالرغم من تحذيرات أمها وشكاواها.

كان جوشيا مشغولاً في المصرف، يعالج بعض المسائل الحساسة جداً. وبصفتها دولة كبرى أو قوة حيادية، رفضت الحكومة الأميركية، بالرغم من تعاطفها معهم، تمويل الحلفاء رسمياً أو دعم جهودهم في الحرب التي اندلعت في أوروبا. نتيجة ذلك، قام الأفراد الأغنياء وبعض

الشـركات الخاصـة بتوفير المساعدة. كانوا يرسلون المال، وكذلك بضاعة الشـحن، ليس فقط إلى الحلفاء، وإنما أحياناً إلى أعدائهم أيضـاً. ولّد ذلك دوّامـة كبيـرة، وتطلّـب إجراء تلك التحويلات تكتماً كبيراً، ووجد جوشـيا نفسه مسؤولاً عن العديد منها. ومثلما يفعل في معظم الأمور، أخبر آنابيل عن ذلك، وشـاركها همومه. انزعج كثيراً لأن زبائن مهمين في مصـرف المرحوم والدها يرسـلون المعدات والأموال إلى ألمانيا، بسـبب الروابط والعلاقـات التـي يملكها أولئـك الزبائن هناك. لم يعجبـه كثيراً اللعب على الحبلين، لكن توجب عليه تلبية طلبات زبائنه.

بات سراً مفضوحاً حصول عمليات من هذا النوع، وبهدف وقف تدفق الموارد إلى ألمانيا، بدأت بريطانيا تزرع الألغام في بحر الشمال. رداً على ذلك، هدد الألمان بإغراق أي سفينة تنتمي إلى بريطانيا أو حلفائها. وكانت الغواصات الألمانية تجوب الأطلسي. لا شك في أن الوقت غير مناسب أبداً لعبور الأطلسـي، لكن بالرغم من ذلك، اسـتمر دفق مطّرد من المهاجرين في الوصول إلى مستشفى إيليس آيلند، للعثور على حياة جديدة في الولايات المتحدة.

كان الأشـخاص الذين تراهم آنابيل هناك أكثر مرضـاً وأسـوأ حالاً مـن كل مـا رأتـه طوال سـنوات. في العديد من الحـالات، تركوا ظروفاً مأسـاوية في بلدانهم، وأبحروا إلى الولايات المتحدة ممتنين للحصـول على هذه الفرصة. كما أنهم شعروا بالامتنان للطافتها في كل شيء فعلته لأجلهم. حاولت أن تشرح لأمها، ولكن من دون جدوى، مدى الحاجة إليها وإلى الآخريـن لمسـاعدة المهاجرين حين يصـلون. بقيت أمهـا مقتنعة تماماً أنها تجـازف بحياتهـا فـي كل مرة تذهب فيها إلى هناك، ولم تكن غير صـائبة تمامـاً، بالرغـم من أن آنابيل رفضـت الاعتراف بذلك. وحده جوشـيا بدا متفهماً لعملها وداعماً إيّاها. اشـترت عدداً من كتب الطب الجديدة، وكانت تقرأ فيها كل ليلة قبل الخلود إلى النوم. أبقاها ذلك مشغولة حين كان جوشيا مشغولاً، أو يعمل حتى وقت متأخر، أو يخرج مع أصـدقائه الرجال إلى مناسبات في نوادٍ لا ترحب بالنساء. لم تكترث أبداً حين يخرج من دونها.

قالت إن ذلك يمنحها المزيد من الوقت للقراءة والدراسة حتى وقت متأخر من الليل.

فـي ذلـك الحين، كانت قد حضـرت عـدداً من العمليـات الجراحية، وقرأت كل شيء يقع بين يديها عن الأمراض المعدية التي أصابت الأشخاص الذين تهتم بهم. مات العديد من المهاجرين، ولا سيما الكبار في السن، بعد الرحلات المضنية، أو بسبب الأمراض التي كانوا يحملونها حين وصلوا. في العديد من النواحي، كانت آنابيل، بين أفراد الطاقم الطبي الموجود هناك، الممرضة غير المدربة وغير الرسمية التي أثبتت غالباً أنها كفوءة بقدرهم، أو ربما أكثر. لديها بصيرة ممتازة، وموهبة أكبر في تشخيص الأمراض، في الوقت المناسـب أحياناً لإحداث فرق وإنقاذ حياتهم. اسـتمرت في العمل بكدّ أكثر من أي وقت مضى، وظنت أمها غالباً أنها تحاول ملء فراغ في حياتها في وسع الطفل ملئه. انتحبت غالباً لعدم إنجاب ابنتها الأطفال، واهتمت أكثر من آنابيل نفسها التي لم تتناول هذه المسألة أبداً أمام أمها.

انضـم هنري إليهم في منزل أمها لقضـاء الميلاد مجدداً هذه السـنة. تشاركوا هم الأربعة عشاء هادئاً ليلة الميلاد. إنه ثالث ميلاد لهم من دون أرثر وروبرت، وكانوا يشعرون بمرارة غيابهما في مثل تلك المناسبات. كرهت آنابيل الاعتراف بذلك، لكنها لاحظت أن الكثير من الحياة والروح في أمها اختفتا بعد موت زوجها وابنها. لطالما شعرت كونسويلو بالامتنان علـى الوقـت الذي أمضـته معهما، وكانت تهتم بكل ما يحصـل في العالم، لكن بعد مأسـاة التايتانيك الفظيعة قبل أكثر من عامين، لم تعد تهتم أبداً بما يحصـل لها. بدا هنري الشـخص الوحيد القادر على جعلها تضحك. بالنسبة إلى كونسويلو، كانت الخسارة المزدوجة صعبة جداً عليها. أرادت فقط أن تعيش كفاية لترى آنابيل مع أطفالها. أصبحت تقلق أكثر فأكثر بشأن وجود خطـب مـا وعدم قدرة ابنتها على الحمـل. لكن الرابط الموجود بينها وبين جوشيا بات أقوى من ذي قبل.

كمـا هـي الحال دوماً، حتى ليلة الميلاد، تحوّلت المحادثة إلى مسـألة الحـرب فـي نهايـة الوجبـة. لم يكـن أي من الأخبـار جيداً. يصـعب عدم

التصديق، أنه في مرحلة ما، بسبب التعاطف على الأقل، ستنخرط أميركا في الحرب وسيموت العديد من الأميركيين الشباب. كان الرئيس ويلسون مصرّاً على أنهم لن يدخلوا الحرب، بالرغم من أن جوشيا بدأ يشك في ذلك.

بعد يومين من الميلاد، توقفت آنابيل لرؤية أمها وزيارتها، وتفاجأت حين أخبرها رئيس الخدم أنها في سريرها في الأعلى. وجدتها آنابيل ترتجف تحت البطانيات، وبدت شاحبة، مع بقعتين حمراوين ساطعتين على وجنتيها. أحضرت لها بلانش للتو كوب شاي، لكنها رفضت شربه. بدت مريضة جداً، وحين لمست آنابيل جبينها بيد متمرّسة، عرفت أنها تعاني من حرارة مرتفعة جداً.

«ماذا حصل؟»، سألت آنابيل، وهي تبدو قلقة. إنها الأنفلونزا بوضوح، وتمنت ألا تكون شيئاً أسوأ. هذا هو بالضبط ما خافت أمها عليها منه. لكن آنابيل شابة ومقاومتها للمرض جيدة. أما كونسويلو فقد أصبحت ضعيفة جداً، خصوصاً خلال العامين الماضيين. فحزنها المستمر على خسارتيها قلّل من شبابها وقوتها. «كم مضى على مرضك؟». رأتها آنابيل قبل يومين فقط ولم يكن لديها فكرة أنها مريضة. حذرت كونسويلو بلانش من ضرورة عدم إقلاق ابنتها، وقالت إنها ستكون بخير خلال أيام.

قالت أمها وهي تبتسم لها: «منذ البارحة فقط، هذا لا شيء. أعتقد أنني أصبت بالبرد في الحديقة يوم الميلاد». لكن الأمر بدا أكثر من مجرد برد بالنسبة إلى آنابيل، وشعرت بلانش بالقلق أيضاً.

سألت آنابيل مقطّبة حاجبيها «هل رأيت الطبيب؟». هزّت أمها رأسها. فقالت لها: «أظن أنه يجدر بك فعل ذلك». بدأت أمها تسعل، ولاحظت آنابيل أن عينيها جامدتان.

«لا أريد إزعاجه مباشرة بعد الميلاد. لديه أمور أكثر أهمية ليفعلها».

وبختها آنابيل برفق «لا تكوني سخيفة ماما». تركت الغرفة بهدوء، وذهبت للاتصال به. عادت إلى سرير أمها بعد دقائق قليلة، مع ابتسامة

مشرقة أكثر طمأنينة مما كانت عليه حين غادرت. «قال إنه سيأتي بعد قليل». لم تجادلها أمها بشأن رؤية الطبيب، وهذا أمر غير اعتيادي. أدركت آنابيل أنها تشعر بالكثير من المرض. وعلى عكس الأشخاص الذين تهتم بهم ببراعة في مستشفى إيليس آيلند، شعرت بالعجز أمام سرير أمها، وبالذعر نوعاً ما. لا تتذكر أنها رأت أمها مريضة هكذا قبلاً. ولم تسمع أي شيء عن وباء الأنفلونزا. أكد لها الطبيب ذلك حين وصل.

قال برزانة: «لا أعرف كيف أصيبت بهذا الوباء، عاينت بعض المرضى المصابين به خلال العطلة، لكنهم بمعظمهم كبار في السن وأكثر ضعفاً. لا تزال أمك شابة وفي صحة جيدة»، طمأن آنابيل. كان واثقاً من أن كونسويلو ستشعر بالتحسن خلال أيام قليلة. وترك لها بعض قطرات مستحضر اللودنوم لمساعدتها على النوم بصورة أفضل، والأسبيرين لخفض الحرارة.

لكن بحلول الساعة السادسة عصراً، أصبحت أمها أسوأ حالاً بحيث قررت آنابيل قضاء الليل عندها. اتصلت بجوشيا لإبلاغه، وكان متعاطفاً جداً، وسألها إذا كان في وسعه فعل أي شيء لمساعدتها. أكدت له أنه لا يستطيع فعل أي شيء، وعادت إلى أمها التي كانت تستمع إلى الاتصال.

سألت كونسويلو ابنتها «هل أنت سعيدة معه؟». ورأت آنابيل أن السؤال غريب.

ابتسمت لها آنابيل «طبعاً أنا سعيدة ماما». وجلست على كرسي قرب السرير، وأمسكت بيد أمها. جلست هناك تمسك بيدها، تماماً مثلما كانت تفعل حين كانت صغيرة. أكدت آنابيل «أحبه كثيراً، إنه رجل رائع».

«أنا آسفة لأنك لم تنجبي طفلاً. ألم يحصل أي شيء بعد؟». هزّت آنابيل رأسها بتعبير جدي، وأعطتها الجواب الرسمي.

«أمامنا متّسع من الوقت». أملت أمها ألا تكون واحدة من تلك النساء اللواتي لا يستطعن الإنجاب أبداً. فكرت أنها ستكون مأساة كبيرة إذا لم ينجبا الأولاد أبداً، وكذلك فعلت آنابيل، بالرغم من أنها لم تشأ الاعتراف بذلك

أمام أمها. قالت لصرف انتباهها: «فلنهتم أولاً بصحتك». أومأت كونسويلو برأسها، وخلدت بعد قليل إلى النوم، وهي تبدو مثل طفلة، فيما جلست آنابيل قربها وراقبتها. ارتفعت حرارة أمها أكثر خلال الساعات التالية، وعند منتصف الليل، كانت آنابيل تبلل جبينها بمناشف باردة أحضرتها بلانش. تملكان أغراضاً أكثر مما تملك حين تعمل في مستشفى إيليس آيلند، لكن لم ينفع أي شيء. أمضت الليلة مستيقظة قرب سرير أمها، على أمل أن تنخفض الحرارة في الصباح، لكن ذلك لم يحصل.

جاء الطبيب لرؤيتها في الصباح وبعد الظهر، وطوال الأيام الثلاثة التالية، فيما استمرت حالة كونسويلو في التراجع باطراد. إنها أسوأ حالة أنفلونزا رآها الطبيب منذ وقت طويل، وأسوأ بكثير من تلك التي عانت منها آنابيل قبل ثلاثة أعوام، حين فوّتت الرحلة المشؤومة على متن التايتانيك.

جاء جوشيا لزيارة حماته بعد ظهر أحد الأيام، كي تتمكن آنابيل من النوم لساعات قليلة في غرفة نومها القديمة. غادر المصرف لفعل ذلك، وتفاجأ حين استيقظت كونسويلو، ونظرت إليه بعينين صافيتين. بدت أكثر يقظة مما كانت عليها في اليوم السابق، وأمل أن تتحسن. عرف كم أن زوجته قلقة على أمها، ولسبب وجيه. إنها مريضة جداً، وقد مات الناس قبلاً من الأنفلونزا، بالرغم من أنه لا يوجد سبب لذلك لا سيّما إذا كانت تتلقّى مثل هذه الرعاية الجيدة. لم تتركها آنابيل أبداً، إلا للنوم لنصف ساعة بين الحين والآخر، فيجلس جوشيا أو بلانش مع أمها. لم تُترك كونسويلو لوحدها لبرهة واحدة. وكان الطبيب يأتي للزيارة مرتين يومياً.

«آنابيل تحبك كثيراً»، قالت كونسويلو بصوت خافت من حيث هي مستلقية، وابتسمت له. إنها ضعيفة جداً وشاحبة كثيراً.

طمأنها جوشيا «أنا أيضاً أحبها كثيراً، إنها امرأة مميزة وزوجة رائعة». أومأت كونسويلو برأسها، وبدت مسرورة لسماع ذلك منه. ظنت في أغلب الأحيان أنه يعاملها مثل أخت أو طفلة صغيرة، وليس مثل زوجة أو امرأة ناضجة. ربما هذه هي طريقته، لأنها أصغر منه بكثير. «عليك أن

تستريحي وتتحسني»، شجّع حماته التي نظرت بعيداً، كما لو أنها تعرف أن هذا لن يحدث أي فرق، ثم نظرت إليه مباشرة مجدداً بإمعان.

«إذا حصل شيء لي، جوشيا، أريدك أن تهتم بها. أنتَ كل ما تملك. وأتمنى أن تنجبا أطفالاً في يوم ما».

قال بصوت خافت: «وأنا أيضاً، ستكون أماً مثالية. لكن لا يجدر بك التحدث بهذه الطريقة، ستكونين بخير». لم تكن كونسويلو واثقة بقدره، وبدا جلياً له أنها تظن أنها على فراش الموت، أو ربما هي خائفة.

قالت مجدداً: «اهتم بها». ثم أغمضت عينيها، وخلدت إلى النوم مجدداً. لم تتحرك إلا حين عادت آنابيل إلى الغرفة بعد ساعة، وتفقّدت حرارتها. المؤسف أن الحرارة ارتفعت أكثر، وفيما أشارت بذلك إلى جوشيا فتحت أمها عينيها.

سألت آنابيل مع ابتسامة مشرقة «هل تشعرين بالتحسن؟» فهزّت كونسويلو رأسها، وأحسّت ابنتها بالذعر لأن أمها بدأت تستسلم. لغاية الآن، لم يساعدها أي شيء فعلوه لها.

عاد جوشيا إلى الشقة حينها، وطلب من آنابيل الاتصال به في الليل إذا أرادت منه أي شيء. وعدته آنابيل بأنها ستفعل، وفيما غادر منزل آل ورثينغتون، طاردته كلمات كونسويلو. إنه ينوي تماماً الاهتمام بآنابيل. ولم يغب عن باله أنه كل ما بقي لها في العالم، باستثناء أمها. في بعض النواحي، خصوصاً إذا توفيت أمها، سيكون العبء كبيراً عليه.

ليلة رأس السنة، أخبرهم الطبيب أن كونسويلو تعاني من التهاب الرئتين. هذا ما خشي حصوله منذ البداية. إنها امرأة بصحة سليمة، وليست كبيرة جداً في السن، لكن التهاب الرئتين خطير، وأحسّ أن كونسويلو ترغب كثيراً بالتخلي عن الحياة، وجميعهم يعرفون السبب. بدأت تنطفئ أمام عيونهم، ولا يستطيعون ربح هذه المعركة لوحدهم. إنهم بحاجة إلى مساعدتها، وحتى لو توافرت هذه المساعدة، لم تكن النتيجة السعيدة مؤكدة. بدت آنابيل مذعورة فيما جلست قرب سريرها. الوقت الوحيد الذي كانت

تبتهج فيه هو حين تستيقظ أمها، وتحاول إقناعها بالأكل والشرب، وتؤكد لها أنها ستتعافى قريباً. لم تعلّق كونسويلو، وبالكاد كانت تأكل للصمود، وكانت ضحية الحرارة المرتفعة. ضعفت أكثر يوماً بعد يوم، فيما ظلّت حرارتها مرتفعة. بدت بلانش محطّمة بقدر آنابيل فيما أدخلت الصواني إلى غرفة المريضة، وحاول الطاهي إعداد وجبات تأكلها كونسويلو. كان الوضع مخيفاً بالنسبة إليهم جميعاً.

في السادس من شهر يناير، استسلمت كونسويلو بهدوء. خلدت إلى النوم في أولى فترات المساء بعد يوم طويل وصعب. كانت تمسك بيد آنابيل، وتحدثتا قليلاً بعد ظهر ذلك اليوم. ابتسمت لها كونسويلو قبل أن تخلد إلى النوم، وأخبرت آنابيل أنها تحبها. كانت آنابيل تغط في النوم على الكرسي قربها في الساعة الثامنة مساء من تلك الليلة حين أحست فجأة بشيء مختلف واستيقظت مذعورة. نظرت إلى التعبير الناعم على وجه أمها ولاحظت فوراً أنها لا تتنفس، فشهقت آنابيل. للمرة الأولى منذ أسبوعين، كان وجه أمها بارداً، وبطريقة غير طبيعية. لقد فارقتها الحرارة المرتفعة، وأخذت معها حياة كونسويلو. حاولت آنابيل هزّها لإيقاظها، ولاحظت أن ذلك غير مجدٍ. ركعت قرب سرير أمها، وأمسكت بالجسم الخالي من الحياة بين ذراعيها، وبكت بقوة. إنه الوداع الأخير الذي لم تتمكن أبداً من فعله مع والدها أو أخيها، وكانت بلا عزاء فيما بكت.

وجدتها بلانش بعد برهة، وبدأت تبكي هي الأخرى. مشطت برفق شعر كونسويلو، ثم أبعدت آنابيل، وأرسلت توماس لإحضار جوشيا. وصل إلى المنزل بعد لحظات، وفعل كل ما في وسعه لمواساة زوجته. عرف تماماً كم أن الخسارة كبيرة عليها، وكم تحب أمها.

جاء الطبيب تلك الليلة للتوقيع على وثيقة الوفاة. جاء الأصدقاء للتعزية طوال اليوم التالي، بعدما قرأوا نعيها في الصحيفة وعرفوا بأن كونسويلو ورثينغتون ماتت. غاص منزلهم في الحزن العميق مجدداً، بعد فترة وجيزة من خسارتهم المزدوجة قبل ثلاثة أعوام تقريباً. أدركت آنابيل أنها أصبحت يتيمة الآن، ومثلما قالت له أمها، بات جوشيا كل ما تملك في العالم. تشبثت

به في الأيام القليلة التالية مثل شخص يغرق، وفي دفن أمها كانت ذراعه حول كتفيها باستمرار، وكان صادقاً بوعده. لم يتركها جوشيا أبداً، حتى إنه نام بالقرب منها على سريرها الضيق في غرفة نومها في منزل أهلها. لم تشأ العودة إلى شقتهما، وأصرّت على البقاء في منزلها معه. تحدثت عن انتقالهما إلى المنزل، وهذا أمر محتوم، لكنه شعر أن ذلك سيكون حزيناً وصعباً جداً عليها. لكن في الوقت الحاضر، سمح لها بفعل كل ما تريده. إنها خسارة لا تحتمل بالنسبة إلى آنابيل. تواجد هنري غالباً معهما، وكان عزاء كبيراً لها أيضاً. جاء للزيارة غالباً وتحدث هو وجوشيا بهدوء في المكتبة حتى وقت متأخر من الليل، فيما استلقت آنابيل في الأعلى على سريرها، في حالة صدمة وحزن.

مضى شهر كامل قبل أن تغادر المنزل. لم تلمس أي شيء في غرفة نوم أمها. لا تزال كل ملابس كونسويلو هناك. كان جوشيا يدير العقارات في المصرف. أصبحت كل ثروة أهلها ملكها الآن، بما في ذلك الحصة التي كانت ستذهب إلى روبرت. إنها امرأة غنية جداً، ولكن من دون أي عزاء. لا تهتم. وبالرغم من أن الأمر آلمه كثيراً أيضاً، توجب على جوشيا في شهر مارس تقديم عرض لها ببيع المنزل لعائلة تعرف عائلتها. ذعرت آنابيل، ولم تشأ سماع ذلك، لكن جوشيا أخبرها برفق أنه لا يظن أنها ستكون يوماً سعيدة هناك. لقد خسرت كل الأشخاص الذين أحبتهم في ذلك المنزل، وبات المنزل مليئاً بالذكريات المريعة بالنسبة إليها. والعرض المطروح هو عرض جيد، لا بل أفضل من أي عرض آخر يمكن الحصول عليه إذا قررت بيع المنزل لاحقاً. عرف أن الأمر سيكون مؤلماً وصعباً عليها، لكنه رأى أنه يجدر بها فعل ذلك.

سألت بنظرة خائفة «لكن أين سنعيش؟ ستكون شقتك صغيرة جداً علينا حين يصبح لدينا عائلة، ولا أريد منزلاً آخر». أرادت بشدة رفض العرض، لكنها عرفت أيضاً حقيقة ما قاله. لا تزال هي وجوشيا بحاجة إلى منزل، لكنهما لم يفعلا أي شيء بما أن جوشيا غير مستعد لإنجاب الأولاد، وكل ما ستراه في هذا المنزل هو صور والديها وأخيها، الذين ماتوا جميعاً

dodyadodo
www.rewity.com

الآن. حتى لو ملأ المنزل بالأولاد، لن يعوّض ذلك أبداً الحزن الذي شعرت به هناك، والذكريات التي خسرتها.

تحدثت عن الأمر مع هورتي، التي كانت حاملاً بطفلها الثالث، وتشعر بالغثيان مجدداً. قالت إن جايمس حوّلها إلى مصنع للأطفال، لكن مشاكلها بدت ضئيلة جداً الآن مقارنة مع مشاكل آنابيل، وحاولت نصحها بطريقة منطقية قدر الإمكان. رأت أن جوشيا محق، وأنه يجدر به وبآنابيل بيع منزل ورثينغتون، وشراء منزل جديد لهما، لا ذكريات سيئة أو حزينة فيه.

تحطم قلب آنابيل لفعل ذلك، لكنها وافقت في غضون أسبوعين. لم تستوعب فكرة التخلي عن المنزل الذي كانت سعيدة فيه كثيراً حين كانت طفلة، لكنه بات الآن مليئاً بالخسارة والحزن. وعدها جوشيا بمعالجة كل شيء، وأكد لها أنهما سيعثران على منزل جديد، أو حتى يبنيان واحداً، وسيكون ذلك مشروعاً سعيداً بالنسبة إليهما. وبقيت كل المسائل العالقة بينهما غير معالجة خلال فترة حدادها. لم تعد قلقة بشأن العائلة التي لم تؤسسها بعد. ليست في مزاج للتفكير في أي شيء سوى حزنها.

أمضت كل شهر أبريل، وهي توضّب أغراض المنزل، وترسل كل شيء إلى التخزين. وكل الأشياء التي كانت من دون أهمية أو قيمة بالنسبة إليها أرسلت للبيع في المزاد العلني. بذل الخدم وجوشيا وهنري كل جهودهم لمساعدتها، وأمضت ساعات عديدة وهي تبكي كل يوم. لم تذهب إلى مستشفى إيليس آيلند منذ موت أمها. اشتاقت إلى ذلك كثيراً لكنها مشغولة كثيراً الآن في إغلاق منزل أهلها. أرسلت آخر الأغراض للتخزين في شهر مايو، في اليوم نفسه الذي أعلنت فيه خطوبتها هي وجوشيا قبل عامين. ستبيع المنزل في شهر يونيو، وستبقى في نيوبورت في المنزل الذي أصرّت على الاحتفاظ به. ستمضي هي وجوشيا فصل الصيف هناك.

بعد ستة أيام من إغلاقها المنزل في نيويورك، أغرق الألمان باخرة لوسيتانيا، وقتلوا 1198 شخصاً، فكانت مأساة كبيرة في البحر، أعادت إليها كل ذكريات التايتانيك، وهزّت العالم مجدداً. مات أحد أقارب أمها،

ألفرد غوين فاندربيلت، الذي بقي على متن السفينة لمساعدة الآخرين على الصعود إلى قوارب النجاة مثلما فعل والدها وأخوها في التايتانيك. وتماماً مثلهما، خسر ألفرد حياته حين انفجرت السفينة، وغرقت في أقل من عشرين دقيقة. بعد أسبوعين، دخلت إيطاليا الحرب، وانضمت إلى الحلفاء. ذُكرت في الأخبار قصص مريعة عن استعمال غاز الأعصاب في الجبهات الأمامية، والذي كان يحدث أضراراً كبيرة ويسبّب أذىً للرجال الذين يتنشّقونه. كانت كل أوروبا في حال فوضى واضطراب، وبدا ذلك مرآة لليأس والحزن الذي شعرت بهما آنابيل.

أمضت بقية شهر مايو في شقة جوشيا قبل المغادرة إلى نيوبورت في شهر يونيو. أخذت بلانش وخدم أمها الذين بقوا معها إلى نيوبورت. في نهاية الصيف، سينتقل معظمهم إلى وظائف جديدة، فيما الحياة التي عرفتها ستتغير إلى الأبد. سيبقى كل من بلانش ووليام رئيس الخدم في نيوبورت مع عدد قليل من الخدم الآخرين.

وعدها جوشيا بالذهاب إلى نيوبورت في منتصف شهر يونيو، وينوي أخذ إجازة أطول من المعتاد هذه السنة، لأنه عرف أن آنابيل تحتاج إليه معها. بدت محطّمة القلب حين غادرت المدينة. لقد أصبح منزل المدينة الذي أحبته كثيراً ملكاً لأناس آخرين.

حين وصلت إلى نيوبورت، أمضت آنابيل بعض الوقت مع هورتي، التي جاءت إلى نيوبورت باكراً مع ولديها، ومربيتهما، وأمها. بالرغم من أنها حامل في الشهر السادس فقط، بدت ضخمة مجدداً وكانت آنابيل منزعجة كثيراً لتمضي الكثير من الوقت معها. إنها تشعر بالحزن والقلق منذ موت أمها، وصعب عليها التواجد في نيويورك من دونها. بطريقة ما، شعرت أن هذا الصيف هو تكرار للصيف الذي تلا مأساة التايتانيك، وشعرت بالارتياح حين وصل جوشيا.

سيقيمان في منزل أمها وليس في منزل جوشيا، وسينامان في غرفة آنابيل أيام العزوبية. قاما بنزهات طويلة وهادئة قرب البحر. كان شارداً وصامتاً بقدرها هي، لكنها لم تلحّ عليه لمعرفة السبب. يكون هكذا في بعض

الأحيان، مزاجياً وحتى مكتئباً. لم يكن أي منهما في معنويات جيدة. سألته متى سيأتي هنري لرؤيتهما، على أمل أن يفرحه ذلك، لكنه كان غامضاً في الجواب وقال إنه غير أكيد.

كان قد مضى على وجود جوشيا هناك أسبوع واحد تقريباً حين استدار صوبها أخيراً ذات ليلة فيما كانا جالسين قرب النار وقال لها إنه يريد التحدث إليها. ابتسمت، متسائلة عما يريد قوله. يتحدثان معظم الأوقات الآن عن الحرب. لكنه تنهد هذه المرة بعمق، ولاحظت دموعاً في عينيه حين استدار صوبها.

سألته «هل أنت بخير؟» وبدت فجأة قلقة، لكنه هزّ رأسه ببطء وغاص قلبه حرقةً عند لفظ الجواب.

«لا، لست بخير».

الفصل الحادي عشر

ما من شيء في الحياة جعل آنابيل مستعدة لسماع ما أراد جوشيا قوله. فوقع كلماته عليها كان قوياً بقدر الشعور الذي انتابها ذاك الصباح الذي رأت فيه عناوين الصحف بشأن التايتانيك. كل ما قاله لها كان مثل القنبلة. في البداية، لم يعرف من أين يبدأ. تمددت إلى الأمام لتصبح أكثر قرباً منه، وأخذت يده بيدها.

سألته بلطافة «ما المشكلة؟». لم تتخيل مشكلة يمكن أن تجعله يائساً إلى هذا الحدّ. بدا محطماً. أخذ نفساً عميقاً حينها وبدأ الكلام.

قال وهو يشدّ على يدها: «لا أعرف كيف أقول لك ذلك آنابيل». عرف كم هي بريئة، وكم سيصعب عليها فهم ذلك. أراد أن يقول لها ذلك قبل ستة أشهر، لكنه رأى أنه من الأفضل الانتظار حتى عطلة الأعياد، ثم مرضت أمها كثيراً. ولم يستطع إخبارها بعدما ماتت كونسويلو. كانت آنابيل محطَمة جداً بسبب موت أمها لتتحمّل صدمة أخرى، وخصوصاً منه. مضت ستة أشهر تقريباً على موت كونسويلو، وكان بيع المنزل صدمة كبيرة أيضاً. لكنه لم يعد يستطيع الانتظار أكثر. عليها أن تعرف. لا يمكنه العيش في أكذوبة بعد الآن، لأن ذلك يدفعه للجنون.

«لا أفهم ما المشكلة». قالت فيما ملأت الدموع عينيها أيضاً قبل أن تعرف حتى المسألة. «هل فعلتُ شيئاً أغضبك؟». هزّ رأسه بقوة.

«طبعاً لا. لم تكوني سوى رائعة معي. أنت زوجة مثالية ومخلصة. لست أنت من فعل شيئاً خطأً، آنابيل. بل أنا... منذ البداية. ظننتُ فعلاً أنني أستطيع أن أكون زوجاً جيداً لك، وأوفر لك حياة جيدة. أردت ذلك...». بدأ يقول المزيد، لكنها قاطعته، على أمل وقف التيار الجارف. إلا أنها موجة ضخمة، لا يستطيع حتى هو وقفها. لا بد من مواجهتها.

«لكنك زوج جيد، وتوفر لي حياة جيدة». ثمة نبرة توسل في صوتها، مما حطم قلبه أكثر.

«لا، لم أفعل. تستحقين أكثر بكثير. أكثر مما أستطيع منحك إياه. ظننت أنني أستطيع. كنت واثقاً من ذلك في البداية، وإلا لما فعلت ذلك بك أبداً. لكنني لا أستطيع. تستحقين رجلاً يستطيع منحك كل ما تريدينه، كل رغبات قلبك، ويستطيع منحك الأولاد».

«لسنا مستعجلين، جوشيا. لطالما قلت إن أمامنا متسعاً من الوقت».

قال: «لا، لا وقت أمامنا». وبدا حاسماً فيما تحول فمه إلى خط قاس. الأمر أصعب مما ظنه. الجزء الأسوأ هو أنه يحبها، لكنه عرف أنه لا يملك الحق في ذلك الآن، ولم يملكه أبداً. شعر بالذنب أيضاً لأنه نكث بوعده لأمها بالاهتمام بها، لكن الوضع معقد جداً أكثر مما تصورت كونسويلو. «نحن متزوجان على الورق منذ عامين تقريباً، أعطيتك ألف عذر لإبعادك عني». تساءلت مرة أو مرتين إذا كان لديه مشكلة جسدية، ويشعر بالإحراج من قولها أمامها. لكنها أحست دوماً أن المشكلة عاطفية ومسألة تكيف، وأملت أن يتوصل إلى حلها مع الوقت، لكنه لم يفعل أبداً. عرفا أنه بعد عامين تقريباً على الزواج، لا تزال عذراء. لم تعترف بذلك لأيّ كان، ولا حتى لهورتي أو أمها. شعرت بالكثير من الخجل، وخشيت أن يكون ذلك بسبب تصرف غير صحيح من قبلها، أو لأن جوشيا لا يجدها جذابة. حاولت كل شيء ممكن، من تسريحات الشعر الجديدة إلى الملابس المختلفة، وارتدت ملابس نوم أكثر إثارة، إلى أن تخلت أخيراً عن كل شيء، وقررت أنه قلق جداً، وسيحصل ذلك حين يكون الوضع ملائماً ويكون هو جاهزاً. لكنها قلقت كثيراً بشأن ذلك، بالرغم من أنها حاولت تهوين المسألة عليه الآن. «ظننتُ فعلاً حين تزوجتك أنني أستطيع أن أكون رجلاً جيداً معك. إلا أنني لست كذلك. كلما فكّرت في الأمر، أدرك أنني ارتكبت خطأً، ولا أستطيع الاستمرار في الكذب عليك مقابل فضيلتك».

قالت بشجاعة: «ليست كذبة»، وهي تكافح لحياتها ولزواجهما. لكنها خسرت قبل أن تبدأ. لا تملك الفرصة أبداً. «نحن نحب بعضنا. لا أهتم إن بقي

الأمر على هذه الحال. ثمة أشياء في الحياة أكثر أهمية من ذلك». ابتسم لمدى براءتها. هناك الكثير من الأشخاص من كلا الجنسين لا يوافقونها الرأي، وهو نفسه منهم. لكنها لا تعرف أكثر، وإذا بقيت معه، لن تعرف أبداً.

«تستحقين أكثر مما أستطيع منحك إياه، آنابيل. عليك الإصغاء. قد يصعب عليك أن تفهمي، لكنني أريد أن أكون صريحاً معك». عرف أنه كان يجدر به فعل ذلك منذ البداية، لكن عليه فعل ذلك الآن. سيأخذ منها كل براءتها في ليلة واحدة، وربما يدمر ثقتها بالرجال إلى الأبد. لكنه لا يملك خياراً آخر. لقد فكر في ذلك لوقت طويل، وانتظر أكثر مما يجدر به، من أجلهما معاً. لا يستطيع فعل ذلك بعد الآن. لقد أحبها. لكن كل شيء في زواجهما خطأ.

اتسعت عيناها فيما راقبته، وارتجفت أصابعها في يده فيما شدّت قبضتها، وحضّرت نفسها لما يريد قوله. كان كل جسمها يرتجف، بالرغم من أنها غير مدركة لما سيقوله. لاحظ أن كتفيها ارتجفتا فيما انتظرته. قال بصوت خشن: «ظننتُ أنني أستطيع أن أكون زوجاً محترماً لك، إنني أحب كل شيء فيك، ولكن...». كانت عيناها متسعتين جداً فيما حدّقت إليه لدرجة ظن أنه سيغمى عليها. لكنها أكثر شجاعة من ذلك، ورفضت الاستسلام للدوار والغثيان اللذين سيطرا عليها.

«اكتشفت قبل ستة أشهر أمراً غيّر كل شيء، اكتشفت في شهر ديسمبر أنني أعاني من السيفلس. مهما كانت الظروف الآن، لن أضع يدي عليك أو أحاول منحك الأطفال الذين أعرف أنك ترغبين بهم بشدة. لن أجازف بحياتك. أحبك كثيراً لأفعل ذلك بك». انهمرت دمعتان وحيدتان على وجنتيه فيما تحدث، ووضعت ذراعيها حوله فيما دفنت وجهها في عنقه وراحت تبكي بصورة هستيرية. هذا أسوأ خبر منه لغاية الآن.

«جوشيا... لا يمكن...». رفعت وجهها اليائس ونظرت إليه. بدا على حاله بالنسبة إليها، لكنها لا تعرف الأعراض. وفي الوقت الحاضر، لا توجد أي أعراض. لكنها ستظهر مع الوقت. في النهاية، سيصبح أعمى وحتى يموت. «هل أنت واثق؟».

«تماماً. ما إن اكتشفت، عرفتُ أنه يجب أن أكون صادقاً معك، لكن أمك مرضت. . . لم أملك الشجاعة لإخبارك بذلك. لكن علينا فعل شيء الآن. لا أستطيع الاستمرار في ذلك إلى الأبد».

«لا أريد فعل أي شيء»، قالت بعناد، وهي تفلت يديه وتمسح دموعها بيديها. «أريد أن أبقى زوجتك حتى النهاية».

«لن أسمح لك بفعل ذلك. ليس هذا عادلاً لك». كانت مصدومة جداً لتدرك أنه لا يريد قضاء آخر أيامه معها، إنه أقسى رفض عرفته. أخذ جوشيا نفساً عميقاً حينها ليقول لها البقية. «تحدثت إلى محاميّ سراً. رتّب لنا طلاقنا. سنفعل ذلك بأكبر هدوء ممكن. وإذا سأل أحدهم، يمكنك أن تقولي إنني كنت زوجاً مريعاً وتخلصتِ مني».

«لكنني لا أريد التخلص منك». بكت بقوة، وتشبثت به مجدداً. وعرفا أن الزنى سيكون الأساس الوحيد للطلاق، وإذا طلّقها، فسيظن الناس أنها كانت غير مخلصة ولا تريد الطلاق منه، ولن تفعل. عرف ذلك هو أيضاً. إذا أراد تحريرها، لأجلها هي، عليه أن يطلّقها، كي لا تستطيع الرفض. «ألا يمكننا البقاء متزوجين؟»، سألت وهي تبدو خائفة، فيما هزّ رأسه. كان مصمماً، وما من شيء سيبدّل قراره. عرفت كيف يكون حين يصبح هكذا. إنه رجل يسهل العيش معه في معظم الأوقات، إلا حين تنتابه الكآبة بين الحين والآخر، والعناد الذي يقول إنه ورثه عن والده.

قال بهدوء: «لا يمكننا البقاء متزوجين، آنابيل، يمكننا تجربة إبطال زواجنا، ولكن من دون أن نقول السبب، وسيكون ذلك محرجاً لكلينا. وبعد عامين، لست واثقاً حتى من أننا نستطيع فعل ذلك. الأمر أكثر سهولة وبساطة إذا تطلّقنا. أريدك أن تكوني حرة لتمضي قدماً في حياتك بأسرع ما يمكن. أدين لك بذلك على الأقل. عليك أن تعثري على رجل آخر، وأن تتزوجي، وتحصلي على الحياة التي تستحقينها».

قالت وهي تبكي: «لكنني لا أريد المضي قدماً والزواج بشخص آخر».

«تريدين الأولاد، وقد أمرض، وأبقى معتلاً طوال سنوات. لا أريد أن أبقيك مرتبطة بي، وتبددين حياتك طوال كل هذه السنوات». إنه يجبرها على التخلي عنه، بحيث يستطيع الذهاب بعيداً، وهذا شيء لا تريده. لا تريد سواه. إنها تحبه مثلما فعلت منذ البداية. ليست غاضبة منه، وإنما محطمة الفؤاد مما قاله. وآخر شيء تريده هو الطلاق.

أصرّ جوشيا «عليكِ الإصغاء إليّ، أعرف ما هو مناسب. ارتكبتُ خطأ فظيعاً، وعلينا تصحيحه الآن. يمكننا الطلاق في كنتاكي، لكن هذا التصرّف ينمّ عن الجبن والغباء. من المنطقي أكثر فعل ذلك في نيويورك لأننا نعيش هنا. لن يعرف أحد بالتفاصيل. سنقيم دعوى خاصة، ونتكتم عليها». أخذ نفساً عميقاً حينها. «سأعود إلى المدينة غداً لرؤية محاميّ مجدداً. ثم سأذهب بعيداً. سأذهب إلى مكسيكو لبعض الوقت».

«متى ستعود؟»، سألت آنابيل بضعف. بعد خسارة الجميع، ها هي الآن تخسره.

«ليس قبل وقت طويل»، قال وهو يبدو أقسى مما أراد، من دون أن يريد قول «أبداً». لكنه أرادها أن تقبل انتهاء العلاقة بينهما. كان يفترض ألا تبدأ من الأساس، لكنه يريد الآن إنهاءها بسرعة. بدا هذا أكثر لطافة بالنسبة إليه. لكن النظرة على وجه آنابيل أظهرت أنه غير محق. بدت محطّمة تماماً من كل شيء قاله، خصوصاً وأنه سيتركها في اليوم التالي.

لا تستطيع أن تتخيل كيف ستعيش من دونه. ستكون وحيدة تماماً في العالم حين يغادر، فهي لا تملك أحداً. لا أهلاً ولا أخاً.

«ألا يمكننا البقاء متزوجين؟»، سألت بتوسل فيما بدت مثل طفلة صغيرة. «لن يختلف الأمر عما كان قبلاً».

«بلى يختلف. تعرفين الحقيقة الآن، وأنا أيضاً. أحتاج إلى تحريرك، آنابيل. أدين لك بهذا على الأقل. لقد بدّدتُ سنتين من حياتك». لكنه في الحقيقة لم يبدد سنتين من حياتها بل دمرها. لا تملك شيئاً الآن باستثناء إرثها. لم تعد تملك حتى منزلاً في المدينة. عليها النزول في فندق. لا

تستطيع حتى الإقامة في شقته إذا تطلّقا. لكنه فكر في ذلك أيضاً. «يمكنك البقاء في الشقة حتى تحصلي على حقوقك، وتقرري ما تريدين فعله. سأغيب لبضعة أيام». لقد أعدّ هو وهنري خططهما.

قالت بضعف: «أتمنى لو لم أبع المنزل». لكنهما عرفا أن ذلك كان تصرفاً صحيحاً. إنه منزل كبير جداً عليها، ولا تستطيع البقاء هناك لوحدها، خصوصاً كامرأة غير متزوجة. تحتاج إلى منزل أصغر لنفسها. وكان واثقاً من أنها ستتزوج مجدداً خلال وقت قصير. إنها فتاة جميلة وعمرها واحد وعشرون عاماً فقط. وتملك كل براءة ونضارة الشباب. لم يفسد ذلك على الأقل، بالرغم من أنها شعرت وكأنها كبرت عشر سنوات خلال الساعة الماضية. وقف حينها ووضع ذراعيه حولها. عانقها، لكنه لم يقبّلها. الكذبة التي حبكها حولها انتهت الآن. لم يعد ينتمي إليها، ولم يفعل أبداً. لقد أحبها ولكن لم يكن ليسامح نفسه لو نقل العدوى إليها أيضاً. فما فعله سيئ كفاية. شعر أنه مريع بسبب كذبه عليها طوال هذا الوقت. والأسوأ من ذلك أنه كذب على نفسه. لقد أحبها، لكن وعود الزواج كانت فارغة ولم تعنِ أي شيء.

أوصلها إلى غرفتها، لكنه رفض البقاء معها تلك الليلة. قال إن هذا لم يعد ملائماً. نام في غرفة الضيوف في الطابق السفلي، فيما استلقت هي على سريرها وبكت طوال الليل. في النهاية، نزلت إلى الأسفل وحاولت الاستلقاء على السرير إلى جانبه، كي يمسكا فقط ببعضهما، لكنه لم يسمح لها. أرسلها مجدداً إلى غرفتها في الطابق العلوي، وشعر وكأنه وحش، وبعدما ذهب، استلقى على سريره وبكى. لقد أحبها فعلاً، وتحطّم قلبه على فراقها، لكنه شعر أنه لا يملك خياراً آخر. عرف كم تأثرت بسبب ما لم يحصل بينهما، ولا يريدها معه الآن فيما تتدهور صحته ببطء أو بسرعة، إلى أن يموت في النهاية. بدأ المرض يتطور بسرعة، تناول علاجات الزرنيخ، ولم يساعد ذلك أبداً. أرادا الابتعاد عن نيويورك الآن، وعن كل الذين يعرفونه، بسبب ما سيحصل لاحقاً. لقد حان الوقت لترك أنابيل والسماح لها ببدء حياة جديدة. عرف أنه مع الوقت، حين تتكيف

مع المسألة، ستفهم أنه كان محقاً.

وقفت تبكي على الدرج الأمامي حين غادر في اليوم التالي. كانت ترتدي الأسود على أمها، وبدت في حالة مأساوية حين ابتعد. تركها هو أصعب شيء فعله لغاية الآن، وشعر بالقرف، وبكى بشدة طوال طريق العودة إلى نيويورك. لو قتلها بيديه، لما كان الأمر أصعب من ذلك، ولما شعر بسوء أكبر.

الفصل الثاني عشر

لم ترَ آنابيل أحداً بعدما غادر جوشيا. عرفت بلانش أن شيئاً مريعاً قد حصل، لكنها لم تجرؤ على السؤال. بقيت آنابيل في غرفتها، وأخذت وجبات الطعام على صينية لكنها بالكاد لمستها. مرة في اليوم، كانت تخرج للقيام بنزهة على الشاطئ، لكنها لم ترَ أحداً ولم تتحدث إلى أحد. جاءت هورتي للزيارة بعد ظهر أحد الأيام، لكن آنابيل رفضت رؤيتها. طلبت من بلانش إخبارها أنها مريضة. كانت آنابيل محطّمة الفؤاد لترى حتى صديقتها المفضلة، وشعرت بالكثير من الخجل لإخبارها أنها ستطلّق، بالرغم من أن الغلطة ليست غلطتها، ولا تستطيع قول السبب. الحقيقة تفوق التصور وأرادت حماية جوشيا. شعرت بالكثير من الخوف كلما فكرت أنها لن تراه مجدداً.

عرفت أنه حين يسمع الناس بخبر الطلاق، لن يصدقها أحد، وسيصدم جميع من في نيويورك ونيوبورت. تساءلت لكم من الوقت ستحتاج أخبار الطلاق إلى الانتشار. بسبب حدادها على أمها، لا يفترض بها الخروج، لكن الناس سيجدون غرابة في عدم رؤية جوشيا أبداً. شكّت بلانش أصلاً في ما حصل، بالرغم من أنها اعتقدت أنه شجار بين حبيبين، ولم تعرف أن الأمر انتهى بالطلاق. تهامست هي ورئيس الخدم أن جوشيا أقام على الأرجح علاقة خارج الزواج، لكن لم يشك أحد أن زواجه بآنابيل انتهى. حاولت بلانش إخبارها أن كل شيء سيكون على ما يرام، لكن كل ما فعلته آنابيل هو البكاء، وهزّ رأسها. لن يكون أي شيء على ما يرام مجدداً.

وصل محامي جوشيا لرؤيتها في شهر يوليو. استقال جوشيا من منصبه في المصرف، وغادر إلى المكسيك. أرسل لها جوشيا رسالة قبل أن يغادر، ليعتذر منها مجدداً. قال إنه سيتحمل ذنب ذلك طوال حياته،

وأكّد لها أن حبه لها كان صادقاً. جرى التقدم بطلب الطلاق في نيويورك، وأحضر لها المحامي نسخة عن الأوراق. الأساس الوحيد الذي استطاع ذكره هو خيانتها، مما هزّها في الصميم حين قرأته. لقد عرفت ذلك، لكن رؤيته كانت أسوأ. أخبرت جوشيا أنها لن تطلب الطلاق، ولذلك لم يملك جوشيا أي خيار سوى فعل ذلك بنفسه.

قالت مع نظرة خوف إلى المحامي: «سيظن الجميع أنني خدعته». لكنه هزّ رأسه. أملت ألا يذكر جوشيا ذلك، لكنه فعل على اعتبار أنه الأساس الوحيد الموجود.

طمأنها المحامي «لن يطّلع أحد على هذه الأوراق، لم يكن هناك خيار آخر، لأنك لم تقبلي بطلب الطلاق بنفسك». إنها تفضل الموت على ذلك. فهي تحبه.

لكن تبين أن ثقة جوشيا ومحاميه بالنظام لم تكن في محلها. فقد باع كاتب في المحكمة نسخة عن أوراق الطلاق إلى الصحف، وفي شهر أغسطس نُشر خبر مفاده أن جوشيا طلب الطلاق بسبب الزنى. بضربة واحدة، تحطمت حياة آنابيل وسمعتها. بين ليلة وضحاها، أصبحت امرأة منبوذة.

كانت لا تزال في نيويورك حين سمعت الخبر من مصرف والدها، وانتشر الخبر مثل النار في الهشيم. كان جميع من في نيويورك يتحدثون عن طلاق جوشيا وآنابيل. احتاجت إلى أسبوعين كاملين للتحلي بالشجاعة وزيارة هورتي للتحدث عن ذلك، وحين فعلت، تعرضت لصدمة أخرى. فبدلاً من السماح لها بالصعود مباشرة إلى غرفة هورتي، حيث كانت مستلقية على سريرها مثل العادة، دفعها رئيس الخدم إلى غرفة الرسم، فيما خرجت والدة هورتي من الغرفة، ومرّت أمامها مع عبوس ونظرة ازدراء. لم تقل أي كلمة لآنابيل، ومضت عشر دقائق أخرى قبل أن تظهر هورتي، وهي تبدو أضخم بكثير من آخر مرة رأتها فيها آنابيل. بدت عصبية جداً ولم تجلس. وقفت بدلاً من ذلك تنظر إليها بانزعاج فيما تلألأت الدموع في عيني آنابيل، وأدارت هورتي وجهها بعيداً، وزعمت أنها لم ترها.

قالت آنابيل بيأس: «أفترض أنك سمعت الأخبار. الجميع فعلوا». ومسحت أنفها بمنديل مطرز كان يخص أمها. كانت تحمل مظلتها الشمسية أيضاً، إذ جاءت سيراً على قدميها من المنزل في يوم حارّ على نحو غير اعتيادي.

قالت هورتي بصوت مخنوق: «لم أكن أعرف أنه يوجد شخص آخر». ولم تتقدم أبداً نحو صديقتها، ولم تقل أي شيء لمواساتها. وقفت مثل التمثال أمام آنابيل في الجهة المقابلة من الغرفة، وأبقت ذراعيها على جانبيها.

قالت آنابيل بوضوح: «لا يوجد، ولم يوجد أبداً، لكن الزنى هو السبب الوحيد المسموح به للطلاق. أراد جوشيا الطلاق، وأنا لم أرد. ظن أنه من الأفضل... لا يستطيع... لا يريد...». امتزجت كلماتها مع بكاء مختنق. لا تعرف كيف تشرح الأمر، لأن أي شيء لن يجعل ما حصل منطقياً، ولا تستطيع قول الحقيقة، حتى لأفضل صديقة لديها. لا تريد خيانته، مهما كانت خيانته لها كبيرة. لا تستطيع فعل ذلك به. سيتحطم إلى الأبد إذا قالت الحقيقة، ولم تملك الشجاعة لإخبار هورتي أنها لا تزال عذراء، ولذلك جلست على الكرسي وبكت. ولا مجال أبداً لتخبرها بمرضه المريع. قالت آنابيل بيأس: «لا أعرف ماذا أفعل، أريد أن أموت». ظنت هورتي خطأً أن حزنها هو إحساس بالذنب. قالت أمها إنها تستحق كل شيء فعله بها جوشيا، وإن رجلاً بمستواه لا يطلّق أبداً امرأة من دون سبب، وإن هورتي تستطيع الاطمئنان أن كل ما فعلته آنابيل لا يغتفر. وإلا لبقي متزوجاً بها. وإذا طلّقها بسبب كونها زانية، فلا شك في أنها هكذا. قالت إنها تشعر بأسف كبير على جوشيا، وليس على آنابيل أبداً، التي ربما نالت ما تستحقه. وأخبر جايمس زوجته هورتي بوضوح أنه يمنع عليها رؤية آنابيل مجدداً. لا يريد أن يؤثر شرّها في زوجته.

قالت هورتي بانزعاج: «أنا آسفة جداً لحصول ذلك، لا بد أنك ارتكبت خطأً فظيعاً». حاولت أن تتعاطف معها، لكنها رأت أن أمها محقة. جوشيا رجل لطيف جداً للاستخفاف بمثل هذا الأمر. فكي يطلّق آنابيل، ويترك

وظيفته، ويغادر المدينة، لا بد من أنها تصرفت بشكل مهين. لم تظن أبداً أن آنابيل قادرة على ذلك، لكن تبين أنه لا يمكنك معرفة حقيقة حتى أفضل أصدقائك. خاب أملها كثيراً فيها، ومن دفق الدموع الذي سكبته آنابيل، لاحظت كم تشعر بالذنب. أمها وجايمس على حق.

قالت آنابيل فيما بكت بقوة: «لم أرتكب خطأ». بدت وشعرت مثل فتاة مهجورة، وصدمت لأن هورتي لم تكن ألطف معها، بعد كل ما عاشتاه معاً منذ أيام الطفولة. بدت هورتي بعيدة جداً وباردة جداً.

قالت هورتي ومشت نحو الباب: «لا أظن أنني أريد أن أعرف ماذا حصل، أنا آسفة، لكن عليك الذهاب. قال جايمس إنني لا أستطيع رؤيتك مجدداً. وداعاً آنابيل. عليّ الصعود إلى الأعلى والاستلقاء. لا أشعر بالارتياح». عندئذ، خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب وراءها، من دون كلمة أخرى. جلست آنابيل تحدق إليها، عاجزة عن تصديق ما حصل. كانت ترتجف بشدة حين وقفت، وخرجت من المنزل، وتوجهت إلى منزلها. فكرت في رمي نفسها في البحر وقتل نفسها، لكنها لم تملك الشجاعة لفعل ذلك. أرادت ذلك، لأنها بهذا الأمر تستطيع رؤية والديها وروبرت مجدداً، وهي واثقة من ذلك. لا تصدق أن هورتي تخلّت عنها أيضاً، وقالت إنها لا تريد رؤيتها مجدداً. وأدركت حينها أن الجميع سيفعلون الشيء نفسه. كل باب في نيوبورت ونيويورك سيغلق في وجهها، حين تخرج من المنزل مجدداً.

أغلقت آنابيل الباب وراءها بقوة حين دخلت إلى منزلها، وصعدت إلى الأعلى إلى غرفتها. ألقت بنفسها على السرير، وكانت مصدومة جداً حتى للبكاء. كانت لا تزال مستلقية هناك حين دخلت بلانش إلى الغرفة، وتحدثت بهدوء إلى المرأة التي عرفتها منذ كانت طفلة.

«أعرف أنك لم تفعلي ما يقولونه، آنسة آنابيل. رأيتك كل يوم تقريباً، طوال حياتك. أعرف أنك كنت زوجة جيدة له. لا أعرف ماذا حصل بينكما، لكنني أعرف أنه لا علاقة لك أنتِ بالأمر». عندئذ، تقدمت ووضعت ذراعيها حول آنابيل وبكتا معاً. لا تستطيع آنابيل إخبارها السبب

الحقيقي للطلاق، لكن بلانش تعرف على الأقل أنها غير قادرة على فعل ما اتُهمَت به. وفيما بكتا وتعانقتا، اشتاقت آنابيل إلى أمها أكثر من أي وقت مضى. لا تستطيع أن تتخيل كيف ستكون حياتها الآن. رفضت طلاقه، وظن هو أنه ينقذها من قدر أسوأ فنعتها بالزانية إلى الأبد.

شعرت تماماً بمعنى ذلك في الأسابيع الأخيرة من شهر أغسطس، فيما شارف موسم الصيف على الانتهاء. ذهبت إلى المتجر مرات عدة، وإلى مكتب البريد، وكلما فعلت ذلك، كان الأشخاص الذين يصادفونها يستديرون بعيداً، ويرفضون التحدث إليها. نظر إليها الرجال بطريقة مشمئزة، فيما نظرت إليها النساء بتمعن. لقد أصبحت المرأة المنبوذة التي حذرت جوشيا من أنها ستكونها بعد أن يطلب الطلاق. ظن أن هذا سيكون أفضل لها، وحررها بدافع الحب والندم، لكنه حكم عليها بالإعدام نتيجة نبذها من عالمها. لقد حُرمت من عالمها. عرفت أن حياتها انتهت في نيوبورت ونيويورك، وأنه لن يتم قبولها أبداً مجدداً في المنازل المحترمة أو في الاجتماعات اللائقة. ستبقى إلى الأبد الزانية التي طلّقها جوشيا ميلبانك. كان في وسعه حتى شنقها. المرأة المحترمة التي كانت على الدوام ماتت الآن.

الفصل الثالث عشر

عادت آنابيل إلى نيويورك في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر، وتركت بلانش ووليام وبعض الخدم الآخرين في منزل نيوبورت. لم يعد منزل أهلها، وإنما منزلها. أعادت معها توماس إلى نيويورك، وتنوي بيع كل سيارات والدها باستثناء سيارة واحدة.

مكثت في شقة جوشيا، وعرفت أنه عليها العثور على منزل، لكنها لا تعرف أين تبدأ أو كيف تفعل ذلك، وعرفت أن جوشيا لن يعود قريباً، إذا عاد أصلاً. قال إنه سيغيب لأشهر عدة، أو أكثر، ولم تسمع عنه أي شيء منذ أن غادر إلى مكسيكو. لقد تخلى عنها تماماً، مثلما فعل الجميع. وظن جوشيا أنه فعل ذلك لصالحها.

عادت للعمل في مستشفى إيليس آيلند بينما حاولت أن تعرف ما يجب عليها فعله. لا يزال الناس يأتون من أوروبا، بالرغم من أن البريطانيين زرعوا الألغام في الأطلسي، ولا يزال الألمان يغرقون السفن. كانت تتحدث إلى امرأة فرنسية ذات يوم وتخبرها عن تجاربها حين عرفت آنابيل ما يجدر بها فعله. إنه الشيء الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه، وكان هذا منطقياً أكثر من البقاء في نيويورك، والتعرض لذلّ جميع الذين تعرفهم. لا تهتم الآن إذا ماتت وهي تعبر الأطلسي، أو حين تصبح في أوروبا. في الواقع، ستركّب بتحريرها من القدر الذي رسمه لها جوشيا نتيجة الطلاق.

تحدثت إلى أشخاص عدة في مستشفى إيليس آيلند عما يجب عليها فعله. أعطاها الطبيب الذي عملت معه رسالة، كشهادة على مهاراتها، وتنوي استعمالها في مستشفى في باريس. أخبرها عن مستشفى جرى تأسيسه في آسنيار سور واز قرب باريس، وتعمل فيه النساء فقط. جرى

تأسيسه العام الفائت من قبل امرأة اسكوتلندية، هي الدكتورة إلسي إينغليس، التي اقترحت فعل الشيء نفسه في إنكلترا لكن تم رفض طلبها. رحّبت بها الحكومة الفرنسية، واهتمت شخصياً بتأسيس المستشفى، باستعمال وحدات النساء الطبية لتشكيل طاقم المستشفى، من الطبيبات والممرضات، مع عدد قليل جداً من الأطباء الذكور. وشجعها الطبيب صديق آنابيل في مستشفى إيليس آيلند على الذهاب إلى هناك بعدما أخبرته بمشاريعها.

إلسي إينغليس هي امرأة واسعة الأفق، درست الطب في كلية إدينبورغ الطبية للنساء. أسست كليتها الطبية الخاصة، وعلّمت في المستشفى الجديد للنساء. والطبيب الذي أحال آنابيل إليها كان واثقاً من أن أي مؤسسة طبية تديرها إينغليس ستكون حتماً سليمة طبياً ومتازة الأداء. وحسب الأخبار التي سمعها الطبيب، تبين أنهم ينجزون عملاً رائعاً في الاهتمام بالجنود المصابين الذين يتم إحضارهم من المستشفيات الميدانية في الجبهات. كل شيء سمعته آنابيل عنها دفعها إلى التأكد أنها تريد الذهاب إلى هناك، وسيتم على الأرجح الترحيب بها كثيراً هناك. لا تهتم إذا قادت سيارة إسعاف أو عملت في المستشفى. مهما احتاجوا منها، ستكون راغبة بفعله.

لا تملك الآن أي سبب للبقاء في الولايات المتحدة. لا تملك منزلاً، أو أقارب، أو زوجاً، وحتى صديقتها المفضلة قالت إنها لا تستطيع رؤيتها مجدداً. سيكون أصدقاء أهلها وأصدقاء جوشيا مصدومين أكثر. وبما أنه غادر المدينة، سيفترض الجميع أنها حطّمت قلبه. تمت إهانتها بكل طريقة ممكنة، ولن يعرف أحد أبداً حقيقة ما حصل. لا تملك أبداً أي سبب للبقاء وإنما لديها كل الأسباب للمغادرة.

أمضت آنابيل الأيام القليلة التالية وهي توضّب كل شيء أرادت إرساله للتخزين، وحصلت على جواز سفر جديد إذ إنها لم تسافر منذ ستة أعوام، حين كان عمرها ستة عشر عاماً. حجزت مكاناً لها في باخرة ساكسونيا المتوجهة إلى فرنسا، واشترت بعض الثياب العملية لارتدائها حين تصل إلى هناك. لم تعد تحتاج إلى الكشاكش أو الأناقة، وتركت كل مجوهراتها ومجوهرات أمها في خزنة في مصرف والدها، وأنجزت الترتيبات المالية

التي تحتاج إليها في أوروبا. لم تخبر أحداً بما كانت تفعله، وفي نهاية شهر سبتمبر عادت مجدداً إلى نيوبورت لوداع بلانش وبقية الموظفين. سيبقى خمسة منهم في المنزل في فصل الشتاء، للاهتمام به والاعتناء بالحديقة. هذا كافٍ، نظراً إلى حجم المنزل، ولكنه ليس عدداً كبيراً. أخبرت بلانش بما تقوم به وأنها قد لا تعود قبل فترة طويلة.

بكت المرأة العجوز على كل ما حصل، ورثت قدر سيدتها الشابة، والأشياء المريعة التي قد تحصل لها في فرنسا. أدركوا جميعاً أنها قد لا تبقى حية خلال الرحلة، نظراً إلى حقول الألغام والغواصات الألمانية التي تجوب البحار والمحيطات. كانت بلانش مدركة تماماً أن آنابيل لا تهتم. لا تملك شيئاً لتخسره أو أحداً لتعيش من أجله. على الأقل، قد تؤدي صنيعاً ما على الجبهة. ستأخذ معها كل كتبها الطبية، ظناً منها أنها قد تحتاج إليها، وحين غادرت نيوبورت مجدداً بعد يومين، بكوا جميعاً فيما لوحوا لها مودّعين، متسائلين ما إذا كانوا سيرونها مجدداً.

عند العودة إلى نيويورك، ذهبت آنابيل لوداع الطبيب والممرضات الذين عملت معهم في مستشفى إيليس آيلند، وبعض مرضاها الذين مكثوا لفترة طويلة في المستشفى، ولا سيما الأولاد. أسف الجميع لرحيلها، ولم تشرح السبب. أخبرت الطبيب المسؤول أنها تطوعت للعمل في مستشفى ميداني في فرنسا. تحطّم قلبها عند الوداع.

أرسلت كل مقتنياتها في منزل جوشيا للتخزين، ولم تترك معها سوى الحقائب التي ستأخذها معها، وفيها الملابس العملية التي اشترتها للرحلة، وعدد من السترات والمعاطف. نجحت في توضيب كل شيء في ثلاث حقائب كبيرة، وكانت تنوي البقاء في حجرتها في أثناء الرحلة، ولذلك لم تأخذ معها أي ملابس سهرة. حصلت على جواز سفرها وحجزها للرحلة باسمها الخاص وليس باسم جوشيا. وفي يومها الأخير في نيويورك، ذهبت للقيام بنزهة طويلة، ومرّت أمام منزل أهلها. إنه الشيء الوحيد الذي بقي لها لوداعه. وقفت هناك لبرهة طويلة، تفكر في كل ما خسرته، وحين فعلت، لاحظت أحد جيرانهم القدامى يخرج من سيارته ويلاحظها ويوجه إليها نظرة

شريرة. أدار ظهره لها من دون أن يلقي التحية عليها، وصعد على درج منزله، وأغلق الباب بقوة. حين عادت إلى شقة جوشيا، تفكر في الأمر، أدركت أن كل ذلك يقوّي عزيمتها. لم يبقَ لديها أي شيء في نيويورك.

قام توماس بإيصال أنابيل إلى حوض كونارد في صباح اليوم التالي، في الوقت المناسب لوضع حقائبها الثلاث على متن الباخرة. باخرة الساكسونيا هي باخرة كبيرة عمرها خمسة عشر عاماً مخصصة للركاب والشحن، مع أربع صوارٍ كبيرة وقناة مركزية طويلة. تم تشييدها لتستوعب أعداداً وأحجاماً كبيرة وليس على أساس السرعة، وستعبر الأطلسي بسرعة خمس عشرة عقدة. ليست سفينة فخمة، وإنما مريحة، ومربحة مادياً بالنسبة إلى الشركة بسبب الشحن الذي خفف مساحة الركاب كثيراً. وتم إلغاء الدرجة الأولى بالكامل بعد اندلاع الحرب. ليست حتماً فخمة بقدر السفن الأخرى التي سافرت على متنها أنابيل قبلاً مع أهلها، لكنها لا تبالي، وحجزت واحدة من أكبر الغرف في الدرجة الثانية.

رافقها بحاران شابان إلى حجرتها، وعانقها توماس بحنان حين ودّعها. سيضع سيارة والدها في مرأب مستأجر، وقد طُلب من المصرف بيعها. بدأ توماس البحث عن وظيفة أخرى، لأن أنابيل لا تعرف متى ستعود.

كان لا يزال يقف أمام الحوض، يلوّح لها، فيما ابتعدت السفينة ببطء عن الميناء بعد نصف ساعة. بدا الناس على متنها حزينين لأنهم يعرفون المخاطر التي قد يتعرضون لها بسبب عبور الأطلسي. لكن المسافرين يملكون سبباً وجيهاً لذلك. لم يعد أحد يعبر هذه المياه للتسلية. أصبح الأمر أكثر خطورة مع اندلاع الحرب في كل أوروبا.

بقيت أنابيل على سطح الباخرة إلى أن اختفى تمثال الحرية. رأت مستشفى إيليس آيلند، وشعرت بوجع في قلبها، ثم عادت إلى حجرتها. أخرجت أحد كتبها الطبية، وبدأت تقرأه، محاولة عدم التفكير في ما قد يحصل إذا تعرضوا للقصف. إنها أول رحلة لها عبر المحيط بعد موت والدها وأخيها في التايتانيك، وشعرت بالتوتر فيما استمعت إلى هدير

السفينة، متسائلة عن مدى قرب الغواصات من السفن الأميركية واحتمال مهاجمتها. جميع من كانوا على متن الباخرة راودتهم الأفكار نفسها.

تناولت العشاء لوحدها في حجرتها، واستلقت مفتوحة العينين في سريرها تلك الليلة، متسائلة ما إذا كانوا سيصلون بأمان، وماذا ستصادف حين تصل إلى فرنسا. إنها تنوي الذهاب مباشرة إلى المنطقة التي قيل لها إنها تحتاج كثيراً إلى خدماتها. بما أن أميركا لم تشارك في الحرب في أوروبا، لا مجال أبداً لأنابيل للتطوع في الولايات المتحدة، بالرغم من أنها تعرف أقارب لها من آل أستور موّلوا مستشفى ميدانياً فيما تطوع أحد أقاربها من آل فاندربيلت للعمل. لكن بعد انتشار أخبار الطلاق، لم تجرؤ على الاتصال بأيّ منهم. ستشق طريقها بنفسها حين تصل إلى فرنسا. عليها أن تكتشف ذلك هناك.

بعد وصولها إلى المستشفى الذي تقصده، ستفعل كل ما يطلب منها. إنها ترغب بقبول أبسط المهام الممكنة، لكن حسب كل ما سمعته، كانت الخنادق مليئة بالجرحى، والمستشفيات تضجّ بهم. كانت واثقة من أن أحداً سيطلب منها العمل، إذا نجحت في البقاء على قيد الحياة خلال الرحلة.

تعلمت كثيراً من الأطباء والممرضات في مستشفى إيليس آيلند وهي تتابع قراءة ودراسة كتبها الطبية كل يوم. وحتى لو لم يسمحوا لها إلا بقيادة سيارة الإسعاف، تعرف على الأقل أنها ستكون مفيدة أكثر من الاختباء في نيويورك من نظرات الأشخاص الذين كانوا مألوفين قبلاً لكنهم طردوها الآن من عالمهم.

بالرغم من أن نية جوشيا كانت جيدة، فإن كل احترامها وسمعتها وقدرتها على استهلال حياة جديدة تدمرت نتيجة الطلاق. لم يفهم. الأمر أشبه بحكم على جريمة لن تنال الصفح عنها أبداً. عقوبتها ستستمر إلى الأبد، وذنبها مؤكد في نظر الجميع. ومهما كانت الظروف، لن تفشي أبداً بسرّ جوشيا. لقد أحبته كثيراً لفعل ذلك به، وما يخفيه مثير للصدمة أكثر من طلاقهما. لا تزال تحبه. سيموت سره معها. ومن دون أن يقصد ذلك، ضحّى بها.

ارتاحت للذهاب إلى فرنسا، حيث لا يعرفها أحد. في البداية، لم تعرف ما إذا كانت ستقول إنها أرملة أو لم تتزوج أبداً. لكن إذا عرف أحدهم جوشيا، وهذا محتمل حتى في أوروبا، سيعرفون أنه على قيد الحياة وأنها كاذبة، مما يزيد الأمور سوءاً. في النهاية، قررت القول إنها لم تتزوج أبداً. الأمر أبسط بهذه الطريقة إذا التقت بأي شخص يعرفه. إنها آنابيل ورثينغتون مجدداً، كما لو أن العامين اللذين أمضتهما مع جوشيا لم تمرّ بهما أبداً، بالرغم من أنها عاشتهما برفقته فعلاً، وأصبحت تحبه كثيراً خلالهما. هي تحبّه كفاية لمسامحته على كل الزلات التي لا يقصدها، والمرض الذي سيقتله في النهاية.

قالت لنفسها، فيما شقّت السفينة طريقها عبر الأطلسي بهدوء في الليلة الأولى، إنها ستقتل في فرنسا ولن تعاني من أي خسارة أخرى. عرفت أنه حتى بعد طلاقها، حين يموت، سيتحطم قلبها مجدداً. كل ما أرادته هي الحياة معه، وزواج سعيد، وإنجاب أولاد منه. لم تعرف هورتي كم هي محظوظة لحصولها على زوج، وإنجابها كل أطفالها. لم تنجب آنابيل الأطفال أيضاً. إنها منبوذة ومهجورة من الجميع. رَفضُ هورتي الاستماع إليها أثر فيها كثيراً بعد هجر جوشيا لها. والمهم بالنسبة إلى آنابيل، فيما شقت الساكسونيا طريقها بحذر في المحيط الأطلسي للوصول إلى فرنسا، أنها باتت وحيدة تماماً في العالم. إنها فكرة مرعبة بالنسبة إلى امرأة شابة بقيت محمية طوال حياتها، أولاً من قِبَل عائلتها، وبعدها من قِبَل زوجها. وقد رحلوا الآن جميعاً، بالتزامن مع خسارتها اسمها وسمعتها الجيدة. سيتم اعتبارها زانية إلى الأبد. فيما فكرت في ذلك مجدداً، انهمرت الدموع من عينيها على الوسادة.

لم تصادف السفينة أي مشاكل تلك الليلة. ضاعفوا المراقبة للانتباه من الألغام. لا يعرف أحد أين توجد هذه الألغام أو كم تجرؤ الغواصات الألمانية على الاقتراب من اليابسة. تمّ شرح عملية الإنقاذ في قوارب النجاة للركاب خلال الساعة الأولى من الإبحار. عرف الجميع أين توجد قوارب النجاة، وكانت سترات النجاة معلّقة على مرأى من الجميع في الحجرات.

في أيام السلم، كانت سترات النجاة تحفظ في أماكن لا يراها الركاب، لكن بعد غرق سفينة لوسيتانيا في شهر مايو، لم تعد شركة كونارد تجازف أبداً. تم الانتباه إلى كل تدابير الوقاية الممكنة، لكن هذا زاد من جوّ التوتر في الرحلة.

لم تتحدث آنابيل إلى أحد. نظرت إلى لائحة الركاب، ولاحظت أن هناك اثنين من معارف أهلها على متن السفينة. وبسبب الفضيحة التي أحدثها طلاقها من جوشيا في نيويورك، لم تشأ أبداً رؤيتهما، أو التعرض لإهانتهما أو لأمر أسوأ. فضّلت البقاء في حجرتها معظم اليوم، والخروج للقيام بنزهة على متن الباخرة عند هبوط الليل، حين يبدّل الآخرون ملابسهم لتناول العشاء. تناولت العشاء لوحدها كل ليلة في حجرتها. بالرغم من الكتب التي أحضرتها معها للتسلية، تذكرت كثيراً موت والدها وأخيها على متن التايتانيك. كما أن قصص غرق الباخرة لوسيتانيا كانت أسوأ. شعرت بالتوتر والقلق معظم الوقت، وبالكاد نامت، لكنها قرأت كثيراً خلال ساعات استيقاظها الطويلة.

حاولت المضيفة التي تهتم بغرفتها عبثاً إقناعها بالذهاب إلى غرفة الطعام لتناول العشاء. ودعاها القبطان لتناول العشاء على مائدته في الليلة الثانية. إنه شرف كبير يتحمس له معظم الركاب، لكنها أرسلت له جواباً مهذباً واعتذرت، زاعمة أنها ليست بخير. كان البحر مائجاً قليلاً ذلك اليوم، ولذلك يمكن التصديق أنها متوعكة إذا لم تكن معتادة على البحر، لكنها ليست كذلك. بقيت على ما يرام طوال الرحلة.

تساءل المضيف والمضيفة اللذان كانا يقومان بخدمتها ما إذا كانت تتعافى من خسارة من نوع ما. إنها شابة وجميلة، لكنها حزينة جداً ولاحظا الأسود الذي لا تزال ترتديه حداداً على أمها. تساءلا إذا كانت أرملة، أو خسرت ولداً. كان واضحاً أن شيئاً ما حصل لها. بدت مأساوية ورومنسية فيما راقبت غروب الشمس خلال نزهاتها المتأخرة بعد الظهر. وقفت تنظر إلى المياه، تفكّر في جوشيا، متسائلة ما إذا كانت ستراه مجدداً.

في أغلب الأحيان، حين كانت تعود إلى حجرتها، المؤلفة من غرفة

جلوس كبيرة وغرفة نوم، كانت تبدو وكأنها تبكي. اعتمرت غالباً قبعات كبيرة لإخفاء وجهها. لا ترغب أبداً بأن يتعرف إليها أحد أو يراها. إنها تبتعد عن عالمها، وتتخلص من قشرة الحماية التي استمتعت بها قبلاً، والهوية التي كانت جزءاً أساسياً من كل حياتها. إنها تبعد نفسها عن كل الأشياء الآمنة والمألوفة، للانخراط في حياة الخدمة على الجبهة. هذا كل ما تريده الآن.

صُدمت حين أدركت إنه باستثناء منزل أهلها الصيفي في نيوبورت، لا تملك حتى منزلاً. وضعت كل ما تملكه تقريباً في التخزين، فيما جمعت الباقي في ثلاث حقائب كبيرة، ستحملها كلها لوحدها. لم تحضر معها صندوقاً واحداً، وهذا أمر غير اعتيادي بالنسبة إلى امرأة في مقامها، مثلما علّقت المضيفة. حتى من دون الفرو أو المجوهرات أو فساتين السهرة، وإنما فقط من كلامها وتربيتها وتصرفها المهذب ورزانتها، تسهل المعرفة أن أنابيل من عائلة محترمة. شعرت المضيفة بالأسف عليها عند رؤية نظرة الحزن في عينيها كل يوم. إنهما تقريباً في العمر نفسه، وكانت أنابيل دوماً لطيفة معها.

في اليوم الرابع من الرحلة، فيما اقتربوا أكثر من أوروبا، أبطأت السفينة سرعتها. بالكاد أصبحت تتحرك في الماء، خصوصاً وأنّ قبطان المراقبة شك في شيء ما وخاف من وجود غواصة ألمانية مجاورة. قلق جميع الركاب، وكان بعضهم يرتدون سترات النجاة، بالرغم من عدم إطلاق أي جرس إنذار. للمرة الأولى، خرجت أنابيل في ضوء النهار إلى متن السفينة لمعرفة ما يحصل. شرح لها أحد المسؤولين بهدوء ما يجري حين سألته، وصُعق بجمالها المخبأ وراء القبعة. تساءل ما إذا كانت ممثلة مشهورة، تسافر بطريقة متخفية، أو شخصاً معروفاً جداً. كانت ترتدي طقماً أسود أنيقاً، وحين نزعت قفازيها، لاحظ يديها الناعمتين. طمأنها، وبقيت هي بعيدة عن حشود الأشخاص الذين تحدثوا أو جلسوا في مجموعات صغيرة، فقامت بجولة قصيرة على سطح السفينة ثم عادت إلى غرفتها.

طرق المسؤول الشاب باب حجرتها في وقت لاحق من بعد ظهر

ذلك اليوم، وفتحت الباب وهي تبدو متفاجئة. كانت تحمل كتاباً في يدها، وشعرها الأشقر الطويل منسدل فوق كتفيها. بدت مثل فتاة صغيرة وذُهل أكثر بمدى جمالها. لقد غيّرت ثيابها وكانت ترتدي قميصاً أسود وتنورة سوداء طويلة. شكّ، مثل المضيفة، في أن تكون أرملة شابة، لكنه لم يفهم سبب ذهابها إلى أوروبا. قال إنه جاء للتأكد من أنها على ما يرام، إذ كانت قلقة في وقت سابق من النهار، وما زالت السفينة تتقدم ببطء. أكدت له بابتسامة خجولة أنها بخير. ألقى نظرة لرؤية ما كانت تقرأه وتفاجأ بما رآه. إنه كتاب طبي للدكتور رودولف فيرشو وهناك ثلاثة كتب أخرى للدكتور لويس باستور والدكتور كلود برنار، أهم المراجع الطبية في ذلك الوقت، وراءها على الطاولة.

«هل تدرسين الطب؟»، سأل وهو يبدو مذهولاً بوضوح. إنه كتاب غير اعتيادي لتقرأه امرأة، وتساءل إذا كانت ممرضة. بدا الأمر غير محتمل نظراً إلى مقامها الرفيع الواضح.

«نعم... لا... حسناً، ليس تماماً»، قالت وهي تبدو محرجة. «أستمتع فقط بقراءة الكتب الطبية. إنه نوع من الشغف بالنسبة إليّ».

قال بفخر: «أخي طبيب، إنه الأذكى. أمي ممرضة». تريث، بحثاً عن أعذار للتحدث إليها. ثمة شيء غامض فيها، ولم يكفّ عن التساؤل عن سبب ذهابها إلى فرنسا. ربما لديها عائلة هناك. هذه الأيام، تضاءل عدد النساء اللواتي يسافرن على متن البواخر. «إذا كان في وسعي فعل أي شيء لك، آنسة ورثينغتون، فأرجوك لا ترددي بإبلاغي». أومأت برأسها، وهي مصدومة لسماع اسمها بهذه الطريقة للمرة الأولى منذ عامين. ليست معتادة على ذلك بعد. الأمر أشبه بالعودة إلى الطفولة والعودة بالزمن إلى الوراء. كانت فخورة جداً بكونها السيدة ميلبانك. أحزنها أن تعود الآنسة ورثينغتون مجدداً، كما لو أنها لا تستحق اسم جوشيا. اتفقا على أن تستعيد اسمها. كان في وسعه التقدم بطلب أمام المحكمة كي تحتفظ باسمه، لكنهما فكرا أنه من الأفضل ألا تفعل ذلك. من الأسهل بدء حياة جديدة الآن باسمها الخاص، بالرغم من أنها لا تزال تشتاق إلى اسمه.

قالت بتهذيب: «شكراً جزيلاً لك». انحنى أمامها احتراماً ثمّ غادر، وأغلقت الباب، وعادت إلى كتابها، ولم تخرج من غرفتها مجدداً إلا بعد هبوط الظلام. إنها متشوقة إلى الوصول. فالبقاء محتجزة في غرفتها طوال الوقت جعل الرحلة تبدو طويلة جداً. كما أن إبطاء السفينة لسرعتها زاد وقت السفر يوماً إضافياً، لكن الجميع وافقوا أنه من الأفضل توخي الحيطة والحذر، حتى لو تأخروا في الوصول.

كان اليوم التالي أكثر توتراً من اليوم الذي سبقه. ففي الصباح الباكر، اكتشف مسؤول المراقبة حقل ألغام في البعيد عند الجهة اليمنى من السفينة. أطلقت صفارات الإنذار هذه المرة، وطُلب من الجميع الصعود إلى متن السفينة كي يشرح لهم الطاقم ماذا يحصل. كانوا يرتدون جميعاً سترات النجاة، وطُلب منهم الإبقاء عليها طوال اليوم. غادرت آنابيل حجرتها من دون قبعتها، وكان يوماً مشمساً ودافئاً مع نسمة خفيفة. انسدل شعرها برفق على ظهرها، وكانت ترتدي فستاناً من الكتان الأسود. اقترب منها المسؤول نفسه الذي تحدث معها في اليوم السابق مبتسماً.

قال لها: «لا داعي للقلق، مجرد تدبير وقائي. ما زلنا بمنأى عن المشاكل. رجالنا أذكياء جداً. لمحوا حقل الألغام في البعيد». شعرت بالارتياح، بالرغم من أن الأمر مسبب للتوتر على أي حال.

من دون أن تقصد مشاركة المعلومات معه، أخبرته شيئاً من أمورها الشخصية. قالت بهدوء: «كان والداي وأخي على متن التايتانيك». وكادت ترتجف فيما قالت ذلك ثم نظرت إليه بعينين واسعتين.

قال بلطف: «أنا آسف جداً، لن يحصل مثل هذا الأمر هنا. لا تقلقي آنستي. يسيطر القبطان على كل شيء». إلا أن وجود حقل الألغام في البعيد يعني يوماً آخر من العبور البطيء للمياه. وفي اليومين المقبلين، عليهم توخي المزيد من الحذر مع اقتراب الساكسونيا من فرنسا.

في النهاية، استغرقت الرحلة سبعة أيام. وصلوا إلى ميناء لوهافر في الساعة السادسة صباحاً، فيما كان معظم الركاب لا يزالون نائمين.

سيتم تقديم الفطور عند الساعة السابعة، ويفترض أن يتم إنزال الركاب الذين يريدون أخذ القطار عند الساعة التاسعة. ستتوجه السفينة إلى ليفربول بعد ذلك، إذ استولت القوات العسكرية على مرفأ ساوثامبتون. وفي هذه الرحلة، تتوقف الباخرة في فرنسا أولاً، بسبب حقول الألغام التي أجبرتهم على تغيير المسار. كانت آنابيل على متن السفينة وقد ارتدت ثيابها حين توقفت السفينة. رآها المسؤول الشاب وجاء إليها. بدت متحمسة ومستيقظة تماماً في هذه الساعة المبكرة. إنها في أسعد حالة رآها عليها طوال الرحلة، وتساءل ما إذا كان الجانب الحزين فيها متعلق ببساطة بخوفها من التواجد على متن السفينة لأن أهلها كانوا على متن السفينة التي غرقت. كما أن حقول الألغام والغواصات الألمانية أزعجتهم جميعاً. كان الجميع سعداء بالوصول بأمان إلى فرنسا.

سألها بسرور «هل أنت سعيدة بالوصول إلى باريس؟». كان هذا واضحاً، وتساءل فجأة إذا كان لديها خطيب هناك. كانت ابتسامتها عريضة جداً فيما أومأت برأسها تحت شمس الصباح الباكر. كانت تضع قبعة، واستطاع النظر مباشرة في عينيها.

«نعم، لكنني لن أبقى لفترة طويلة»، قالت ببساطة وبدا متفاجئاً. لا أحد يأتي إلى أوروبا لوقت قصير، نظراً إلى المخاطر الموجودة، وطبعاً ليس للقيام برحلة استجمام.

«هل ستعودين؟».

«لا، لن أعود. أتمنى العمل في مستشفى شمال باريس، على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً من الجبهة».

«هذه شجاعة كبيرة من قبلك»، قال وهو يبدو متأثراً. كانت شابة جداً وأنيقة جداً بحيث لم يشأ تخيلها وسط مستشفى قرب الجبهة، لكن يبدو أنها متحمسة كثيراً للفكرة. يفسر ذلك سبب قراءتها للكتب الطبية في حجرتها حين مرّ لرؤيتها. سألها وقد بدا قلقاً «هل ستكونين بأمان هناك؟». فابتسمت.

«بما يكفي». تفضل التواجد على الجبهة، لكن قيل لها إن الفريق الطبي

المدرب والعسكريين هم فقط المسموح لهم بالعمل هناك. أما المستشفى الذي تم تأسيسه في رويامون في آسنيار سور واز فيحتمل كثيراً أن يقبلها بين أفراد طاقمه.

سألها باهتمام «هل ستذهبين إلى هناك اليوم؟». فهزّت رأسها.

«أظن أنني سأمضي ليلة في باريس، وأجد طريقة للذهاب إلى هناك غداً». إنه على مسافة عشرين ميلاً شمال باريس، وليست واثقة من المواصلات الواجب استعمالها.

قال بإعجاب: «أنت شجاعة جداً لتسافري بمفردك». وأحسّ أنها امرأة كانت محمية ومصانة طوال حياتها، وليست معتادة على إعالة نفسها. لكنها لا تملك خياراً آخر الآن. عرفت آنابيل أن هذه بداية جديدة لها، أو على الأقل فرصة للابتعاد عن النبذ الذي بدأت تشعر به في وطنها، ويحتمل أن تسوء الأحوال أكثر مع الوقت.

توجب على المسؤول الشاب العودة إلى وظيفته حينها، وعادت آنابيل إلى حجرتها لتوضيب حقائبها. كانت مستعدة للمغادرة عند الساعة السابعة. شكرت المضيفة على اهتمامها الكبير بها في أثناء الرحلة، وأعطتها بقشيشاً داخل مغلف، وذهبت إلى قاعة الطعام الأساسية لتناول الفطور. إنها المرة الأولى والوحيدة التي تتناول فيها وجبة طعام أمام العموم في أثناء الرحلة. لكن الجميع كانوا مشغولين جداً للانتباه إليها. إنهم يودعون أصدقاء جدداً، ويستمتعون بآخر وجبة لذيذة قبل مغادرة السفينة.

كانت آنابيل من بين أوائل الركاب الذين غادروا السفينة. ودّعت المسؤول الشاب حين جاء لرؤيتها وتمني الحظ السعيد لها. أكدت على الحجرة الخاصة التي حُجزت لها في القطار. وعرفت أن هذه هي آخر لحظات الترف التي ستستمتع بها لوقت طويل. في اليوم التالي، إذا حالفها الحظ، ستعمل بكدّ وتعيش مثل بقية أفراد الطاقم الطبي.

حملت حقائبها بنفسها، واستطاعت العثور على سيارة أجرة في محطة قطار شمالي باريس. تناولت الغداء في القطار، ولم تكن جائعة، ولذلك

توجهت مباشرة إلى الفندق. حجزت غرفة في فندق هولندا في الدائرة التاسعة قرب مونتمارتر، وفيما توجهت إلى هناك، لاحظت رجالاً يعتمرون قبعات زرقاء ويركبون دراجات هوائية، في مجموعات رباعية عادة، يجوبون المدينة. تمت إزالة المصطبات من كل المقاهي، وهذا تغير كبير مقارنة مع ما رأته آخر مرة في باريس حين جاءت مع أهلها وهي صغيرة. لم تأتِ إلى هنا منذ كان عمرها ستة عشر عاماً. ثمة جو من التوتر الهادئ هنا، ولاحظت أنه لا يوجد رجال تقريباً في الشوارع. تم استدعاء معظمهم إلى الجيش، وهم يحاربون في سبيل بلدهم، وحياتهم معرّضة للخطر على الجبهة، لكن المدينة لا تزال جميلة مثلما تذكرها. بدت ساحة الكونكورد عظيمة أكثر من أي وقت مضى، تماماً مثل الشانزيليزيه. كان الطقس جميلاً، وبدا يوماً خريفياً رائعاً فيما أوصلتها سيارة الأجرة إلى فندقها.

كان موظف الاستقبال طاعناً في السن، وليس هذا مستغرباً، وأوصلها إلى غرفتها في الطابق الأول. إنها غرفة صغيرة، وإنما مشرقة ومشمسة، تطلّ على حديقة الفندق، حيث تم ترتيب كراسٍ حول الطاولات، وكان عدد قليل من الأشخاص يتناولون الغداء. سألته عن وسيلة التنقل إلى آسنيار في اليوم التالي. أرادت أن تعرف إذا كان يمكن العثور لها على سائق وعربة ما. تحدثت إليه بطلاقة بلغة فرنسية تعلمتها من أستاذها، كجزء من تعليمها الراقي، الأمر الذي خدمها الآن جيداً.

سألها بعبوس دليل عدم الموافقة «لِمَ تريدين الذهاب إلى هناك؟». المكان قريب جداً من الجبهة برأيه، ولكن ليس برأي آنابيل. حاولت أن تقترح عليه بحذر، وليس بفظاظة، أنها ستدفع مبلغاً كبيراً من المال للسائق ليوصلها فقط، على افتراض أن يسمح لها المستشفى بالبقاء، وهذا ما لم تحسمه بعد. إلا أنها متفائلة، وتملك في جعبتها رسالة توصية من الطبيب في مستشفى إيليس آيلند.

شرحت له «أريد الذهاب إلى المستشفى في آسنيار».

أبلغها قائلاً: «إنه مستشفى، تديره النساء فقط».

«أعرف». ابتسمت له. «لهذا السبب أريد الذهاب».

«أنت ممرضة؟». هزّت رأسها للإجابة. لم يكفّ عن التفكير في أن الفندق باهظ جداً لتنزل فيه ممرضة، لكن حتى في ملابسها العادية، بدت أكثر أرستقراطية.

قالت بتواضع: «لا، أنا مجرد عاملة طبية، أو أي شيء يسمحون لي بالقيام به». فابتسم لها بدهشة.

«جئت لمساعدة شبابنا في المستشفى؟». أومأت برأسها هذه المرة من دون تردد. أرسل لها العشاء إلى غرفتها تلك الليلة، مع قنينة شراب صغيرة كان يحتفظ بها لنفسه. في المرة الثانية التي رآها فيها قال لها: «أنت امرأة صالحة».

قالت بلطافة: «شكراً». وهي تعرف أن كل سكان نيويورك ونيوبورت لا يوافقونه الرأي.

في وقت لاحق، أخبرها موظف الاستقبال أنه طلب من ابن أخيه إيصالها في اليوم التالي. أصيب في الجبهة العام الماضي وفقد أصابع عدة من يديه، لكنه أكّد لها أن جان لوك سائق بارع، بالرغم من أن الشاب سيوصلها إلى آسنيار في شاحنة. إنها العربة الوحيدة التي لديهم، وأكدت له أنها لا تمانع.

بالكاد استطاعت النوم على سريرها في الفندق تلك الليلة، إذ كانت متحمسة جداً. لا تعرف ما يخبئه لها اليوم التالي، أو ما إذا كانوا سيسمحون لها بالبقاء في المستشفى. أملت فقط أن يسمحوا لها بذلك.

الفصل الرابع عشر

انطلقت آنابيل مع جان لوك، ابن أخ موظف الاستقبال، في تمام الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، فيما أشرقت الشمس فوق باريس. إنه يوم جميل بامتياز، وأخبرها عن المعركة المريعة التي حصلت في شامباني خلال اليوم السابق، ولا تزال المعركة مستمرة. قال لها إنها المعركة الثانية التي تحصل هناك، وقُتل وجُرح مئة وتسعون ألف شخص. استمعت إليه بذعر صامت، وهي تفكر في الأعداد الهائلة للضحايا. الأمر لا يصدق.

لهذا السبب تحديداً جاءت إلى هنا. للمساعدة على معالجة الرجال، وفعل ما في وسعها لإنقاذهم، إذا استطاعت مساعدتهم بطريقة ما، أو مواساتهم على الأقل. كانت ترتدي فستاناً خفيفاً من الصوف الأسود، وجورباً أسود، وتنتعل جزمة، وقد وضعت كل كتبها الطبية في حقائبها، وحملت مئزراً أبيض نظيفاً في حقيبة يدها. إنه المئزر الذي ارتدته في مستشفى إيليس آيلند حين عملت هناك، مع تنانير وفساتين أكثر بهجة حين لم تكن في الحداد، مثلما هي الآن. لم تحضر معها إلى هنا سوى الثياب السوداء تقريباً.

احتاجا إلى ثلاث ساعات للوصول إلى المستشفى عبر طرقات فرعية. كانت الطرقات في حال سيئة، مع حُفر في كل مكان. لا يملك أحد الوقت لإصلاحها، ولا يوجد رجال لفعل ذلك. فكل رجل سليم البنية موجود على الجبهة، ولم يبقَ أحد لإجراء الإصلاحات أو صيانة البلد، باستثناء الكبار في السن، والنساء، والأطفال، والجرحى الذين أعيدوا إلى منازلهم. لم تكترث آنابيل للطرقات الوعرة فيما كانت شاحنة جان لوك تعلو بين الحين والآخر عن سطح الأرض لشدّة رداءة أحوال الطرقات، وكان يستخدم

شاحنته عادة لإيصال الدواجن. وقد ابتسمت حين لاحظت أن الريش التصق بحقائبها. وجدت نفسها تنظر إلى يديها لبرهة، للتأكد من أنها قلّمت أظافرها على نحو قصير كفاية، ولاحظت الأثر الذي تركه خاتم الزواج في إصبعها. تألم قلبها لدقيقة. لقد نزعته في شهر أغسطس ولا تزال تشتاق إليه. تركته في خزنة المصرف في علبة مجوهرات، مع خاتم الخطوبة، الذي أصرّ جوشيا على أن تحتفظ به. لكنها لا تملك الوقت للتفكير في ذلك الآن.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حين وصلا إلى رويامون، إنه مبنى مهدم قليلاً هندسته جميلة مع قناطر لافتة، وبركة خلفه. كان يضج بالنشاط. ثمة ممرضات يرتدين الزيّ الأبيض، ويدفعن رجالاً على كراسٍ نقالة في الفناء الخارجي، فيما تتجول ممرضات أخريات في مختلف أقسام المبنى، وهناك رجال موضوعون على حمالات خارجة من سيارات إسعاف تقودها نساء. الإناث هنّ من حملن الحمالات أيضاً. لا يوجد أحد سوى النساء هنا، بما في ذلك الطبيبات. الرجال الوحيدون الذين رأتهم كانوا مصابين. بعد دقائق قليلة، شاهدت طبيباً واحداً يخرج مسرعاً من أحد الأبواب. إنه ندرة بين مجموعة كبيرة من النساء. فيما نظرت حولها، وهي لا تعرف إلى أين تذهب، سألها جان لوك إذا كانت تريد أن ينتظرها.

قالت: «نعم، إذا كنت لا تمانع». وهي تشعر بالارتباك لدقيقة، لكنها مدركة تماماً أنهم إذا لم يسمحوا لها بالتطوع، لا تعرف أبداً إلى أين ستذهب أو ماذا ستفعل. وكانت مصممة على البقاء في فرنسا والعمل هناك، إلا إذا ذهبت إلى إنكلترا وتطوعت هناك. لكن مهما حصل، لن تعود إلى وطنها. ليس قبل وقت طويل على أي حال، أو ربما لن تعود أبداً. لا تريد التفكير في ذلك الآن. قالت بهدوء: «عليّ التحدث إلى الأشخاص المسؤولين لأعرف ما إذا كانوا سيقبلونني». وإذا سمحوا لها بالعمل، تكون بحاجة إلى مكان للبقاء فيه. لا تمانع النوم في ثكنة أو في المرأب إذا اضطرت إلى ذلك.

مشت آنابيل في الفناء، وتبعت الإشارات المؤدية إلى مختلف أنحاء المستشفى، ثم لاحظت سهماً يشير إلى بعض المكاتب تحت القناطر، وكُتب على السهم كلمة «الإدارة».

حين دخلت، وجدت مجموعة من النساء الجالسات أمام مكتب، يرتبن أوراقاً، فيما سلّمتهن سائقات سيارات الإسعاف أوراق الطلبات. إنهن يحتفظن بسجلّات لجميع الذين يعالجونهم، وليس هذا بديهياً دوماً في كل المستشفيات الميدانية، حيث يتم العمل تحت ضغط كبير في بعض الحالات. هنا، ثمة نوع من النشاط المجنون، وإنما يوجد في الوقت نفسه وضوح وترتيب. النساء الجالسات أمام المكتب فرنسيات بمعظمهن، بالرغم من أن آنابيل سمعت بعضهن يتحدثن الإنكليزية. وكل سائقات سيارات الإسعاف نساء فرنسيات شابات. إنهن من مناطق محلية، وتم تدريبهنّ هنا، وبدت بعضهن في عمر ستة عشر عاماً. طُلب من الجميع المشاركة في الخدمة. في الثانية والعشرين من العمر، بدت آنابيل أكبر من العديد منهنّ، بالرغم من أن مظهرها لا يوحي بذلك. إلا أنها بلا شك ناضجة كفاية لاستلام العمل إذا سمحن لها، وأكثر خبرة من معظم المتطوعات.

«هل من شخص أستطيع التحدث إليه بشأن التطوع؟»، سألت آنابيل بلغة فرنسية خالية من الأخطاء.

«نعم، أنا»، قالت امرأة في مثل عمرها تقريباً، وابتسمت لها. كانت ترتدي زيّ الممرضة، لكنها تعمل أمام المكتب. إنها تنجز عملين في الوقت نفسه، مثل الجميع. وفي بعض الأحيان، كانت سائقات سيارات الإسعاف، أو الطبيبات والممرضات في غرف العمليات، يعملن لأربع وعشرين ساعة متواصلة. ينجزن ما هو ضروري. وكان الجو ممتعاً ومرحاً وحيوياً. تأثرت آنابيل لغاية الآن.

سألتها المرأة الشابة الجالسة وراء المكتب، وهي تنظر إليها «ما الذي تستطيعين فعله؟». وضعت آنابيل مئزرها لتبدو أكثر احترافية. ففي الفستان الأسود الصارم بدت مثل هجينة بين الممرضة وناذرة العفة، وهي ليست أياً منهما.

قالت آنابيل بتوتر، وهي تفتش في حقيبتها، خائفة أن يتم رفضها: «أملك رسالة توصية». ماذا لو كنّ يقبلن الممرضات فقط؟ قالت آنابيل وهي تبدو متفائلة ومنقطعة الأنفاس: «عملت في المجال الطبي منذ كان عمري

ستة عشر عاماً، وتطوعت في المستشفيات. عملت في مستشفى إيليس آيلند في نيويورك خلال العامين الماضيين، مع المهاجرين، ولديّ الكثير من الخبرة في مجال الأمراض المعدية. قبل ذلك، عملت في مستشفى نيويورك للمعوّقين والمقعدين. قد يكون ذلك شبيهاً بالعمل المنجز هنا».

«هل من تدريب طبي؟»، سألت المرأة التي ترتدي زيّ الممرضة فيما قرأت رسالة التوصية من الطبيب في مستشفى إيليس آيلند. لقد مدح أداءها كثيراً، وقال إنها المساعدة الطبية الأكثر براعة التي صادفها، وأفضل من معظم الممرضات وبعض الأطباء. تورّدت آنابيل خجلاً حين قرأت الممرضة ذلك.

«ليس تماماً»، قالت آنابيل بصراحة عن عدم خضوعها للتدريب. لا تريد الكذب عليهنّ، والادعاء أنها تعرف أشياء لا تعرفها. «قرأت الكثير من الكتب الطبية، خصوصاً عن الأمراض المعدية، وجراحة العظام، والجروح الملتهبة». أومأت الممرضة برأسها، ونظرت إليها بعناية. استلطفتها. بدت متشوقة للعمل، كما لو أن هذا يعني لها الكثير.

قالت بإعجاب: «إنها توصية مهمة، أفترض أنك أميركية؟». أومأت آنابيل برأسها. كانت المرأة الشابة بريطانية وإنما تتكلم الفرنسية بإتقان، من دون أي لكنة غريبة، علماً أن لغة آنابيل الفرنسية جيدة أيضاً.

«نعم»، قالت آنابيل جواباً عن السؤال عن جنسيتها. «وصلت البارحة».

«لماذا جئتِ؟»، سألت الممرضة بفضول فيما ترددت آنابيل، ثم توردت وابتسمت ابتسامة خجولة.

«من أجلكنّ. سمعتُ عن هذا المستشفى من الطبيب في مستشفى إيليس آيلند، الذي كتب رسالة التوصية. بدت الفكرة رائعة لي، ولذلك فكرتُ في أنني أستطيع تقديم بعض المساعدة. سأفعل أي شيء تطلبونه مني. آنيات البول والبراز، الأسرّة، الأوعية الجراحية، أي شيء».

«هل تجيدين القيادة؟».

«ليس بعد»، قالت آنابيل بخجل. لطالما قاد لها الآخرون. «لكنني أستطيع التعلم».

«أنت مقبولة»، قالت الممرضة الشابة البريطانية ببساطة. لا جدوى من اختبارها مع رسالة توصية كهذه، وأحست أن آنابيل جيدة. انفرج وجهها بابتسامة عريضة فيما قالت المرأة وراء المكتب ذلك. هذا هو بالضبط ما جاءت لأجله. كانت رحلة طويلة ومخيفة للوصول إلى هنا، بالرغم من حقول الألغام والغواصات الألمانية، ومخاوفها الخاصة بعد غرق التايتانيك. «توجهي إلى القسم «ج» عند الساعة الواحدة بعد الظهر. بعد عشرين دقيقة».

سألت آنابيل وهي لا تزال تبتسم «هل أحتاج إلى زيّ رسمي؟».

«أنت جيدة هكذا»، قالت المرأة وهي تنظر إلى مئزرها. ثم فكرت في شيء ما. «هل تملكين بيتاً؟ أقصد مكاناً للإقامة فيه؟». تبادلتا ابتسامة.

«ليس بعد. هل من غرفة أستطيع الحصول عليها هنا؟ أستطيع النوم في أي مكان. على الأرض عند الضرورة».

حذرتها الممرضة «لا تقولي هذا لأي شخص آخر، وإلا سيلتزمون بكلمتك. ثمة نقص في الأسرّة هنا، ويسعد أي كان بأخذ سريرك. ينام معظمنا على أسرّة غير مريحة، ونستخدم الأسرّة نفسها مع أشخاص يعملون في دوامات مختلفة. بقي عدد قليل من الأسرّة في غرف ساكنات المبنى القديمات، وهناك مهجع، لكنه مزدحم كثيراً. لو كنت مكانك، لأخذتُ واحداً من أسرّة ساكنات المبنى القديمات أو عثرتُ على شخص ما ليشاركني سريره». أشارت إلى المبنى حيث توجد الأسرّة، وذهبت آنابيل للعثور على جان لوك. لقد نجحت مهمتها، وسيُسمح لها بالعمل هنا. بالكاد صدّقت حظها الجيد، وكانت لا تزال تبتسم حين وجدت جان لوك واقفاً قرب شاحنة الدواجن، لحمايتها وكي تتمكن هي من العثور عليه. ثمة نقص في العربات، وخاف أن يأخذها أحد منه لاستعمالها كسيارة إسعاف.

«هل ستبقين هنا؟»، سألها فيما توجهت نحوه مبتسمة.

قالت وهي تشعر بالارتياح: «نعم، سأبدأ العمل بعد عشرين دقيقة ولا يزال عليّ العثور على غرفة». ذهبت إلى الجهة الخلفية للشاحنة، ونفضت الريش عن حقائبها، وأخرجتها. عرض عليها حملها لها، لكنها رأت أنه من الأفضل أن تفعل ذلك بنفسها. شكرته مجدداً، وقد دفعت له المال مسبقاً هذا الصباح. عانقها بحنان، وقبّلها على وجنتيها، وتمنى لها حظاً جيداً، ثم عاد إلى شاحنته، وغادر.

دخلت آنابيل المستشفى وهي تحمل حقائبها، ووجدت المساحة التي قالت لها الممرضة إنها تضم الأسرّة القديمة. ثمة العديد منها، داكنة، وصغيرة، ورطبة، وعفنة، وقد بدت غير مريحة أبداً، مع فراش متكتل فوق كل منها، وبطانية، ولكن من دون شراشف في أغلب الأحيان. ثمة شراشف على عدد قليل فقط من الأسرّة، وشكّت آنابيل في أن النساء اللواتي يستعملن هذه الأسرّة أحضرن الشراشف بأنفسهن. ثمة حمام مشترك لخمسين سريراً تقريباً، وشعرت بالارتياح لوجود الحمام في غرفة مغلقة. بدا جلياً أن ساكنات المبنى القديمات لم يعشن براحة أو ترف خلال القرن الثالث عشر أو بعد ذلك الحين. تم شراء المبنى منهنّ قبل أعوام عدة، في نهاية القرن الماضي، وأصبح ملك إلسي إينغليس الذي أدارته وحوّلته إلى مستشفى. إنه مبنى جميل وقديم، وبالرغم من أنه لم يكن في حالة مذهلة، فقد لاءم غرضهن بامتياز. إنه مستشفى مثالي بالنسبة إليهن.

فيما نظرت آنابيل حولها، خرجت امرأة شابة من إحدى الغرف. كانت طويلة ونحيلة وبدت إنكليزية جداً، ذات بشرة شاحبة وشعر داكن على عكس شعر آنابيل الأشقر. كانت ترتدي زيّ ممرضة، وابتسمت للواصلة الجديدة بابتسامة حزينة. بدت مثل فتاة لطيفة. وقد حصل انسجام فوري بين المرأتين.

«ليس هذا كلاريدج بالضبط»، قالت بنبرة الطبقات الراقية، وأحسّت الشيء نفسه بشأن آنابيل أيضاً. الأمر محسوس أكثر مما هو منظور، لكن الفتاتين كلتيهما لم تبدوا متشوقتين للتبجح بأصليهما النبيلين أمام الأخريات. جاءتا إلى هنا للعمل بكدّ، وهما مسرورتان بوجودهما هنا. «أفترض أنك

تبحثين عن غرفة»، قالت الفتاة وعرّفت عن نفسها. «أنا إدوينا ساسكس. هل تعرفين دوامك؟». أخبرتها آنابيل عن اسمها وقالت لها إنها لا تعرف.

«لست واثقة مما هو مسموح لي بفعله. يفترض بي الذهاب إلى القسم «ج» خلال عشر دقائق».

«جيد. إنه أحد الأقسام الجراحية. أنتِ لا تخافين، أليس كذلك؟».

هزّت آنابيل رأسها، فيما شرحت لها إدوينا أنه توجد فتاتان تشاركانها الغرفة نفسها، لكنها أشارت إلى الباب المجاور، وقالت إن الفتاة التي كانت تعيش هناك غادرت إلى منزلها في اليوم السابق بسبب مرض أمها. ما من واحدة منهن تبعد عن منزلها بقدرها هي. تستطيع الفتيات البريطانيات الذهاب إلى منازلهن بسهولة، ومن ثم العودة، عند الحاجة، بالرغم من أن عبور القناة لم يعد سهلاً هذه الأيام أيضاً، لكنه ليس خطراً بقدر عبور الأطلسي. شرحت آنابيل أنها وصلت من الولايات المتحدة في اليوم السابق. قالت إدوينا بإعجاب: «كم أنت شجاعة». المرأتان الشابتان هما في العمر نفسه تماماً. قالت إدوينا إنها مخطوبة لشاب يحارب حالياً على الحدود الإيطالية، ولم تره منذ ستة أشهر. فيما قالت ذلك، كانت آنابيل تضع حقائبها في الغرفة المجاورة. إنها غرفة صغيرة ومظلمة وبشعة مثل الغرف الأخرى، لكن آنابيل لا تهتم، وقالت إدوينا إنهن لا يتواجدن في غرفهنّ، إلا للنوم.

بالكاد كان لدى آنابيل الوقت لوضع حقائبها، ثم أسرعت على السلالم للعثور على القسم «ج». ومثلما قالت إدوينا، حين وصلت إلى هناك، وجدت قسماً جراحياً كبيراً. ثمة غرفة كبيرة جداً تبدو وكأنها كانت في الماضي دار عبادة كبيرة، مليئة بمئة سرير تقريباً. ما من تدفئة في الغرفة، وتمت تغطية الرجال ببطانيات لإبقائهم دافئين. إصاباتهم متنوعة، وقد فقد العديد منهم أطرافهم أو خضعوا لعمليات جراحية كبيرة. أطلق معظمهم صرخات أنين، وبكى بعضهم، وكانوا جميعاً شديدي المرض. عانى البعض من حمى حادة، وفيما ذهبت لتبحث عن الممرضة المسؤولة، تشبث العديد من الرجال بفستانها. خلف الغرفة الكبيرة، ثمة غرفتان كبيرتان يتم استعمالهما لإجراء العمليات، وسمعت أحدهم يصرخ من الداخل أكثر من

مرة. إنه مشهد مؤثر، ولو لم تمارس آنابيل العمل التطوعي خلال الأعوام الستة الماضية، لأغمي عليها على الفور. إلا أنها بدت متأثرة جداً فيما شقّت طريقها عبر الغرفة، أمام عشرات الأسرّة.

وجدت الممرضة المسؤولة خارجةً من إحدى غرفتي العمليات، وهي تبدو مرهقة وتحمل حوضاً في داخله يد. شرحت لها آنابيل أنها بدأت العمل هنا. أعطتها الممرضة الحوض، وأخبرتها أين يجدر بها رميه. لم تجفل آنابيل وحين عادت، جعلتها الممرضة المسؤولة تعمل طوال الساعات العشر التالية. لم تتوقف آنابيل أبداً. إنها معمودية النار بالنسبة إليها، وبعد انتهائها من إتمام واجباتها طيلة اليوم، حظيت باحترام الممرضة المسؤولة.

«ستنجحين»، قالت مع ابتسامة كئيبة، وقال أحدهم إنها عملت مع الدكتورة إينغليس نفسها، التي عادت إلى اسكوتلندا الآن. تنوي فتح مستشفى آخر في فرنسا.

كانت الساعة قرابة منتصف الليل حين عادت آنابيل إلى غرفتها. كانت متعبة جداً لفتح حقائبها أو حتى لتبديل ثيابها. استلقت على الفراش، وغطت نفسها بالبطانية، وبعد خمس دقائق كانت نائمة مع نظرة ارتياح على وجهها. تمت الاستجابة لدعائها. وهي الآن في مكانها المناسب.

الفصل الخامس عشر

كانت لأيام الأولى لآنابيل في رويامون مرهقة فعلاً. فالإصابات من المعركة الثانية في شامباني تتدفق بسرعة كبيرة. ساعدت في العمليات الجراحية، وأفرغت الأوعية الجراحية، ونظفت الدم، ورمت الأطراف المبتورة، وأفرغت آنيات البول والبراز، وأمسكت بأيدي الرجال الذين كانوا على شفير الموت، وحمّمت رجالاً يعانون من حمى مميتة. ما من شيء رأته قبلاً يشبه أياً من هذا. لم تعمل أبداً بمثل هذا الكدّ في حياتها، لكن هذا ما أرادته بالضبط. شعرت أنها مفيدة، وهي تتعلم المزيد كل يوم.

بالكاد رأت آنابيل إدوينا. إنها تعمل في قسم آخر من المستشفى، وهما تعملان في أوقات مختلفة. صادفتا بعضهما بين الحين والآخر في الحمام، أو التقتا في الممشى في أثناء التنقّل بين الأقسام، ولوّحتا لبعضهما. لا تملك آنابيل الوقت لعقد الصداقات، فهناك الكثير من العمل الواجب إنجازه، وكان المستشفى مزدحماً جداً بالجرحى والمحتضرين. كانت كل الأسرّة ممتلئة، واستلقى بعض المرضى على فُرش على الأرض.

أخيراً، حصلت على بضع دقائق بعد ظهر ذات يوم للذهاب إلى المصرف المحلي، وأرسلت رسالة إلى مصرفها في نيويورك لإبلاغه أنها وصلت بأمان وأن كل شيء على ما يرام. ما من أحد لإخباره. مضى على وجودها في أسنيار أسبوعان حينها، وشعرت وكأنها موجودة هنا منذ عام. وصل الإنكليز والفرنسيون إلى سالونيكا، في اليونان، فيما اجتاحت القوات النمساوية والألمانية والبلغارية صربيا وطردت الجيش الصربي خارج البلاد. في فرنسا، كان الرجال يموتون مثل الذباب. على مسافة ثلاثين ميلاً من المستشفى، لا تزال الجبهة مستعرة، وتتم خسارة الرجال باستمرار. أنشئت مستشفيات ميدانية في دور عبادة قرب الجبهة، لكن تم

إحضار أكبر قدر ممكن من الرجال إلى آسنيار، حيث يستطيعون الحصول علـى رعاية أفضـل. تعلمـت آنابيل الكثير عن الجراحـة. وكانوا يعالجون كل شـيء أيضـاً مـن الديزنتريـا إلى القـدم الخندقية، فضـلاً عن عدد من حالات الكوليرا. وجدت آنابيل كل ذلك مريعاً وإنما تحمّست لقدرتها على المساعدة.

في صباح أحد أيام إجازاتها النادرة، علّمتها إحدى النساء في غرفتها قيادة إحدى الشاحنات التي كنّ يستعملنها بمثابة سيارات إسعاف، ولم تكن هذه الشاحنة مختلفة كثيراً عن شاحنة الدواجن لجان لوك. واجهت في البداية صعوبة في تبديل ناقل السرعة، لكنها بدأت تعتاد على الأمر حين عادت إلى العمل مجدداً. جرى فصلها إلى غرفة العمليات أكثر من كل الأخريات لأنها دقيقة ومنتبهة وشديدة العناية وتتبع التعليمات بحذافيرها. لاحظت العديد من الطبيبات مهارتها، وقلن ذلك للممرضة المسؤولة التي وافقت على أن عمل آنابيل ممتاز. رأت أنها ممرضـة مذهلة، واقترحت على آنابيل الخضـوع لتدريب رسـمي بعد الحرب، لكن الجرّاح المسـؤول رأى أنها أفضـل من ذلـك. توقـف ذات ليلة للتحدث إليها بعد الانتهـاء من آخر عملية جراحية. لم تكن آنابيل متعبة فيما نظفت الغرفة ورتبتها. كان يوماً مرهقاً جداً بالنسبة إلى الجميع، لكن آنابيل لم تتذمر دقيقة واحدة.

قال لها فيما مسح يديه بمئزره الملطخ بالدم: «تبدين وكأنك تستمتعين بالعمل». بدت يداها ملطّختين بالدم مثله تماماً إلا أنها لم تلاحظهما، وكان وجههـا أيضـاً ملطّخاً بـدم أحدهم. أعطاها الطبيب خرقة لمسـح يديها بها، فشـكرته وابتسـمت. إنه جرّاح فرنسـي جاء من باريس، وهو أحد الأطباء الذكـور القلائـل الموجوديـن. معظم أفراد الطاقم الطبي من النسـاء، علماً أن هذه كانت نية إلسـي إينغليس حين أسسـت المستشـفى. لكن هناك بعض الاستثناءات بسبب الحاجة إلى الكثير من المساعدة. أصبحن يعالجن الكثير من الرجال الآن بحيث شعرن بالامتنان لوجود كل الأطباء الذكور الممكن الحصول عليهم.

قالت آنابيل بصـراحة: «نعم». فيما وضـعت الخرقة مع بقية الأقمشة

التي ستأتي فتيات من حجرة الغسيل لأخذها لاحقاً. إلا أنه يتم رمي بعضها مباشرة. «لطالما أحببتُ هذا النوع من العمل. أتمنى فقط ألا يعاني الرجال كثيراً. هذه الحرب مريعة فعلاً». أومأ برأسه. إنه في العقد الخامس، وهو الآخر لم يشاهد هذا القدر من المآسي قبلاً.

«تظن الممرضة المسؤولة أنه يجدر بك الذهاب إلى كلية التمريض»، قـال وهـو ينظـر إليها فيمـا خرجا من غرفـة العمليات معاً. يسـتحيل عدم الملاحظة كم هي فتاة جميلة، لكن ثمة أموراً فيها أهم بكثير من ذلك. تأثر الجميع بمهاراتها الطبية منذ وصـولها. الطبيب الذي كتب رسـالة التوصـية لها لم يبالغ، لا بل إنها أفضل بكثير ممّا مدحها به. سألها الطبيب «هل هذا ما تودّين فعله؟». تأثر بلغتها الفرنسـية أيضـاً، التي تحسنت كثيراً خلال الأسـبوعين الماضـيين. لا يواجه أي مشكلة في التحدث إليها بالفرنسية، أو هي في الإجابة عن أسئلته.

فكرت لبرهة قبل أن تجيبه. لم تعد متزوجة بجوشيا، وقد مات أهلها. تستطيع فعل أي شيء تريده الآن، لا تكترث لأحد. إذا أرادت الذهاب إلى كلية التمريض، يمكنها فعل ذلك، لكن حين نظرت إليه، تفاجأت بقدره هو بما قالته.

بالكاد همست «أفضل أن أكون طبيبة». وهي تخشى أن يضحك عليها. الدكتورة إينغليس، التي أسسـت المستشـفى، امرأة، لكن ذهاب المرأة إلى كلية الطب كان لا يزال أمراً مستغرباً في تلك الحقبة. بعضهن فعلن ذلك، وإن بصورة نادرة. أومأ برأسه مشجّعاً إياها.

«كنـت أفكـر في هذا أنا أيضـاً. أظن أنـه يجدر بك فعل ذلك. تملكين موهبـة. ألاحـظ ذلـك». علّـم في كلية الطب لسـنوات عـدة قبل الحرب، وتعاطـى مـع رجـال أقل كفاءة منها. رأى أن هذه فكرة ممتازة. «هل من شيء أستطيع فعله للمساعدة؟».

قالت وقد بدت مصدومة: «لا أعرف». لم تسمح لنفسها أبداً بالتفكير مـن قبـل أن هـذا احتمال حقيقي. والآن، يأخذها هـذا الرجل اللطيف على

محمل الجد، ويعرض عليها المساعدة. تلألأت الدموع في عنيها. «هل هذا ممكن؟».

«طبعاً. كل شيء ممكن إذا أردته بقوة كفاية، ورغبت بالعمل لأجله. وثمة شيء يشعرني أنك ستنجحين. لمَ لا تفكرين في الأمر، وستحدث عن ذلك مرة أخرى».

اسمه الدكتور هوغ دو بري، لم يصادفا بعضهما مرة أخرى طوال شهر. سمعت أنه ذهب للعمل في أحد المستشفيات الميدانية القريبةمن الجبهة لبعض الوقت، ثم عاد في شهر نوفمبر. ابتسم لحظة رأى آنابي، وطلب منها إعطاء المخدّر للمريض بنفسها. كانت لطيفة وفعالة فيما ساعدت الرجل الذي يبكي على النوم، ثم استلم طبيب شاب المهمة عنها بعد ذك. تحدث إليها الدكتور دو بري تلك الليلة قبل أن يغادر.

قال بحذر: «هل فكرت أكثر في مشروعنا؟ فكلية الطب مكلفة جداً. هل في وسعك تحمّل هذه النفقات؟». ثمة شيء فيها أوحى له أنها قادرة على تحمّل نفقات الكلية، لكنه لم يشأ افتراض ذلك. كان يفكر في كيفية الحصول على منحة دراسية لها. سيكون ذلك صعباً لأنها ليست فرنسية.

قالت بحذر: «أظن أنه لا مشكلة في ذلك».

«ما رأيك في الذهاب إلى كلية طب الدكتورة إينغليس في اسكوتلندا؟»، اقترح عليها، فهزّت آنابيل رأسها.

«أظن أنني أفضل البقاء في فرنسا». بالرغم من أن اللغة ستكون أسهل عليها في اسكوتلندا، تستطيع تدبر أمرها بالفرنسية، ولم يرق لها كثيراً مشروع قضاء سنوات في اسكوتلندا حيث الطقس المريع.

«أستطيع فعل المزيد لمساعدتك هنا. كنت أفكر في كلية طب صغيرة لطالما أحببتها في جنوب فرنسا، قرب نيس. ولا أظن أنه يجدر بك الانتظار حتى انتهاء الحرب. من الأسهل الذهاب إلى هناك الآن. الصفوف صغيرة، وهم بحاجة إلى الطلاب. رحل العديد من الرجال الشباب، ولذلك تضاءلت المنافسة. سيرحبون بك كثيراً. بعد إذنك، سأكتب رسالة لهم وأعرف

رأيهم». ابتسمت له آنابيل بذهول وامتنان. يستحيل التصديق أن هذا يحدث. ربما إنه القدر. قبل ستة أشهر، كانت متزوجة، وتأمل أن تؤسّس عائلة يوماً ما، في حياتها الآمنة في نيوبورت ونيويورك. الآن، أصبحت وحيدة، في فرنسا، تتحدث عن الذهاب إلى كلية الطب، وقد تغير كل شيء في حياتها. جوشيا في مكسيكو، وليس لديها أحد للاهتمام به. إذا كان هذا حلمها، تستطيع تحقيقه الآن. ما من أحد ليوقفها. الشيء الوحيد الذي جعلها سعيدة هو عدم وجود أحد لمناقشة الموضوع معه باستثناء الدكتور دو بري.

كانوا لا يزالون يعالجون حشود الجرحى الآتين من الجبهة، فيما أصبح الطقس أكثر برودة، ومات المزيد من الرجال نتيجة الالتهابات والجروح والديزنتريا. خسرت اثنين من الرجال الذين كانت تهتم بهم هذا الصباح، حين توقف الدكتور دو بري للتحدث إليها. ثمة أسبوعان فقط قبل الميلاد، وشعرت بالحنين إلى الوطن للمرة الأولى. كانت تفكر أنه قبل عام واحد فقط، كانت أمها على قيد الحياة. قطع عليها الدكتور دو بري أحلام اليقظة، وأخبرها أنه تلقى رسالة من كليةِ الطب في نيس. نظر إليها بإعجاب، وحبست أنفاسها، منتظرة سماع ما يريد قوله.

«قالوا إنهم يسعدون كثيراً بقبولك مع توصية مني. سيضعونك قيد الاختبار خلال الفصل الأول، وإذا أبليتِ بلاءً حسناً، سيتم قبولك كطالبة بدوام كامل بعد ذلك». كان يبتسم لها فيما اتسعت عيناها. «يودّون أن تبدأي في الخامس عشر من يناير، إذا كان هذا يناسبك». فتحت عينيها وفمها وهي غير مصدقة، فيما حدّقت إليه.

«هل أنت جاد؟». كادت تقفز بين ذراعيه. بدت مثل فتاة صغيرة جداً فيما ضحك لها. شعر بالسرور لمساعدة امرأة شابة موهوبة. وبالرغم من الحاجة الكبيرة إلى مساعدتها هنا، رأى أنه من المهم أكثر أن تدرس الطب بأسرع ما يمكن. ستفيد العالم كثيراً حين تصبح طبيبة.

«نعم أنا جاد. ماذا ستفعلين؟»، سألها وهو لا يزال غير واثق من أنها تريد الذهاب. لم تكن واثقة هي أيضاً. كانت رسالته لهم بمثابة اختبار لمعرفة

ماذا سيقولون. لم تتوقع أبداً أن يكون الأمر بهذه السهولة أو السرعة. لكن الكلية تحتاج إلى الطلاب بشدة، ومع توصية من الدكتور دو بري، يثقون تماماً أنها ستكون على مستوى ثقته، وهذا هو رأيه أيضاً.

«آه يا الله»، قالت وهي تحدّق إليه، فيما غادرا قسم الجراحة ومشيا في هواء الليل البارد. «آه يا الله... عليّ الذهاب!». إنه حلم أصبح حقيقة، شيء لم تتوقع أبداً حصوله، ولم تجرؤ أبداً على الحلم به، وقد أصبح هذا الحلم الآن في متناول يديها. لم تعد مضطرة إلى الاكتفاء فقط بقراءة الكتب الطبية لوحدها، محاولة فهم كل شيء لوحدها. تستطيع دراستها لتصبح في ما بعد ما أرادت تماماً أن تكونه منذ زمن. قدّم لها هدية تفوق التصور. لا تعرف كيف تشكره فيما وضعت ذراعيها حول عنقه، وقبّلته على وجنته.

«ستكونين طبيبة رائعة، عزيزتي. أريدك أن تبقي على اتصال معي، وأن تأتي لرؤيتي حين تنتهي هذه الحرب وتعود الحياة إلى طبيعتها مجدداً، إذا حصل ذلك». يصعب تصديق ذلك الآن. وصل عدد الضحايا في أوروبا إلى ثلاثة ملايين. تمت خسارة الكثير من الأرواح لغاية الآن، ولم يُحلّ أي شيء. كل دول أوروبا متخاصمة مع بعضها، ولا تزال أميركا مصممة على عدم التدخل.

كرهت آنابيل مغادرة المكان هنا. عرفت أن ثمة حاجة إليها هناك، لكن رأي الدكتور دو بري صائب، لأن هذا هو الوقت المثالي لها للذهاب إلى كلية الطب. في وقت السلم، مع تقدّم المزيد من الرجال بالطلبات، قد لا يقبلونها بسهولة. أخبروه أنه في الفصل الحالي، ستكون المرأة الوحيدة في صفها، بالرغم من تخرّج طبيبات إناث قبلاً. ستستغرق دراستها ست سنوات في الإجمال. سنة في الصفوف مبدئياً، وخمس سنوات بعدها في الصفوف والعمل مع المرضى في مستشفى قرب الجامعة. إنهم متعاقدون مع إحدى أفضل المستشفيات في نيس. ستحصل على الكثير من الخبرة، وهذا مكان جيد لها لتعيش فيه. في وقت السلم، تعتبر تلك المنطقة أكثر أماناً لها من باريس، أكثر ريفية وأصغر حجماً، إذ لا يوجد أحد لحمايتها. أخبرها أنه بوجود مهاجع للنوم في كلية الطب، وسيعطونها غرفة كبيرة

خاصة بها لأنها التلميذة الأنثى الوحيدة. اقترح عليها بعد ذلك أن تعود إلى باريس وتعمل معه. لديه ثقة كبيرة بها بحيث صممت على أن تكون على مستوى هذه الثقة.

كانت تطير فرحاً تلك الليلة حين عادت إلى غرفتها، وقال الدكتور دو بري إنه سيكتب رسالة إلى الكلية لقبول المكان الذي حجزوه لها. عليها أن ترسل لهم بعض المال في بداية شهر يناير، وليست هذه مشكلة. تستطيع دفع بقية أقساط السنة الأولى حين تصل إلى هناك. كان عقلها يضجّ بالإثارة والمشاريع. كان رأسها يدور بالأفكار، وبقيت مستيقظة معظم الليل، تفكر في الأمر. تذكرت أنها أخبرت جوشيا ذات مرة أنها ترغب بتشريح جثة، وتستطيع الآن فعل ذلك، من دون أن يردعها أي شيء أو أي كان. لقد تعلمت الكثير عن بنية الجسم بعد العمل في غرفة العمليات هنا، خصوصاً مع الدكتور دو بري. لطالما حرص على تعليمها في أثناء العمل وفي حال لم تكن الحالة معقدة جداً. ومجرد مراقبته وهو ينجز العمليات هو شرف عظيم.

لم تخبر أحداً عن خططها إلا في اليوم السابق للميلاد، حين أبلغت أخيراً الممرضة المسؤولة، التي ذهلت، لكنها رأت أنها فكرة ممتازة.

قالت لها بفخر وهي تبتسم: «رائع، ظننت أنك تريدين أن تصبحي ممرضة. لم أظن أبداً أنك تريدين أن تكوني طبيبة. لكن لِم لا؟ الدكتورة إينغليس من أفضل الطبيبات. ستكونين أنت هكذا أيضاً في يوم ما، كم هذا عمل رائع من قبل الدكتور دو بري. أوافقه الرأي تماماً».

مضى على وجود آنابيل هناك ثلاثة أشهر، وقد تحسنت في كل النواحي. لم تملك الوقت لعقد الصداقات، لأنها عملت طوال الوقت، حتى لو لم تكن مضطرة إلى ذلك! لكن هناك الكثير من الجرحى، والكثير من العمل الواجب إنجازه لهم جميعاً. حتى إنها قادت إحدى سيارات الإسعاف بين الحين والآخر حين طُلِبَ منها ذلك. رغبت بفعل كل شيء. ذهبت إلى مكان قريب من الجبهة لإحضار رجال من المستشفيات الميدانية إلى هنا. كان دوي القصف مريعاً، وتذكرت كم أن المعركة قريبة. بطريقة

ما، شعرت بالذنب لتركهم جميعاً والذهاب إلى كلية الطب في نيس، لكنه مشروع مهم جداً بحيث لا تستطيع أبداً مقاومته. شعرت بالقليل من الذهول حين أدركت أنها ستكون في الثامنة والعشرين حين تنتهي. بدا هذا وقتاً طويلاً بالنسبة إليها، لكن عليها تعلم الكثير في هذا الوقت. لم تتخيل استيعاب كل ذلك خلال ست سنوات.

صادفت إدوينا خارج الغرف صباح الميلاد، وتعانقتا، وأخبرتها آنابيل أنها ستغادر في غضون ثلاثة أسابيع. بدت إدوينا خائبة الأمل فوراً.

«آه، أنا آسفة جداً. لطالما أردت قضاء الوقت معك، والتحدث، لكننا لم نوفّق أبداً في ذلك، وها أنتِ الآن ذاهبة». أملت أن تصبحا صديقتين، لكنهما لم تملكا الوقت. هناك دوماً الكثير من العمل. فكرت آنابيل في هورتي حينها، وفي آخر مرة التقتا فيها، وفي إحساسها المريع بالخيانة. لقد أدارت هورتي ظهرها لأقدم وأعزّ صديقة لها، وقالت إن جايمس لن يسمح لها برؤيتها مجدداً. كان ذلك جزءاً من سبب قدومها إلى فرنسا. لقد خسرت الكثير من الأشخاص، وكانت هورتي آخرهم. دفعها ذلك للنظر إلى إدوينا بابتسامة لطيفة، مع ذكرى ندم وصداقة ضائعة.

«ربما قد أعود للعمل هنا حين يعطوننا إجازة. لا أعرف إذا كانوا يعطون إجازات في كلية الطب، لكن لا بد من أنهم يفعلون ذلك»، قالت آنابيل بتفاؤل. أرادت رؤيتهم جميعاً مجدداً. لم تشأ المغادرة نوعاً ما. كانت سعيدة هنا طوال ثلاثة أشهر، بقدر ما يمكن أن يكون المرء سعيداً بين رجال مصابين بشدة، لكن الصداقة بين المتطوعات كانت كبيرة.

«أنتِ ذاهبة إلى كلية الطب؟». بدت إدوينا مذهولة. لم يكن لديها فكرة.

«لقد رتّب الدكتور دو بري الأمر»، قالت آنابيل بعينين راقصتين. تزداد حماستها يوماً بعد يوم. «لم أظن أبداً أن مثل هذا الأمر يمكن أن يحصل لي»، أضافت مع نظرة ذهول.

سألت إدوينا باهتمام «ما رأي عائلتك؟». عندها، مرّت سحابة داكنة فوق وجه آنابيل، الأمر الذي لم تفهمه إدوينا. «هل يمانعون بقاءك هنا؟ لا بد من أنهم قلقون عليك بسبب قربك من الجبهة». إذا انهارت خطوط الجبهات وتمت السيطرة على المستشفى، سيتم أخذهن جميعاً كسجينات. إنه خطر لم يسمحن لأنفسهن بالتفكير فيه بعد وصولهن إلى هنا، لكن الخطر حقيقي. شعر أهل إدوينا بالقلق بسبب مجيئها إلى هنا، خصوصاً أمها، لكنها جاءت على أي حال. شقيقاها في الحرب، وأرادت أن تكون جزءاً منها هي الأخرى.

قالت آنابيل بهدوء: «ليس لدي عائلة، خسرتهم جميعاً. توفيت أمي قبل عام، ومات والدي وأخي في التايتانيك». لم تذكر جوشيا، الذي كان خسارة أخرى في حياتها، لكن لا أحد هنا يعرف أنها كانت متزوجة، ولذلك لا داعي لشرح ذلك، ولا تريد ذلك على أي حال. إنها خسارة صامتة تحملتها لوحدها، وستفعل ذلك دوماً.

قالت إدوينا بهدوء: «أنا آسفة جداً، لم أكن أعرف». لم تملك أي منهما الوقت لإخبار قصصها، أو أي شيء آخر، وإنما فقط الفرصة لشرب كوب شاي وإلقاء التحية بين الحين والآخر. هناك الكثير من الأمور الأخرى الواجب فعلها، وبالكاد يوجد الوقت للملاطفات أو الفرص التي تسمح بإنشاء صداقات في ظروف أخرى. عملن جميعاً جنباً إلى جنب حتى الإرهاق، ثم خلدن إلى النوم على فراش على الأرض في غرف ساكنات المبنى القديمات الصغيرة والقديمة. ولعل الشيء الأكثر حماسة الذي استطعن القيام به هو تدخين سيجارة بين الحين والآخر والضحك على ذلك. جربتها آنابيل مرات قليلة، لمجاراة صديقاتها، لكنها لم تحبها كثيراً.

تحدثتا لبضع دقائق إضافية، ثم تمنت لها إدوينا ميلاداً سعيداً والحظ الجيد في كلية الطب. وعدتا بعضهما بقضاء بضع دقائق معاً، أو الاجتماع في قاعة المراسم الدينية، قبل أن تغادر، لكنهما لم تحسما إمكانية حصول ذلك. ثم ذهبت كل منهما في طريقها إلى القسم الذي تعمل فيه. كان يوم الميلاد مجرد يوم آخر للاهتمام بالمرضى والجرحى. ما من احتفالات، أو

أغانٍ، أو هدايا. حصل وقف لإطلاق النار خلال النهار، لكن عند الساعة السادسة مساء من تلك الليلة، خرق الألمان وقف إطلاق النار وجاء المزيد من الرجال تلك الليلة إلى المستشفى وقد فقدوا أطرافهم. إنه دفق لامتناهٍ من المعاناة البشرية مهما كان اليوم من السنة.

شعرت آنابيل بالامتنان للعمل بكدّ في ذلك اليوم. فقد منعها ذلك من التفكير في كل الأشخاص الذين أحبتهم وخسرتهم، لا سيّما التفكير في اثنين فقدتهما هذه السنة. لم تسمح لنفسها بالتفكير في ليلة الميلاد في منزل أمها العام الماضي. هذا مؤلم جداً. وستبدأ قريباً حياة جديدة في نيس. أجبرت نفسها على التركيز على ذلك كلما حصلت على استراحة ذلك اليوم، ولم يكن ذلك كثيراً. ركزت على ما ستكون عليه كلية الطب، لكنها تراءت لها بين الحين والآخر صور لأمها، أو سمعت صوتها... آخر مرة رأتها... وفكرت في ذلك فيما استلقت على فراشها تلك الليلة، متسائلة عن رأي أمها في كل ما حصل خلال العام الماضي. أملت أنها ستكون فخورة حين تصبح آنابيل طبيبة، أينما هي، تراقبها من الأعلى. عرفت أن أمها ربما لن توافق. لكن ماذا تملك الآن؟ ومن؟ أن تكون طبيبة هو الحلم الوحيد بالنسبة إلى آنابيل، أملها الوحيد بحياة جديدة تماماً.

الفصل السادس عشر

لم يلاحظ أحد رحيل آنابيل يوم غادرت المستشفى في رويامون في آسنيار. ذهبت لوداع الدكتور دو بري، وشكره في اليوم السابق، وودعت أيضاً الممرضة المسؤولة. عدا ذلك، ليس لديها أحد لوداعه باستثناء إدوينا التي رأتها لبضع دقائق ذلك الصباح. تمنتا الحظ الجيد لبعضهما، وقالتا إنهما تأملان لقاء بعضهما مجدداً. ثم صعدت آنابيل إلى الشاحنة التي أوصلتها إلى المحطة. ستأخذ القطار إلى نيس، وهذه رحلة طويلة ومرهقة. فكل الطرقات القريبة جداً من الجبهات تم تحويلها، وبات الجيش يسيطر على معظم القطارات.

احتاجت إلى يوم كامل وليلة كاملة للوصول إلى نيس. وحين وصلت أخيراً، عثرت على سيارتي أجرة في محطة القطار، تقودهما امرأتان. صعدت إلى إحدى السيارتين، وأعطت السائقة عنوان كلية الطب. إنها في ضواحي نيس، على هضبة، تطلّ على البحر، في قصر صغير كان يخصّ عائلة مؤسس كلية الطب، الدكتور غرومون. ثمة حدائق جميلة وبساتين فاكهة غنية حوله، ويصعب التصديق أن الحرب مندلعة في مكان آخر من العالم، وهناك غاز الأعصاب، والجثث المبعثرة، والناس الذين يموتون. شعرت هنا أنها محمية تماماً من العالم الحقيقي. إنه المكان الأكثر هدوءاً الذي رأته بعد نيوبورت، وذكّرها نوعاً ما بذلك المكان.

أرشدتها مدبرة منزل صارمة إلى غرفتها، وأعطتها الشراشف لترتيب سريرها بنفسها، وطلبت منها النزول إلى الأسفل عند الساعة الثامنة لتناول العشاء. يعيش طلاب السنة الأولى في مهجع. أما طلاب السنوات الأخرى، وجميعهم من الرجال، فيملكون غرفاً فردية. وبما أنها المرأة الوحيدة، حصلت على واحدة من غرفهم، وكانت غرفة مريحة تطلّ

على البحر. يعيش أربعة وأربعون طالباً في القصر، تم إعفاؤهم جميعاً من الخدمة العسكرية لسبب ما. ثمة رجل إنكليزي، وآخر اسكوتلندي، واثنان من إيطاليا فيما الباقون فرنسيون. آنابيل هي الأميركية الوحيدة. قيل لها إنها تستطيع ممارسة الطب في أميركا حين تعود بعد الخضوع لامتحان هناك، لكنها لا تفكر في ذلك الآن. خلال السنوات الست المقبلة، ستكون هنا، وشعرت أنه المكان المناسب لها. تأكدت من ذلك ما إن رأته. شعرت بالأمان والحماية.

غسلت وجهها ويديها، وارتدت فستاناً أسود نظيفاً، أحد أجمل الفساتين التي أحضرتها معها، وربطت شعرها إلى الخلف في جديلة رزينة. بدت رائعة فيما نزلت إلى الأسفل لتناول العشاء في تمام الساعة الثامنة.

يلتقي الطلاب في قاعة الرسم الكبيرة للقصر قبل موعد العشاء كل ليلة. يتحدثون بهدوء مع بعضهم، عن مسائل طبية عادة، علماً أنهم جميعاً موجودون هنا منذ شهر سبتمبر. آنابيل هي الوحيدة التي وصلت متأخرة، وحين دخلت الغرفة، توجهت جميع الأنظار إليها. استدار بعدها الطلاب الآخرون وتابعوا الحديث مع بعضهم وتجاهلوها. ذهلت باستقبالهم البارد، لكنها جلست بهدوء لوحدها حتى موعد العشاء، من دون أن تحاول المشاركة في حديثهم. رأتهم يلقون نظرات خاطفة عليها، لكن أياً منهم لم يأتِ للتحدث إليها. بدا وكأنها غير موجودة، وكأنهم يعتقدون أنها ستختفي إذا لم يعترفوا بوجودها.

جاء رجل عجوز يرتدي بذلة قديمة جداً، وناداهم لتناول العشاء، فانتقلت المجموعات إلى غرفة الطعام وجلس الجميع أمام ثلاث طاولات طويلة وقديمة. كل شيء قديم وبالٍ، لكنّ ثمة نوعاً من العظمة التي تشبه كثيراً فرنسا القديمة.

الدكتور غرومون، رئيس الكلية، جاء لإلقاء التحية عليها، ودعاها للجلوس قربه. كان مهذباً جداً حين عرّف عن نفسه، ثم أمضى معظم الوقت وهو يتحدث إلى الرجل الشاب الجالس إلى جانبه الآخر، والذي بدا في عمر الثلاثين تقريباً. تحدثا عن عملية جراحية راقباها ذلك اليوم،

ولم يحاول أبداً إشراك آنابيل في المحادثة.

في وقت لاحق من وجبة الطعام، تحدث إليها الدكتور غرومون قليلاً عن الدكتور دو بري وسألها عن حاله، لكنه لم يقل شيئاً أكثر من ذلك، ثم تمنى لها أمسية طيبة، وذهب الآخرون إلى غرفهم. لم يحاول أي من رفاقها الطلاب التعريف عن نفسه أو سؤالها عن اسمها. صعدت إلى غرفتها لوحدها، وجلست على سريرها، غير واثقة مما يجب فعله، وغير واثقة ما إذا كانت محقة في قرارها. ستكون ست سنوات طويلة جداً إذا لم يتحدث إليها أحد في القصر. بدا جلياً تماماً أنهم لم يسرّوا بوجود امرأة بينهم، ولذلك قرروا تجاهلها. لكنها ليست هنا لإقامة علاقات اجتماعية، وإنما جاءت للدراسة.

كانت في غرفة الطعام صباح اليوم التالي، في تمام الساعة السابعة، مثلما قيل لها. كان الفطور مقتصراً على بعض الأطعمة البسيطة، بسبب الحرب، وتناولت القليل فقط. جاء الآخرون وغادروا من دون التفوه بكلمة معها، ووجدت صفها في الوقت المناسب لبدء الدروس عند الساعة الثامنة. تم تخصيص القصر كله لكلية الطب، مما سمح للعائلة بالاحتفاظ به وتحمل نفقات صيانته. وحين بدأ الصف، تذكرت سبب وجودها هنا. كان الأمر مذهلاً. إنهم يدرسون عن أمراض الكلى، وعُرضت عليهم صور لعمليات جراحية. سيذهبون إلى المستشفى في نيس في اليوم التالي، حيث يراقبون جميعاً العمليات الجراحية ويعملون مع المرضى. بالكاد تستطيع الانتظار.

كانت لا تزال متحمسة نتيجة المحاضرة حين ذهبوا إلى الغداء، وشعرت بالامتنان للدكتور دو بري أكثر من أي وقت مضى. نسيت كم كان رفاق صفها غير ودودين معها، فتشاركت الحديث مع الرجل الإنكليزي، وعلّقت على المحاضرة. حدّق إليها كما لو أنها نزعت للتو كل ملابسها أمامه.

سألت ببراءة «عفواً، هل قلت شيئاً خطأ؟».

«لا أذكر أنني تحدثتُ إليك»، قال بفظاظة وهو ينظر إليها بازدراء وبرود، ففهمت تماماً أنه غير مهتم بتعليقاتها.

قالت بهدوء، رافضة أن يتم إذلالها: «لا، لكنني تحدثتُ إليك». سمعته يقول إنه متحدر من عائلة فيها أربعة أجيال من الأطباء. لا شك في أنه مغرور بنفسه، لكنه مثلها في السنة الأولى، بالرغم من أنه أكبر منها سناً. ذكر أمام شخص آخر أنه ذهب إلى إيتون، ثم إلى كامبريدج، مما يبرر الفرق في العمر بينهما. يظن جلياً أنه أكثر أهمية منها، ولا يرغب أبداً بتبديد وقته بالتحدث إليها. حقيقة كونها جميلة لم تؤثر فيه على الإطلاق. يهتم أكثر في أن يكون غير ودود معها ويضعها في حجمها الصحيح.

تابعت بلطافة، رافضة أن يخذلها «أنا آنابيل ورثينغتون». أرادت ضربه على رأسه بطبقها، لكنها ابتسمت بتهذيب ثم استدارت إلى الطالب الجالس إلى جانبها الآخر، وعرّفت عن نفسها. نظر إلى الرجل الشاب الجالس قبالته، كما لو أنه ينتظر تلميحاً من الآخرين، ثم ابتسم رغماً عنه.

قال بالفرنسية: «أنا مارسيل بوبيني». فنظر إليه الآخرون حينها وكأنه خائن، وحدقوا إلى أطباقهم فيما أكلوا الطعام.

تحدثت آنابيل ومارسيل عن المحاضرة التي ألقيت هذا الصباح، وساد الصمت في الغرفة طوال فترة الغداء. ليست محط ترحيب بوضوح، وحتى رئيس الكلية تجاهلها. أخذت دفترها وقلمها، وذهبت إلى صفها التالي، بعدما شكرت مارسيل على تحدثه معها. انحنى أمامها بتهذيب، وسمعت زملاءه يوبخونه على حديثه معها، فيما ابتعدت عنهم ورأسها مرفوع عالياً.

سمعت أحدهم يهمس للآخرين «لا أهتم إذا كانت رائعة المظهر، لا عمل لها هنا». لكنها تملك الحق في التواجد هنا بقدرهم. لقد دفعت قسطها، وتتوق إلى أن تصبح طبيبة بقدرهم، أو ربما أكثر. لكنهم اتفقوا بوضوح في ما بينهم على تحجيمها.

استمروا في معاملتها بفظاظة خلال أربعة أسابيع من الصفوف

والزيارات إلى المستشفى في نيس التي حصلت بمعدل ثلاث مرات أسبوعياً، حيث سمعوا المحاضرات وشاهدوا المرضى، ولاحظت أنها محطّ مراقبة الأساتذة والطلاب على حدٍّ سواء. أحسّت أن أي خطأ ترتكبه، أو أي عبارة غير صحيحة تتفوه بها ستستخدم فوراً ضدها، ولذلك انتبهت جيداً إلى كل كلمة قالتها. لغاية الآن، لم ترتكب أخطاء جلية، وحصلت على علامات مثالية في البحثين اللذين أعدتهما حول أمراض مجرى البول والكلى.

كرهها رفاقها الغيورون كثيراً في أثناء زيارة المرضى والتحدث إليهم. فهي تملك طريقة لطيفة وحنونة في التعامل معهم، وتطرح عليهم أسئلة ذكية عن أعراضهم، وكانت تجعلهم يشعرون معها بالارتياح على الفور. لقد فضّل المرضى التحدث إليها، والنظر إليها بثقة، أكثر من زملائها، وكان المرضى الذين يرونها أكثر من مرّة يُسرّون دوماً برؤيتها. وهذا ما أثار جنون رفاقها في الصف.

«أنت معتادة جداً على المرضى»، انتقدها ذات يوم الرجل الإنكليزي، الذي أصرّ دوماً على معاملتها بفظاظة.

قالت آنابيل بهدوء: «هذا ممتع، أظن أنك فظ جداً معهم».

«وكيف تعرفين؟ متى كنتِ في مستشفى قبلاً؟».

«أمضيت للتو ثلاثة أشهر قرب الجبهة في آسنيار، وعملت كمتطوعة في المستشفيات طوال ستة أعوام، آخر عامين منها مع المهاجرين الواصلين حديثاً إلى مستشفى إيليس آيلند في نيويورك». لم يقل شيئاً بعد ذلك، ولم يعترف لها، لكنه تأثر كثيراً بخبرتها لثلاثة أشهر في آسنيار. سمع من الآخرين كم الأحوال صعبة هناك. لحق بها مارسيل بوبيني بعد الصف، وسألها كيف كان العمل في رويامون. إنها أول محادثة حقيقية لها مع أي شخص هنا منذ شهر. وشعرت بالامتنان لوجود شخص ما أخيراً للتحدث معه.

قالت بصراحة: «كان صعباً، عملنا جميعاً لمدة ثماني عشرة ساعة يومياً، وأحياناً أكثر. النساء يدرن ويعملن، وهذا هو المفهوم الأساسي،

لكن بعض الأطباء الذكور جاؤوا الآن من باريس. يحتاجون إلى كل المساعدة الممكنة».

سألها باهتمام «وأي نوع من الحالات رأيت هناك؟».. رأى أن الآخرين أخطأوا في معاملتها بفظاظة. استلطفها. تملك روحاً رياضية، وتعمل بكدّ، وهي غير مدّعية.

«رأينا خصوصاً الأطراف المبتورة، والكثير من الغرغرينا، والانفجارات، وغاز الأعصاب، والديزنتريا، والكوليرا، والكثير من الأمور الممكن توقعها قرب الجبهة». قالت ذلك بطريقة بسيطة وبديهية، من دون محاولة التأثير فيه أو التبجح بنفسها.

«وما الذي سُمح لك بفعله؟».

«المخدّر في غرفة العمليات، بين الحين والآخر. أفرغت خصوصاً الأوعية الجراحية، لكن الطبيب الجراح كان لطيفاً جداً، وعلّمني الكثير من الأمور. بقية الأوقات، كنت في قسم الجراحة، أهتم بالرجال بعد الجراحة، وقدت مرتين سيارة إسعاف لإحضار المصابين».

«هذا رائع بالنسبة إلى شخص لا يملك تدريباً رسمياً». لقد تأثر بها.

«يحتاجون إلى المساعدة». أومأ برأسه، متمنياً لو كان هناك بنفسه. قال ذلك لأنابيل، وابتسمت له. إنه الوحيد بين زملائها الذي تصرف معها بطريقة حضارية، وكان لطيفاً. معظمهم تجاهلوها.

في شهر فبراير، بعد شهر ونصف الشهر على وصولها إلى هناك، كان الجميع متحمسين في أثناء العشاء، يناقشون معركة فردان، التي بدأت قبل أيام عدة، وسببت لغاية الآن خسارة كبيرة في الأرواح من كلا الطرفين. إنها معركة شريرة أزعجتهم جميعاً، وأشركها مارسيل في المحادثة. كان الآخرون متحمسين جداً في المناقشة، بحيث نسوا تقطيب حواجبهم أو تجاهلها حين تكلمت.

بقيت معركة فردان الموضوع الرئيسي للمحادثة كل ليلة في أثناء

العشاء، إلى أن نشبت بعد أسبوعين، في بداية شهر مارس، معركة إيسونزو الخامسة، في إيطاليا ضد النمسا والمجر. تراوحت المحادثة بين المسائل الطبية والحرب. إنها مصدر قلق لهم جميعاً.

في النهاية، سألها الرجل الإنكليزي متى ستنضم أميركا إلى الحرب. لا يزال الرئيس ويلسون يُطمئن الجميع بأنهم لن يدخلوا الحرب، لكن لم يعد سراً أن الولايات المتحدة تموّل كلا الطرفين، وتم انتقادها كثيراً على ذلك. قالت أنابيل بوضوح إنها ترى ذلك خطأً، ووافقوها الرأي. رأت أنه يجدر بالولايات المتحدة دخول الحرب، والمجيء إلى أوروبا لمساعدة حلفائها. من ثم انتقلت المحادثة إلى اللوسيتانيا، وظن الجميع أنه تم قصفها بسبب موارد الحرب التي كانت تنقلها سراً، بالرغم من أنه لم يتم إعلان هذا الأمر رسمياً. وأدى الحديث عن لوسيتانيا إلى الحديث عن التايتانيك وأصبحت أنابيل هادئة وبدت متألمة. روبير، الرجل الإنكليزي، لاحظ ذلك وأبدى ملاحظة. «لم تكن هذه رحلة مسلية»، اعترف مع ابتسامة.

قالت بهدوء: «ولا بالنسبة إليّ، كان والداي وأخي على متنها»، قالت فيما الجميع حول الطاولة حدقوا إليها.

«وهل نجحوا في النجاة؟»، سأل أحد الطلاب الفرنسيين، وهزّت رأسها. «صعدت أمي في أحد قوارب النجاة، لكن أبي وأخي غرقا مع السفينة».

تأسف الجميع لذلك وحوّل مارسيل الحديث ببراعة إلى أمور أخرى، محاولاً تخفيف المسألة عليها. استلطفها وأراد حمايتها من الآخرين. لكن شيئاً فشيئاً، أصبحوا أكثر ليونة معها أيضاً. فمن الصعب مقاومة لطافتها، وبساطتها، وذكائها، وتواضعها.

بعد أسبوعين من ذلك، تم قصف سفينة الركاب الفرنسية ساسكس، مما أعاد إشعال الأمور مجدداً. في ذلك الحين، أصبح الوضع أسوأ على الجبهة، ومات أربعة ملايين شخص تقريباً. يزداد عدد الوفيات يوماً بعد يوم. في بعض الأحيان، صرف ذلك انتباههم عن دراستهم ولم يتحدثوا

عن أي شيء آخر. لكنهم عملوا جميعاً بكدّ. ما من متسكعين في المجموعة، وبرزت براعة كل طالب لأن الصفوف صغيرة جداً.

من دون أن يقصدوا ذلك فعلاً، أصبحوا جميعاً مرتاحين مع آنابيل بحلول شهر أبريل، وفي شهر مايو بات العديد منهم راغبين بالتحدث إليها، ومناقشة الأمور معها، وحتى الضحك معها. أصبحوا يحترمون أسئلتها الذكية والهادئة، وكان أسلوب تعاطيها مع المرضى أفضل كثيراً من أسلوبهم. لاحظ كل أساتذتها ذلك، وكتب الدكتور غرومون منذ وقت طويل للدكتور دو بري ليؤكد له أنه لم يرتكب خطأ. أخبره أن آنابيل ورثينغتون طالبة ممتازة، وستكون طبيبة رائعة في يوم ما. وبالنسبة إلى آنابيل، مقارنة مع أسنيار، كان المستشفى في نيس هادئاً جداً، وإنما ممتعاً على أي حال. وحققت أخيراً أمنيتها. بدأوا يشرّحون الجثث، ووجدت الأمر ممتعاً مثلما ظنت دوماً.

استمرت أخبار الحرب في صرف انتباههم، فيما تابعوا دروسهم خلال الصيف. في الأول من يوليو، بدأت معركة السوم، مع أكبر عدد من الإصابات في الحرب لغاية الآن. ففي نهاية اليوم، كان هناك ستون ألف قتيل وجريح. الأرقام مرعبة. ومع استمرار الصيف، باتت الأمور أسوأ. نتيجة ذلك، صعب عليهم التركيز على دراستهم. باتت الخسائر كبيرة لآلاف الأشخاص مع استمرار الحرب، التي كانت من دون نهاية على ما يبدو. فقد مضى على دخول أوروبا الحرب عامان حينها.

في شهر أغسطس، حاولت عدم السماح لنفسها بالتفكير في ذكرى زواجها من جوشيا. إنها ثالث ذكرى لهما، ومضى على وجودها في أوروبا أحد عشر شهراً. يصعب تصديق ذلك. لقد مرّ الوقت بسرعة منذ جاءت إلى كلية الطب في نيس. إنهم ينجزون الكثير من الأمور، ويحاولون تعلّم الكثير. وباتوا يعملون مع المرضى على نحو أكثر تواتراً الآن، ويمضون ثلاثة أيام كاملة في الأسبوع في المستشفى في نيس. وصل مصابو الحرب إلى هناك، لأن الرجال المصابين غير العائدين إلى الجبهة سيُنقلون إلى أمكنة قريبة من منازلهم. صادفت حتى رجلين اهتمت بهما في أسنيار.

تحمسا لرؤيتها، وكانت تمرّ لزيارتهما كلما سنحت لها الفرصة.

في ذلك الوقت، أصبحت هي ومارسيل صديقين جيدين. تحدثا كل ليلة بعد العشاء، ودرسا معاً في أغلب الأحيان. وتقبّلها بقية الطلاب أخيراً بينهم. باتت محبوبة ومستلطفة ومحترمة من قبل زملائها. حتى إن بعض رفاقها الطلاب ضحكوا على تصرفهم السيّئ معها في البداية، وأصبح روبير، الرجل الإنكليزي المتبجح الذي كان فظاً جداً معها، صديقها. صعب على أيّ منهم إيجاد خطأ في عملها، وكانت لطيفة جداً معهم جميعاً. قال لها مارسيل إنها العرابة في وسطهم.

كانا يمشيان بين البساتين ذات يوم، بعد الصفوف، حين استدار صوبها مع نظرة فضوليةَ.

سألها «لماذا لم تتزوج امرأة جميلة مثلك؟».

عرفت أنه لا يغازلها، لأنه عقد للتو خطوبته على امرأة شابة في نيس. إنها صديقة عائلته منذ أعوام. إنه من بوليو، من منطقة غير بعيدة، ويذهب إلى منزله لزيارة أهله، أو حتى لتناول العشاء، بقدر ما يستطيع. تزوره خطيبته في الكلية، واستلطفتها آنابيل كثيراً.

«لا أظن أنني أستطيع الزواج والعمل كطبيبة. أليس كذلك؟»، أجابته وهي تعكس السؤال. برأيها، الأمر مختلف جداً بين المرأة والرجل. كي تكون المرأة طبيبة، تحتاج إلى الكثير من التضحية والالتزام.

«لماذا أشعر أنك جئت إلى أوروبا مع قلب محطم؟». إنه رجل ذكي، ولاحظ ذلك في عينيها. «لست واثقاً كثيراً من فكرة تضحيتك بحياتك الشخصية من أجل مهنتك، لكنك ربما تخافين امتلاك حياة شخصية وتختبئين وراء مهنة الطب. أظن أنه يمكنك الحصول على الاثنين معاً»، قال ذلك بلطافة فيما نظر إلى عينيها.

تجنبت الإجابة عن سؤاله لبرهة وقضمت تفاحة. أصبح عمرها ثلاثة وعشرين عاماً في شهر مايو. إنها جميلة وحيوية، وتخاف من التعرض للأذى مجدداً. مارسيل محق. فهمها جيداً.

تابع قائلاً: «وراء الضحك والابتسامات الرقيقة، يوجد شيء حزين جداً، ولا أظن أن للأمر علاقة بأهلك. تبدو النساء غالباً هكذا حين يتحطم القلب بسبب رجل». أسف لحصول ذلك لها. فهي تستحق رجلاً لطيفاً وحنوناً، أكثر من أي شخص آخر يعرفه.

مازحته بابتسامة حزينة «عليك أن تكون عرّافاً بدلاً من طبيب» فضحكت. لكنه عرف أنه محق، حتى لو لم تؤكد ذلك له. ولا تنوي إخباره أبداً بأنها مطلقة. لا ترغب بالاعتراف بذلك أمام أي كان، ولا حتى لمارسيل، بعد أن أصبحا صديقين. تشعر بالكثير من العار.

تلقت رسالة من مصرفها الشهر الماضي، علمت من خلالها وصول الأوراق النهائية لطلاقها. أصبحت الآن وجوشيا مطلقين. تلقت منه رسالة وحيدة فقط خلال العام الماضي، في الميلاد، يقول لها فيها إنه لا يزال وهنري في مكسيكو. لا تعرف الآن إذا كانا لا يزالان هناك، وأملت أن يكونا بخير. استنتجت مما كتبه لها أنهما مريضان جداً. كتبت له رسالة، وأعربت فيها عن قلقها، لكنها لم تسمع أي شيء منه بعدها. لم تلق رسالتها أي جواب.

«هل أنا محق؟»، أصرّ مارسيل. استلطفها، وتمنى غالباً أن يعرف المزيد عنها. لم تتحدث أبداً عن طفولتها أو ماضيها. بدا وكأنها لا تملك ماضياً. كل ما أرادته الآن هو سجل نظيف والبدء مجدداً. أحسّ حين تحدث إليها أنه توجد أسرار في ماضيها.

«لا يهم. أنا الآن هنا، سواء أكنت محطمة القلب أم لا؟».

«هل تظنين أنك ستعودين يوماً؟». لطالما شعر بالفضول بشأنها.

أصبحت هادئة فيما فكرت في ذلك، وأجابته بصراحة. «لا أعرف. لا أملك شيئاً هناك، باستثناء منزل في رود آيلند». لا يزال خدم أهلها هناك، يهتمون بالمنزل، ويأملون عودتها. تكتب إلى بلانش بين الحين والآخر، ولكن لا أحد سواها. «لقد مات كل أفراد عائلتي. لا أملك سبباً للعودة».

«لا بد أنّ لديك أصدقاء»، قال وهو ينظر إليها بحزن. يكره التفكير فيها لوحدها. إنها إنسانة ناعمة، ولطيفة، وحنونة بحيث لا يتخيل أن لا أصدقاء لديها، حتى لو كانت خجولة. «لقد كبرت مع أشخاص. لا بد من أنهم لا يزالون هناك». ما قاله جعلها تفكّر في هورتي، وهزّت رأسها. لم يبقَ لديها أصدقاء. مهما كانت نواياه جيدة، أوصلها جوشيا إلى ذلك. كان ساذج التفكير حين ظنّ أنه يفعل لها الشيء الصحيح، عبر طلاقهما. كل ما فعله أدّى إلى نبذها من عالمها. الصديق الوحيد الذي تملكه الآن هو مارسيل.

«لا. كل شيء تغير في حياتي. لهذا السبب جئت إلى هنا». لكنها ليست واثقة إذا كانت ستبقى. لا تنتمي الآن إلى أي أحد وإلى أي مكان. حياتها الوحيدة هي كلية الطب، وستبقى كذلك خلال السنوات الخمس المقبلة. منزلها هو القصر. مدينتها الوحيدة هي نيس. والرجال الذين تذهب معهم إلى الجامعة هم الأصدقاء الوحيدون الذين لديها، وخصوصاً هو.

قال ببساطة: «أنا مسرور لأنك فعلتِ ذلك». من دون التطفل عليها أو إحياء جروح قديمة.

ابتسمت له «وأنا أيضاً». عادا ببطء إلى القصر. ذُهل مارسيل لأن أياً من رفاقه في الصف لم يهتم بها عاطفياً. لكن آنابيل أطلقت رسالة غير منطوقة مفادها لا تقتربوا كثيراً. ثمة جدار حولها الآن. أحسّ مارسيل بذلك، لكنه لا يعرف السبب، وظن أن هذا مؤسف. فإبقاء مسافة حولها مثلما فعلت هو تبديد لامرأة رائعة برأيه. رأى أنها تستحق رجلاً، وأمل حصول ذلك مع الوقت.

كان صيفاً طويلا وحاراً في القصر، انطوى على الدراسة وزيارة المستشفى، وأخيراً، في شهر أغسطس، حصلوا على إجازة لمدة أسبوعين للذهاب إلى منازلهم أو المغادرة في إجازة. آنابيل هي الطالبة الوحيدة التي بقيت. لا تملك أي مكان آخر للذهاب إليه. قامت بنزهات طويلة، وتسوّقت قليلاً في نيس، بالرغم من عدم وجود الكثير في المتاجر بسبب الحرب. اشترت بعض الأشياء لتجديد خزانتها لأن معظم ما أحضرته معها اقتصر

على الملابس السوداء، ولم تعد في فترة الحداد على أمها. وبعد ظهر أحد الأيام، حين استطاعت استعارة شاحنة قديمة يحتفظون بها في الكلية، توجهت إلى الأنتيب والمناطق المحيطة بها، وعثرت على دار عبادة قديمة وجميلة من القرن الحادي عشر، ووقفت تنظر إلى المشهد من أعلى البلدة. إنه بعد ظهر مثالي، ومشهد رائع.

توقفت وتناولت العشاء في مقهى صغير، وعادت تلك الليلة إلى الكلية. حتى الدكتور غرومون كان بعيداً، وبقيت آنابيل لوحدها في القصر مع الخادمتين. عاشت أسبوعين هادئين، وسعدت حين عاد الآخرون، خصوصاً مارسيل. قالوا جميعاً إنهم أمضوا وقتاً جيداً، بالرغم من أن صديقها الإنكليزي الذي أزعجها كثيراً في البداية، روبير، عاد محطماً لأنه فقد شقيقه في الحرب. لقد فقد العديد منهم إخوة وأقارب وأصدقاء. إنه تذكير قاسٍ بالاضطراب الذي تعيشه أوروبا ويبدو أنه لن ينتهي.

حين بدأوا الصفوف مجدداً في شهر سبتمبر، كانت معركة السوم لا تزال مستعرة، مثلما كانت طوال الشهرين الماضيين. وكان عدد الضحايا يرتفع كل يوم. أخيراً، انتهت المعركة في منتصف شهر نوفمبر، مما بعث الارتياح لدى الجميع. طوال عشرة أيام، ساد السلام في نهاية معركة مريعة أفضت إلى أكثر من مليون قتيل وجريح. وبعد عشرة أيام فقط من انتهاء هذه المعركة، هاجم الألمان البريطانيين بالطائرات للمرة الأولى. تم إدخال مفهوم جديد تماماً في الحرب، مما أرعب الجميع. وبحلول الميلاد، شعروا جميعاً بالإحباط نتيجة عدد القتلى والهجمات المستمرة. خسر اثنان آخران من الطلاب أخويهما. وفي نهاية الشهر، جمعهم الدكتور غرومون في القاعة الأساسية، مع رسالة من الحكومة الفرنسية، أراد قراءتها لهم. إنها نداء لكل أفراد الطاقم الطبي المدرب لتقديم المساعدة على الجبهة. إنهم بحاجة ماسة إلى مستشفيات ميدانية في كل أنحاء فرنسا. كان هادئاً بعدما قرأ الرسالة، وقال لهم إنه يعود إليهم أن يختاروا ما يريدون فعله. قال إن الكلية ستمنحهم إجازة، إذا أرادوا ذلك، من دون أي إجحاف، وسيعودون فوراً إلى مقاعدهم الدراسية عند عودتهم. تلقوا الرسائل من المستشفيات طوال

أشهر، بما في ذلك رسالة حديثة من إلسي إينغلِس مجدداً، هذه المرة في فيليرز – كوتريت، شمال شرق باريس، بالقرب من الجبهة أكثر من آسنيار ورويامون حيث كانت آنابيل. وهناك أيضاً، كان كل أفراد الطاقم الطبي في فيليرز – كوتريت من الإناث، وسيتم الترحيب بآنابيل هناك.

تحدث جميع الطلاب عن ذلك تلك الليلة خلال العشاء، وكان النقاش متوتراً. في الصباح، اتخذ نصفهم القرار، وذهبوا لرؤية الدكتور غرومون الواحد تلو الآخر. سيغادرون خلال الأيام القليلة التالية. بالإضافة إلى ذلك، كان الشتاء مريراً على الجبهة، ومات الرجال بسبب جروحهم ومرضهم وانكشافهم في كل أوروبا. الذين قرروا المغادرة لم يستطيعوا مقاومة نداء المساعدة. وفي النهاية، غادر كل الطلاب باستثناء أربعة منهم. اتخذت آنابيل قرارها في اليوم الأول. حزنت لوقف تدريبها الطبي، لكنها شعرت أنه لا يوجد فعلاً أي خيار آخر. فالبقاء في الكلية هو تصرف أناني.

سألها الدكتور غرومون مع ابتسامة حزينة «هل ستتركيننا؟». لكنه لم يتفاجأ. في العام الماضي، أصبح يستلطفها ويحترمها كثيراً. ستكون طبيبة ممتازة في يوم ما، وهي الآن كذلك في العديد من النواحي.

قالت بحزن: «عليّ الذهاب». كرهت ترك الكلية في القصر. أضافت: «سأعود».

«أتمنى ذلك»، قال وهو يقصد ذلك فعلاً. «إلى أين ستذهبين؟».

«إلى مستشفى إينغليس في فيليرز – كوتريت، إذا قبلوني بينهم». بعد التدريب الذي خضع له الطلاب، يستطيعون جميعاً العمل كمسعفين طبيين. تستطيع الآن فعل شيء أكثر من الذي قامت به في آسنيار، وستكون مفيدة أكثر للرجال.

«كوني حذرة آنابيل. حافظي على سلامتك. سنكون في انتظارك هنا»، طمأنها.

قالت بهدوء: «شكراً»، وعانقته بحرارة. وضّبت حقائبها تلك الليلة، وتركت اثنتين منها في القصر، وقررت أخذ حقيبة واحدة فقط معها. في

اليوم التالي، رحل كل الطلاب باستثناء الأربعة الباقين.

تعانقوا جميعاً، وتمنوا لبعضهم الحظ، ووعدوا بعضهم بالعودة حين غادروا. كان وداعهم لآنابيل أخوياً وحنوناً، وألحّوا عليها جميعاً للاهتمام بنفسها، وتمنت هي الشيء نفسه لهم.

اصطحبها مارسيل إلى القطار قبل أن يغادر. كانت تحمل حقيبة صغيرة فيما مشت قربه. إنه صديقها الحقيقي الوحيد، وكان لطيفاً معها منذ البداية. لا تزال تشعر حياله بالامتنان على ذلك.

«اعتني بنفسك»، قال مارسيل فيما عانقها للمرة الأخيرة وقبّلها على وجنتيها. «أتمنى أن نعود جميعاً إلى هنا قريباً»، قال بحرارة. سيغادر في وقت متأخر من بعد الظهر.

«وأنا أيضاً». لوّحت له حتى اختفى عن ناظريها، ووقف هو على منصة يلوّح لها. كانت آخر مرة تراه فيها. فبعد أسبوعين، كان يقود سيارة إسعاف سارت فوق لغم. كان أول ضحايا كلية الدكتور غرومون، وخسرت آنابيل صديقاً آخر.

الفصل السابع عشر

وصلت آنابيل إلى المستشفى الذي أسسته إلسي إينغليس في فيليرز – كوتريت، على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً شمال شرق باريس. وهو يبعد خمسة عشر ميلاً تقريباً عن الجبهة. إذا أصغيت بعناية، يمكنك سماع دويّ الانفجارات في البعيد. تم افتتاح المستشفى للتو، وفيه غرفة عمليات أكبر وأكثر قوة من ذلك الذي عملت فيه في آسنيار العام الماضي. تديره وتعمل فيه أطقم طبية نسائية، مثلما أرادت الدكتورة إينغليس. جنسياتهنّ تمثل العديد من دول التحالف، وهنّ موزعات بالتساوي تقريباً بين فرنسا وإنكلترا، وكانت آنابيل واحدة من ثلاث أميركيات. حظيت هذه المرة بغرفة محترمة، وإن كانت صغيرة، تشاركتها مع امرأة أخرى. وتم إحضار جميع المرضى من الجبهة. المجازر التي رأينها كانت فظيعة، مع أجساد ممزقة وعقول مشتتة وعدد هائل من القتلى.

انتقلت سائقات سيارات الإسعاف باستمرار من وإلى الجبهة، حيث تم سحب الرجال من الخنادق المقصوفة، وهم يتألمون ويموتون. في كل مرة، كانت طبيبة تنتقل مع سيارة الإسعاف وسائقتها، ولا بد من أنهنّ يملكن تدريباً ومعرفة كافيين لإنجاز جولات بطولية في الطريق لإنقاذ الرجال الذين ينقلونهن إلى المستشفى. وإذا كان الرجال مصابين بوخامة بحيث يتعذر نقلهم، كانوا يُتركون في المستشفيات الميدانية التي أنشئت قرب الخنادق. لكن عند الإمكان، كان الجنود المصابون يُعادون إلى المستشفى في فيليرز – كوتريت للخضوع للجراحة والعناية الفائقة.

بعد أن أمضت الآن سنة كاملة في كلية الطب، ومع سنوات عملها التطوعي قبل ذلك، تم فصل آنابيل إلى وحدة الإسعاف، وارتدت الزي الرسمي للأطباء. عملت ثماني عشرة ساعة يومياً، وقفزت فوق الطرقات

الوعرة، وحملت أحياناً الرجال بين ذراعيها، حين لم يكن في وسعها فعل أي شيء آخر. كافحت بشدة لإنقاذهم بالوسائل المتوافرة بين يديها، وباستعمال كل التقنيات التي تعلمتها. أحياناً، وبالرغم من جهودها الحثيثة، والعودة المتأخرة إلى المستشفى، كانت إصابات الرجال وخيمة للنجاة، وكانوا يموتون على الطريق.

وصلت إلى فيليرز - كوتريت يوم رأس السنة، وكان يوم عمل آخر بالنسبة إليهن جميعاً. قُتل أكثر من ستة ملايين رجل في الحرب حتى الآن. خلال العامين ونصف العام على اندلاع الحرب، هلك القسم الأكبر من أبناء أوروبا التي كانت تخسر رجالها أمام فظاعة الحرب التي التهمتهم بالآلاف. شعرت آنابيل أحياناً وكأنهم يفرغون المحيط بفنجان شاي، أو أسوأ، بمقشة. هناك الكثير من الجثث الواجب انتشالها، وقد بقي القليل فقط من بعضها، والكثير من العقول التي لن تتعافى أبداً من الفظاعات التي حصلت. كان الأمر صعباً على أفراد الطاقم الطبي أيضاً، وكانوا جميعاً يشعرون بالإرهاق والتعب في نهاية كل يوم. لكن مهما كان الأمر صعباً، أو مهما كان محبطاً أحياناً، صممت آنابيل أكثر من أي وقت مضى على قرارها بأن تصبح طبيبة، وبالرغم من أن قلبها تحطم في العديد من الأحيان، أحبت العمل، وبرعت فيه.

في شهر يناير، كان الرئيس ويلسون يحاول ترتيب نهاية للحرب، باستعمال الوضع الحيادي للولايات المتحدة لتشجيع الحلفاء على تحديد أهدافهم للتوصل إلى سلام. لم تثمر جهوده نفعاً، وبقي مصمماً على إبقاء بلاده خارج الحرب. لم يفهم أحد في أوروبا كيف استطاع الأميركيون عدم الانضمام إلى قوات الحلفاء، ولم يصدق أحد في يناير 1917 أن أميركا ستبقى بعيدة عن الحرب لفترة طويلة.

في الأول من فبراير، استأنفت ألمانيا حرب الغواصات المفتوحة. بعد يومين، قطعت الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية معها. وفي غضون ثلاثة أسابيع، طلب الرئيس الإذن من الكونغرس لتسليح السفن التجارية الأميركية في حال التعرض لهجوم من الغواصات الألمانية.

رفض الكونغرس الطلب، لكن في 12 مارس، وبناء على أمر تنفيذي، أعلن ويلسون أنه سيتم تسليح السفن التجارية من الآن وصاعداً. بعد ثمانية أيام، في 20 مارس، صوّتت حكومة الحرب بالإجماع على قرار إعلان الحرب على ألمانيا.

ألقى الرئيس خطاب الحرب أمام الكونغرس في 2 أبريل. وبعد أربعة أيام، في 6 أبريل، تم إعلان الحرب على ألمانيا من قبل الولايات المتحدة. أخيراً، دخلت أميركا الحرب، وكان الحلفاء في أوروبا بحاجة ماسة إلى مساعدتها. خلال الأسابيع والأشهر التالية، سيغادر الشباب الأميركيون وطنهم، ويودعون عائلاتهم، وزوجاتهم، وصديقاتهم، ويذهبون إلى التدريب. سيتم نقلهم عبر البحار خلال شهرين. بين ليلة وضحاها، تغير كل شيء في الوطن.

«إنه زمن اللعنة»، قالت إحدى النساء الأميركيات في فيليرز - كوتريت لآنابيل حين التقتا في قاعة الطعام في وقت متأخر من ذات ليلة. تعمل كل منهما تسع عشرة ساعة في اليوم. تعمل هي والنساء الأميركيات الأخريات كممرضات، وتعرف أن آنابيل طبيبة.

سألت باهتمام «هل كنت تتدربين كممرضة قبل الحرب؟». إنها امرأة شابة جميلة من الجنوب وتملك لكنة ألاباما القوية. اسمها جورجيانا وترعرعت على أنها جميلة من الجنوب، لكن الأمر لم يعد مهماً هنا، تماماً مثلما لم يعد لتربية آنابيل الراقية في قصر عائلتها الأنيق في نيويورك أي علاقة بحياتها اليومية. كل ما أعطاها إياه ذلك كان التربية المحترمة، والتصرفات المهذبة، والقدرة على التحدث بالفرنسية. أما الباقي فلم يعد مهماً.

قالت آنابيل وهي ترتشف الحساء: «كنت في كلية الطب في جنوب فرنسا خلال العام الماضي». حاولوا توزيع حصص الطعام قدر المستطاع، لتكفي أفراد الطاقم الطبي والمرضى على حدٍّ سواء. نتيجة ذلك، لم يحصل أي منهم على وجبة محترمة منذ أشهر، لكن هذا جيد كفاية. خسرت آنابيل الكثير من وزنها خلال الأشهر الأربعة التي مضت على وجودها هنا. بالكاد تستطيع التصديق أنها في شهر أبريل 1917، ومضى على وجودها في

فرنسا تسعة عشر شهراً.

تأثرت جورجيانا بدراسة أنابيل الطب، وتحدثتا عن الموضوع دقائق قليلة. كانتا منهكتين. الممرضة فتاة جميلة ذات عينين خضراوين كبيرتين وشعر أحمر ساطع، وضحكت حين اعترفت أنه بعد مرور عامين على وجودها هنا، لا تزال تتحدث الفرنسية بشكل سيّئ، لكن أنابيل عرفت، مما سمعته، أنها تنجز عملها جيداً بالرغم من ذلك. لم تعرف يوماً هذا القدر من الأشخاص الكفوئين والمتفانين وأصحاب الضمير في حياتها. لقد أعطوا جميعاً كل ما لديهم.

«هل تظنين أنك ستنهين كلية الطب؟»، سألتها جورجيانا، وأومأت أنابيل برأسها وهي تبدو شاردة.

«أتمنى ذلك». لم تتخيل شيئاً يردعها، باستثناء الموت.

«ألا تريدين العودة إلى الوطن حين ينتهي ذلك؟». لا تتخيل جورجيانا نفسها وهي باقية هنا. لديها عائلة في ألاباما، ثلاث أخوات أصغر منها سناً، وأخ. لا تريد أنابيل العودة إلى نيويورك. لا تملك شيئاً هناك، باستثناء العقاب والألم.

«ليس تماماً. لا أملك الكثير هناك. أظن أنني سأبقى». فكّرت كثيراً في الأمر في الآونة الأخيرة، وحسمت أمرها. أمامها خمس سنوات أخرى في كلية الطب، وتريد بعد ذلك الذهاب إلى باريس، والعمل هناك. ربما مع الدكتور دو بري، إذا كانت محظوظة. لا تريد أي شيء في نيويورك الآن. وعليها الخضوع للتدريب لسنة إضافية هناك. أصبحت مقتنعة الآن أن حياتها في الولايات المتحدة باتت من الماضي. المستقبل الوحيد الذي تملكه هو هنا. إنها حياة جديدة تماماً، حيث لا يعرف أحد ماضيها، أو عار طلاقها. في فرنسا، مثلما يعرف الجميع، لم تتزوج أبداً. ستبلغ الرابعة والعشرين بعد أسابيع. وفي يوم ما، مع العمل الكثير وبعض الحظ، ستصبح طبيبة. كل ما تملكه في نيويورك هو العار، بالرغم من أنها ليست غلطتها أبداً.

ذهبت المرأتان في طريقين منفصلين خارج قاعة الطعام، وعادت

كل منهما إلى عملها بعد أن وعدتا بعضهما باللقاء مجدداً، إذا حصلتا على إجازة، علماً أنهنّ في المستشفى لا يأخذن هذه الإجازة حتى لو حظين بها. لم تأخذ أنابيل أي إجازة من مهامها كطبيبة منذ وصولها.

انتهت المعركة الثالثة في شامباني بكارثة للفرنسيين في أواخر أبريل، وأغدقت عليهم بدفق من المصابين الجدد، مما أبقاهم جميعاً مشغولين. كانت أنابيل تنقل الرجال باستمرار من الجبهة. التشجيع الوحيد الذي حظوا به هو انتصار كندي في معركة فيلمي ريدج. وبسبب الإحباط الكبير بين صفوفهم، حصلت ثورات تمرّد بين الفرنسيين خلال الأسابيع الأولى من شهر مايو. وصلت أيضاً تقارير مستمرة عن الثورة الروسية؛ حيث تخلى القيصر عن العرش في شهر مارس. لكن كل شيء حصل أبعد من المستشفى والجبهة المجاورة بدا بعيداً جداً بالنسبة إليهم جميعاً في فيليرز – كوتريت. إنهم منشغلون كثيراً بالعمل الذي بين أيديهم للاهتمام بأي شيء آخر.

نسيت أنابيل ذكرى ميلادها تماماً. مرّ يوم تلو الآخر، ولم يكن لديها فكرة عن التاريخ. أدركت بعد أسبوع، حين رأت صحيفة أحضرها أحدهم من باريس، أنها أصبحت في الرابعة والعشرين. بعد شهر في يونيو، تحمس الجميع لمعرفة وصول أولى الفرق الأميركية إلى فرنسا.

بعد ثلاثة أسابيع، في منتصف يوليو، وصلت مجموعة من الأميركيين إلى فيليرز – كوتريت وأنشأوا مخيماً في ضواحي المدينة. انضمت إليهم خلال أسبوع فرق بريطانية، وكانوا يستعدون جميعاً للحرب في إيبر. انتعشت المنطقة كثيراً بوجود فرق أميركية وبريطانية تتجول في كل مكان. كانوا يجذبون بسعادة كل النساء المحليات، وكانت الشرطة العسكرية تسحبهم باستمرار من المشارب والشارع وهم في حالات مذرية، وتعيدهم إلى مخيماتهم. وفّر ذلك على الأقل وسيلة لصرف الانتباه عن الحرب، بالرغم من أن بعض الجنود كانوا فظين جداً، كان بعضهم الآخر لطفاء جداً. رأت أنابيل مجموعة من الجنود الأميركيين ذات يوم، يمشون مع بعض الفتيات الفرنسيات، فيما كانت عائدة في سيارة الإسعاف من مستشفى ميداني مجاور. لم تكن في مزاج للتحدث إليهم، لأن الرجل الذي كانت

تعيده إلى المستشفى في فيليرز – كوتريت مات خلال الطريق. لكن حين مرّت سيارة الإسعاف أمام الأميركيين، صرخوا ولوّحوا بعد أن رأوا امرأتين جميلتين جداً في السيارة. وفي لحظة حنين، شعرت بتوق كبير إلى سماع أصوات أميركية. لوّحت وابتسمت لهم. ركض أحد الرجال الذين يرتدون البذلة العسكرية قرب السيارة ولم تستطع منع نفسها من قول مرحبا بالإنكليزية.

«هل أنت أميركية؟»، سألها بذهول، وتوقفت سائقة سيارة الإسعاف وابتسمت. رأت أنه ظريف. إنها فرنسية.

قالت آنابيل: «نعم»، وهي تبدو متعبة.

«متى وصلت إلى هنا؟ ظننتُ أن الممرضات لن يصلن قبل الشهر التالي». تبرز الحاجة إلى وقت لتنظيم فرق تطوع النساء أكثر مما هي الحال مع رجال الاحتياط.

ضحكت على السؤال. ثمة لكنة من بوسطن في صوته، وعليها الاعتراف أنها استمتعت بسماعها. شعرت وكأنها في وطنها. «مضى على وجودي هنا عامان»، قالت وهي تبتسم ابتسامة عريضة. «تأخرتم أيها الشباب».

«نعم صحيح. لكننا سنركل الألمان ونعيدهم إلى حيث أتوا. تركوا النخبة للنهاية». بدا مثل ولد، وكان هكذا فعلاً، وذكّرها بزياراتها إلى بوسطن، وفصول الصيف في نيوبورت. شعرت فجأة بالحنين إلى الوطن للمرة الأولى أو الثانية خلال اثنين وعشرين شهراً. لم تستطع أن تتذكر حتى متى شعرت هكذا لآخر مرة.

«من أين أنت؟»، سألها فيما تحدث أحد أصدقائه مع سائقة سيارة الإسعاف، في الجهة الأخرى، لكنهما عرفتا أنه عليهما العودة. من غير الملائم التأخر والتحدث مع هؤلاء الأميركيين، وهناك رجل ميت في السيارة، بالرغم من أن نساء أخريات فعلن أموراً أسوأ. في مرحلة ما، لا تعود فظاعات الحرب مسببة للصدمات مثلما كانت قبلاً.

قالت آنابيل بهدوء: «من نيويورك».

فيما قال: «أنا من بوسطن». استطاعت شمّ رائحة الشراب في نَفَسه. ما إن يغادروا المخيمات التي يحتجزون فيها، يلجأ معظمهم إلى الشرب. ثمة سبب وجيه وراء ذلك. يشربون، ويطاردون كل فتاة تمرّ في طريقهم.

«لاحظت ذلك»، قالت وهي تشير إلى نبرة بوسطن، فيما أعطت لزميلتها الإشارة بالانطلاق مجدداً. قالت له وللآخرين: «حظاً موفقاً».

قال: «نعم، ولكِ أيضاً». وتراجع إلى الخلف، وفيما عادتا إلى المستشفى، شعرت بموجة حنين إلى الوطن، ولم تشعر قبلاً بهذا القدر من الحنين في حياتها. اشتاقت إلى كل شيء مألوف لم تره أو لم تسمح لنفسها بالتفكير فيه خلال عامين. تنهّدت فيما حملتا معاً الرجل الميت على الحمالة لأخذه إلى المشرحة. سيتم دفنه في إحدى الهضبات مع عدد لامتناهٍ من الآخرين، بعد إبلاغ عائلته. لا مجال لإرسال الجثث إلى قراها. هناك الكثير منها. وباتت المقابر تغطي كل الأرياف الآن.

كانت تفكر في الأميركيين الذين رأتهم بعد ظهر ذلك اليوم، وقامت آنابيل بنزهة قصيرة تلك الليلة، حين أنهت عملها، قبل العودة مجدداً إلى غرفتها. لقد خسروا اليوم كل رجل أعادوه من المستشفى الميداني. الأمر محبط، بالرغم من أنه أصبح شائعاً جداً، إلا أنه لا يزال يغضبها كثيراً. الرجال في عمر الشباب جميعاً، والعديد منهم أصغر منها سناً. في الرابعة والعشرين، ومع سنة في كلية الطب في جعبتها، لم تعد تشعر أنها فتاة صغيرة. لقد حصلت لها الكثير من الأمور الصعبة خلال الأعوام القليلة الماضية، وقد رأت لغاية الآن الكثير من الألم.

كانت تتمشى وتفكر في حياتها الضائعة في الولايات المتحدة، ورأسها إلى الأسفل، على مسافة غير بعيدة من مقرّ إقامتها، وهي في طريق العودة من نزهتها. تجاوزت الساعة منتصف الليل، وكانت تعمل منذ الساعة السادسة ذلك الصباح. كانت متعبة جداً وغير منتبهة، ولذلك قفزت مذهولة حين سمعت صوتاً بريطانياً خلفها.

قال بهدوء: «مرحبا أيتها الفتاة الجميلة، ماذا تفعلين لوحدك؟».

استدارت وذهلت لرؤية ضابط بريطاني يمشي في المكان نفسه لوحده. كان يشرب بوضوح. بدا أنيقاً جداً في بذلته، وفي حالة يرثى لها. كان شاباً وسيم المظهر، في مثل عمرها تقريباً، ولم يرعبها، خصوصاً حين لاحظت أنه ضابط. شاهدت الكثير من الرجال في مثل حالته خلال العامين الماضيين، ولم تواجه مشكلة مع أي منهم في إيقافهم عند حدّهم.

قالت مع ابتسامة رقيقة: «يبدو وكأنك بحاجة إلى من يوصلك، اذهب في هذا الطريق»، أشارت إلى أحد المباني الإدارية حيث تتم غالباً معالجة مسائل من هذا النوع إذ باتت هذه الحوادث شائعة جداً. إنها فترة حرب في النهاية، ويتعاطون مع آلاف الرجال بشكل يومي، ويكون العديد منهم مسرفين في الشرب ليلاً. «سيوصلك أحدهم إلى المخيم». لا مجال في رفض ذلك، خصوصاً وأنه ضابط. يعذبون أحياناً الجنود الاحتياطيين. لكن يتم دوماً احترام الضباط بسبب رتبتهم. لاحظت من بذلته أنه ملازم، وعرفت من نبرته أنه أرستقراطي. لكن هذا لم يمنعه من أن يكون فظاً مثل أي شخص آخر في حالته المذرية هذه، وكان يترنّح قليلاً فيما نظر إليها.

قال بعناد: «لا أريد العودة إلى المخيم، أفضل العودة إلى المنزل معك. ما رأيك إذا توقفنا وتناولنا شراباً؟ من أنت على أي حال؟ ممرضة؟». كان ينظر إليها بازدراء نوعاً ما، ويحاول التركيز عليها.

«أنا طبيبة، وستكون بحاجة إلى طبيب إذا لم تستلقِ في مكان ما». بدا وكأنه على وشك فقدان الوعي.

«فكرة ممتازة. أقترح أن نستلقي معاً».

«ليس هذا خياراً». نظرت إليه ببرود، متسائلة ما إذا كان يجدر بها المشي بعيداً وتركه لوحده. لا يوجد شخص آخر على الطريق، لكنها ليست بعيدة عن الثكنة. في هذا الوقت، ذهب الجميع إلى منازلهم لقضاء الليل، باستثناء الذين يعملون في دوام ليلي أو يقودون سيارات الإسعاف أو يعملون في الأقسام.

«من تظنين نفسك على أي حال؟»، سألها فيما تقدم للإمساك بها،

لكنها تراجعت إلى الخلف. تعثر وكاد يقع، وبدا غاضباً جداً حين وقف مجدداً. «أنت لا أحد. هذا من أنت»، تابع قائلاً، وبدا فجأة مزعجاً جداً. قال بتبجح، وهو يترنّح: «والدي هو إيرل وينشاير. وأنا اللورد هاري وينشاير. أنا كونت».

قالت بتهذيب: «سررت بالتعرف إليك أيها اللورد». وهي تردّ على رتبته ولقبه. «لكن عليك العودة إلى المخيم قبل أن تتعرض للأذى. وسأعود أنا إلى مقرّ إقامتي. تصبح على خير».

«ساقطة!»، قال وهو يبصق عليها، فيما ابتعدت عنه. لقد استمر الحديث بينهما لوقت طويل كفاية، ولا تريد التسكع أكثر. إنه في حالة يرثى لها، ومدلل، وبات مزعجاً نتيجة كميات الشراب التي تناولها. لم تكن خائفة منه، فقد تعاملت مع رجال أسوأ منه قبلاً، لكنها لا تريد المجازفة بحظها. لكن قبل أن تتقدم خطوة إضافية على الطريق المقفر، أمسك بها، وشدّها بقوة بين ذراعيه، وحاول تقبيلها. دفعته بقوة بعيداً عنها، وكافحت بشدة. كان قوياً بشكل مفاجئ بالرغم من حالته التي يرثى لها.

قالت بصوت عالٍ: «أوقف ذلك». لكنها صدمت بقوته، وقوة ذراعيه.

أدركت فجأة أن قوته تفوق قوتها. غطى فمها بيد واحدة، وسحبها باليد الأخرى إلى باب مظلم لثكنة مجاورة. لا يوجد أحد في الجوار، وكان يغطي فمها بقوة بحيث عجزت عن الصراخ. عضّت أصابعه، لكن هذا لم يردعه، وقاومت مثل القطة، فيما ألقاها على الأرض. لم تستطع تصديق ما يحصل، واستخدمت كل قوتها لمقاومته، لكنها كانت امرأة صغيرة وهو رجل قوي وضخم. وأصبح فجأة مدفوعاً بالغضب وصمم على النيل منها. أغضبته لأنها رفضته قبلاً، وسيجعلها تدفع الثمن الآن. لم ترَ سوى الغضب الأسود في عينيه فيما استمر في الإمساك بها والضغط عليها. لم يرفع أبداً يده عن فمها، ولم تستطع سوى إصدار أصوات أنين خفيفة لا يسمعها أحد.

كان الليل هادئاً حولهما، باستثناء ضحك النساء والرجال وهم يغادرون المشارب. لذا، فإن الأصوات التي أصدرتها كانت خفيفة جداً

ليسمعها أي كان، وظهر الرعب في عينيها. «إذا أخبرتِ أياً كان عن ذلك، سأعود وأقتلك. سأعثر عليك. وسيصدقونني أكثر منك».

عرفت أن هذا صحيح على الأرجح. فهو ضابط وليس مجرد رجل نبيل، مثلما يفترض، إنه كونت. مهما قالت أو فعلت، لن يجرؤ أحد على تحدّيه، أو على الأقل معاقبته، لمثل هذه الحادثة. بالنسبة إليه، لا يعني ذلك شيئاً، وبالنسبة إليها، أخذ منها الفضيلة التي احتفظت بها كل حياتها، والتي صانتها أكثر خلال عامين من الزواج برجل أحبته، ورماها وكأنها قذارة، وقد عاملها أصلاً بهذه الطريقة.

شعرت بالدوار حين عادت إلى ثكنتها، وتوقفت مجدداً للتقيؤ، وهي تشعر بالامتنان لأن أحداً لم يرها. أرادت الاختباء في مكان ما والموت، وعرفت أنها لن تنسى أبداً وجهه أو نظرة الإجرام في عينيه. اختفى في الليل، وكادت تزحف إلى ثكنتها، ودخلت الحمام، وشعرت بالارتياح لعدم وجود شخص آخر هناك.

كان محقاً. إذا حاولت إخبار أي كان، لن يستمع إليها أحد أو يهتم. تدّعي الفتيات كل يوم أن الجنود يغتصبونهنّ، ولا يفعل أحد أي شيء حيال ذلك. إذا أصررن على اللجوء إلى السلطات أو المحكمة العسكرية، سيتم إذلالهنّ وإهانتهنّ، ولن يصدقهن أحد. سيتم اتهامهنّ فوراً بأنهن ساقطات أغرين المعتدين عليهن. وعند اتهام لورد بريطاني بالجريمة، سيتم الضحك عليها عالياً في أي مكتب حكومي. الأسوأ من ذلك أنها فترة حرب، ولا يهم أي كان تعرض طبيبة للاغتصاب من قبل ضابط بريطاني. كل ما تستطيع فعله الآن هو الدعاء كي لا تحمل. لا تتخيل أن القدر يمكن أن يكون ظالماً إلى هذا الحد. كل ما استطاعت آنابيل التفكير فيه، فيما استلقت على سريرها تلك الليلة، وهي تسترجع في عقلها كل ما حصل، أنه ما من شيء وما من أحد قاسٍ بقدر الكونت. وفيما استلقت هناك وبكت، لم تفكر سوى في جوشيا. لقد أرادت دوماً مشاركته حياته وإنجاب أطفال منه. وبدلاً من ذلك، قام هذا اللعين بتحويل فعل الحب إلى مأساة واغتصبها. ولا يمكنها فعل أي شيء حيال ذلك سوى محاولة النسيان.

الفصل الثامن عشر

في شهر سبتمبر، كان الألمان يهاجمون الروس بشدة. وفي فيليرز – كوتريت، كانت آنابيل تتقيأ كل يوم. لقد حصل الأسوأ. فاتتها دورتها الشهرية منذ يوليو، وعرفت أنها حامل. لا تعرف ماذا تفعل. ما من أحد تستطيع إخباره، وما من طريقة لوقف ذلك. احتاج ظهرها ورأسها وأعضاء أخرى من جسمها إلى أسابيع حتى تعافت، لكن تأثيرات ما فعله ستدوم إلى الأبد. فكّرت في العثور على اختصاصي إجهاض في مكان ما، لكنها لم تعرف من تسأل، وعرفت كم أن الأمر خطير. ماتت اثنتان من الممرضات نتيجة الإجهاض منذ وصولها إلى المستشفى. لم تجرؤ آنابيل على المجازفة. تفضل قتل نفسها، لكنها لا تملك الشجاعة على فعل ذلك أيضاً. ولا تريد طفل ذلك الوحش. عرفت أن الطفل سيولد في شهر أبريل، وعليها مغادرة المستشفى ما إن يبدأ الحمل بالظهور. لحسن الحظ أنه لم يظهر لغاية الآن. وكانت تعمل أكثر من أي وقت مضى، تحمل الرجال والمعدات الثقيلة، وتقفز فوق الطرقات الوعرة في سيارات الإسعاف. دعت أن تكون الطبيعة لطيفة معها وتجهض بشكل طبيعي، لكن مع مرور الوقت، أصبح واضحاً تماماً أن هذا لن يحصل. وحين بدأ محيط خصرها يزداد حجماً وجسمها يمتلئ، سرقت شرائط كتان من غرفة العمليات ولفّت نفسها بشدة قدر المستطاع. بالكاد استطاعت التنفس، لكنها صممت على العمل طالما أنها قادرة. ولا تعرف إلى أين تذهب حين تتوقف عن العمل.

في الميلاد، كانت ملامح الحمل لم تظهر بعد، لكنها باتت تشعر بالطفل يتحرك برفق داخلها. حاولت مقاومة ذلك، وأخبرت نفسها أنها تملك كل الأسباب لكرهه، لكنها لم تستطع. فالطفل بريء بقدرها هي، حتى لو كانت تكره والده. فكّرت في الاتصال به لإخباره بما حصل وإجباره

على تحمل المسؤولية، لكنها عرفت مما رأته تلك الليلة، أنه سينكر الأمر. ومن يعرف كم هو عدد النساء اللواتي اغتصبهنّ قبلها أو بعدها؟ إنها مجرد واحدة من فتيات تائهات مررن أمامه في بحر الحرب، وسيرميها تماما مثلما فعل تلك الليلة، وطفله معها. لا تملك حقاً من أي نوع كان، وإنما هي مجرد امرأة تحمل طفلاً غير شرعي في زمن الحرب، ولن يهتم أحد لأنها تعرضت للاغتصاب.

في شهر يناير كانت لا تزال تعمل. إنها حامل في الشهر السادس، وغطت خصرها الكبير بمئزرها. لم يظهر أي نتوء لأنها كانت لا تزال تشدّ خصرها بقوة، ونتيجة القلق على أي حال، تناولت القليل من الطعام. لم يزدد وزنها أبداً، لا بل إنها خسرت بعضاً منه. شعرت باكتئاب كبير منذ يوليو حين حصل ذلك. ولم تخبر أحداً.

كان يوماً ماطراً وبارداً في فترة لاحقة من ذلك الشهر حين كانت تعمل بعد الظهر في قسم عمليات الرجال، نيابة عن شخص آخر، حين سمعت رجلين يتكلمان. كلاهما بريطانيان، أحدهما ضابط والآخر عريف. فقدا أطرافهما في المعركة المريعة الأخيرة في الخنادق. وتوقفت حين سمعتهما يذكران هاري. لا تعرف لماذا، يمكن أن يكون أياً كان، لكن بعد برهة قال الضابط إنها خسارة كبيرة أن يموت هاري وينشاير. تحدثا كم كان رجلاً جيداً وكم سيشتاقان إليه. أرادت الالتفات والصراخ عليهما والقول إنه لم يكن رجلاً جيداً، وإنما مجرد وحش. خرجت من القسم، ووقفت ترتجف خارجاً في البرد، تتنشق الهواء، وتشعر كما لو أنها تختنق. لم يغتصبها فقط، وإنما مات الآن أيضاً. عرفت أن الأمر أفضل بهذه الطريقة، وهو يستحق الموت، وفيما استرجعت فظاعة ما حصل معها، شعرت فجأة بموجة رعب كبيرة بحيث تمايلت ببطء مثل الصفصافة في الهواء، وأغمي عليها في الوحل. رأتها اثنتان من الممرضات تقع أرضاً وأسرعتا نحوها، فيما توقف أحد الجراحين الذي كان يغادر المبنى وركع قربها. كما هي الحال دوماً، خاف الجميع من الكوليرا، لكن حين لمسوها، عرفوا أنها لا تعاني من ارتفاع الحرارة. شكوا في أن يكون السبب كثرة العمل وقلّة الطعام

أو النوم، وهي حال يعانون جميعاً منها منذ أعوام.

ساعد الطبيب على حملها إلى الداخل، واستعادت وعيها فيما وضعوها على حمّالة. كانت مبللة، وكان شعرها ملتصقاً برأسها نتيجة المطر، ومئزرها ملتصقاً بجسدها المبلّل. اعتذرت بشدة على تسببها بهذا الإزعاج، وحاولت النهوض والهروب منهم. لكن لحظة فعلت ذلك، أغمي عليها مجدداً، ودفع الطبيب هذه المرة الحمّالة إلى غرفة صغيرة وأغلق الباب. لا يعرفها جيداً، لكنه رآها غالياً.

سألها بهدوء إذا كانت تعاني من الديزنتريا، وأصرّت على أنها بخير، وقالت إنها تعمل منذ الصباح الباكر ولم تأكل شيئاً منذ اليوم السابق. حاولت أن تبتسم له، لكنه ليس غبياً. وجهها بلون مئزرها تماماً. سألها عن اسمها وأخبرته.

«آنسة ورثينغتون، أعتقد أنك تعانين من تعب المعركة. ربما تحتاجين إلى الابتعاد لأيام قليلة والتعافي». لم يأخذ أي منهم إجازة منذ أشهر، ولا تريد ذلك، لكنها عرفت أيضاً أن أيامها في المستشفى باتت معدودة. أصبح بطنها كبيراً جداً الآن وازدادت صعوبة إخفائه أكثر فأكثر، مهما حاولت شدّ نفسها. «هل من شيء آخر في صحتك لم تخبريني عنه؟»، سألها بقلق. فآخر ما يريدونه الآن هو نشر أفراد الطاقم الطبي للأمراض المعدية أو نشر وباء، أو الموت ببساطة نتيجة العمل المفرط وإخفاء الأمراض. كانوا واعين جميعاً لأهمية عملهم بحيث أخفى العديد من الأطباء والممرضات الأمر عند تعرضهم للمرض. خاف أن تكون هذه حالها. بدت مريعة.

بدأت تهزّ رأسها، ثم رأى الدموع في عينيها. «لا، أنا بخير»، أصرّت.

قال بهدوء: «بخير لدرجة أنه أغمي عليك مرتين». أحسّ أن هناك أمراً آخر، لكنها صممت على عدم إخباره، وبدت تعاني من سوء التغذية مثل الآخرين. طلب منها الاستلقاء ليتحسس جسمها عبر ملابسها، وما إن استلقت، لاحظ الانتفاخ البسيط في بطنها ونظر إلى عينيها. وضع يديه

برفق عليه، وأحسّ بالانتفاخ الذي أخفته بعزم لوقت طويل جداً، وفهم فوراً حقيقة الأمر. لم تكن أول امرأة تحمل من جندي خلال الحرب. حين نظر إليها، بدأت تبكي بشدة.

قال لها فيما جلست: «أظن أن هذه هي المشكلة». فأخرجت منديلاً، ومسحت أنفها. بدت محرجة كثيراً وغير سعيدة أبداً. «متى تتوقعين الولادة؟».

كادت تختنق وهي تلفظ الكلمات، وأرادت أن تشرح له كيف حصل ذلك، لكنها لم تجرؤ. الحقيقة مريعة جداً، وسيلومها حتماً مثل أي شخص آخر، ولن يصدقها أبداً. إنها واثقة من ذلك، لأنها رأت الأمر يحصل مع أخريات قبلاً. نساء قلن إنهن تعرضن للاغتصاب، لكنهن أقمن في الواقع علاقة خارج الزواج. لماذا يجدر به تصديقها؟ هكذا، مثلما بقي سرّ جوشيا محفوظاً داخلها لحمايته حين تركها، ها هي الآن تحتفظ بسرّ كونت وينشاير. وهي الوحيدة التي تدفع الثمن على كل ذلك. «في شهر أبريل»، قالت مع نظرة يأس.

«نجحت في إبقاء الأمر سراً لوقت طويل». أرخى مئزرها، وفك العصابة عن خصرها، ورفع زيّها الطبي، وذعر حين لاحظ كم شدّت نفسها بقوة، وفعلت ذلك طوال أشهر. «غريب كيف تستطيعين التنفس». لقد شدّت نفسها أكثر من أي مشدّ حقيقي، وهذه فظاعة بحق الأم والطفل.

«لا أستطيع»، قالت عبر دموعها.

«عليك التوقف عن العمل قريباً»، قال وهو يخبرها بما تعرفه أصلاً. «والأب؟»، استفسر بلطافة.

همست له «مات، عرفت اليوم». لم تخبره أنها تكره هاري، وفرحت لموته. إنه يستحق ذلك. عرفت أن الطبيب سيصدم إذا قالت ذلك.

«أفهم. هل ستعودين إلى وطنك؟».

«لا أستطيع»، قالت ببساطة لأسباب لا يستطيع فهمها. لم يعد مرحباً بها في نيويورك أو نيوبورت، وعودتها وهي حامل ستقضي عليها إلى الأبد.

«عليك العثور على مكان لتعيشي فيه. هل تريدين أن أساعد، وأحاول العثور على عائلة يمكنك البقاء عندها؟ ربما يمكنك المساعدة على تربية أولادهم». هزّت آنابيل رأسها. فكرت كثيراً في الأمر في الآونة الأخيرة مع انتفاخ بطنها. لا تستطيع العودة إلى كلية الطب أيضاً، على الأقل في الوقت الحاضر. لكن المكان الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه هو المنطقة فوق الأنتيب قرب دار العبادة القديمة، حيث كانت تذهب بين الحين والآخر حين تحصل على إجازة من كلية الطب. إذا استطاعت العثور على منزل صغير هناك، يمكنها الاختباء فيه حتى ولادة الطفل ومن ثم العودة إلى الجبهة أو العودة إلى الكلية. يصعب تخيل عودتها إلى الجبهة مع طفل، ولا تملك أحداً لتتركه عنده. عليها تصوّر الكثير، لكنها رفضت مساعدته. بدأت تحلل الأمور لوحدها. ولا يعرف إذا كانت تستطيع إنجاز ترتيباتها المالية وما إذا كانت قادرة على استئجار أو شراء منزل إذا قررت ذلك.

قالت بحزن فيما ساعدها على النزول عن الحمالة: «شكراً لك، سأتدبر أمري».

نصحها «لا تنتظري طويلاً». ذُهل أنها تمكنت من إخفاء حملها طوال ستة أشهر.

قالت ووعدته: «لن أنتظر، شكراً». وظهرت الدموع في عينيها مجدداً، فيما ربّت على كتفها لطمأنتها، وغادرا الغرفة. كانت الممرضتان الشابتان لا تزالان تنتظران خارجاً للاطمئنان على حالها.

قال لهما مبتسماً: «إنها بخير، تعملون جميعاً بكدّ كبير هنا. أخبرتها أنها تحتاج إلى إجازة قبل أن تصاب بالكوليرا وتنشر الوباء». ابتسم لهما باطمئنان، ووجه إلى آنابيل نظرة خبيرة، ثم غادر. رافقتها المرأتان الأخريان إلى غرفتها، واستراحت طوال فترة بعد الظهر.

استلقت على سريرها تفكر. إنه محق. عرفت أنه عليها المغادرة قريباً. قبل أن يعرف الجميع، وسيتم مجدداً نبذها بسبب خطأ لم ترتكبه.

نجحت آنابيل في البقاء في فيليرز - كوتريت حتى الأول من فبراير،

ثم قالت بندم إنها مضطرة إلى المغادرة. أخبرت المسؤولة عنها أنها ستعود إلى كلية الطب في نيس. لا يستطيع أحد التذمر. لقد مضى على وجودها هناك أربعة عشر شهراً، وشعرت وكأنها تخونهم بسبب مغادرتها الآن، لكنها لا تملك خياراً آخر.

كان يوماً حزيناً لها حين غادرت المستشفى والأشخاص الذين عملت معهم. أخذت القطار إلى نيس، واحتاجت إلى يومين للوصول إلى هناك، بسبب تحويل سكك القطارات، والانتظار الطويل في العديد من المحطات، للسماح لوسائل النقل العسكرية بالمرور قبلهم لأنها تحمل الذخائر إلى الجبهة.

أول شيء فعلته حين وصلت إلى نيس هو الذهاب إلى متجر صياغة صغير وشراء خاتم زواج ذهبي. وضعته في إصبعها، فيما هنأها الصائغ. إنه رجل عجوز لطيف، وقال إنه يتمنى لها السعادة. تركت المتجر بدموع صامتة. القصة التي ألفتها عن نفسها هي أنها أرملة حرب قتل زوجها في إيبر. ما من سبب كي لا يصدقها الجميع. بدت محترمة، وكانت البلاد مليئة بالأرامل، حينها، وقد ولد العديد من الأطفال بعد موت الأزواج. كانت آنابيل مجرد واحدة إضافية في بحر من الضحايا والمآسي الناجمة عن الحرب.

نزلت في فندق صغير في نيس، واشترت لنفسها عدداً من الفساتين السوداء بمقاسات كبيرة، وصدمت حين لاحظت كم أن بطنها كبير حين توقفت عن وضع رباطات الشدّ. ليست بحجم هورتي، ولكن بدا واضحاً أنها حامل بطفل، ولا حاجة إلى إخفاء الأمر الآن. ومع خاتم زواج في إصبعها، والفستان الأسود للأرملة، بدت مثل المرأة المحترمة التي هي عليها فعلاً، وكان الحزن الذي لاحظه الآخرون في عينيها حقيقياً.

تودّ زيارة الدكتور غرومون في كلية الطب، لكنها لم تشعر أنها قادرة على فعل ذلك. ستظهر لاحقاً مع الطفل، وقصة الرجل الذي تزوجته ثم قتل. لكن لا يزال الوقت مبكراً الآن على هذا. لم تشعر أنها مستعدة لمقابلة أي كان إلا بعد إنجاب الطفل. وليست واثقة بعد من شرح السبب الذي

دفعها إلى الاحتفاظ باسمها. ستفكر في شيء ما لاحقاً. في الوقت الحاضر، عليها العثور على مكان لتعيش فيه، وذات يوم عادت إلى الأنتيب ودار العبادة الصغيرة التي تحبها كثيراً. إنها دار عبادة للبحارة وتطلّ على المرفأ والألب البحرية. كانت تغادر دار العبادة حين سألت الحارسة إذا كانت تعرف منازل في المنطقة للإيجار. هزّت المرأة رأسها، ثم أدارت رأسها إلى جانب واحد مع نظرة شاردة.

قالت، بنبرة الجنوب الثقيلة: «لا أظن ذلك». أصبحت لغة آنابيل الفرنسية ممتازة لدرجة أن أحداً لا يشك في أنها ليست من باريس، أو أي من المدن الشمالية في فرنسا. «ثمة عائلة كانت تعيش هنا قبل الحرب. انتقلوا إلى ليون، وقُتل ولداهما. لم يعد الوالدان إلى هنا منذ ذلك الحين، ولا أظن أنهما سيعودان يوماً. أحب ولداهما المكان هنا كثيراً. سيحطّم ذلك قلبيهما». أخبرت آنابيل عن مكان المنزل. إنه على مسافة قريبة من دار العبادة، وهو عبارة عن فيلا صغيرة وأنيقة بدت وكأنها في السابق منزل صيفي. ثمة رجل عجوز ينظف الحديقة، وأومأ برأسه حين تحدثت إليه آنابيل، وسألته إذا كان المنزل للإيجار. قال إنه لا يظن ذلك، لكنه سيكتب رسالة إلى أصحاب المنزل نيابة عنها. قال إن كل الأثاث والمقتنيات لا تزال مكانها، مفترضاً أنها لربما كانت تشكل مشكلة بالنسبة إليها. وأكّدت له أنها ليست مشكلة، بل على العكس تفضل ذلك.

لاحظ أنها حامل بطفل، وقد أصبحت حاملاً في الشهر السابع الآن، وقالت له إنها أرملة. أخبرته أنها ترغب كثيراً باستئجار المنزل إذا أراد المالكان ذلك، ربما حتى نهاية السنة. تأمل في العودة إلى كلية الطب لفصل الخريف، أو في شهر يناير على أبعد تقدير. في شهر سبتمبر، سيكون عمر الطفل خمسة أشهر، وتستطيع العودة إلى كلية الطب، إذا رتّبت الأمور للطفل. ربما تستطيع حتى الانتقال جيئة وذهاباً من هذا المنزل، إذا استطاعت العثور على عربة للوصول إلى هناك. تركت اسم فندقها، وقال البستانيّ إنه سيتصل بها حين يعرف أخباراً من المالكين، بطريقة أو بأخرى. أملت أن يتعاطف معها ويلحّ على المالكين لتأجيرها المنزل.

في طريق العودة إلى نيس، فكرت أنها تستطيع البقاء في الفندق إذا اضطرّت إلى ذلك، بالرغم من أنه ليس مكاناً مثالياً للطفل، وإنما مكان نظيف ومرتب. سيكون المنزل أفضل بالنسبة إليها، لكن إذا لم تستطع العثور على واحد، تستطيع البقاء حيث هي.

خلال الأسابيع القليلة التالية، كانت تمشي في نيس كل يوم. مشت على الشاطئ، وتناولت طعاماً جيداً قدر المستطاع، ونامت لساعات طويلة. عثرت على طبيب محلي عبر المستشفى، وذهبت لرؤيته، وأخبرته القصة نفسها بأنها أرملة حرب. كان لطيفاً وودوداً، وأخبرته أنها تريد الولادة في المنزل. لا تريد المجازفة بمصادفة أي واحد من الأطباء الذين تعرفهم في المستشفى، أو في كلية الطب. لم تخبر الطبيب بالسبب، لكنه وافق على توليدها في المنزل.

في شهر مارس، عادت من نزهة ذات يوم ووجدت رسالة من غسطون، البستاني في المنزل في الأنتيب. طلب منها الذهاب لرؤيته، وهذا ما فعلته. يحمل أخباراً جيدة لها. تعاطف معها مالكا المنزل، ووافقا على تأجيرها إياه. قد يوافقان حتى على بيعه لها في النهاية، بالرغم من أنهما لم يحسما الأمر بعد. قال الوالدان إنهما يملكان الكثير من ذكريات ولديهما هنا، وستكون العودة حزينة جداً. في الوقت الحاضر، قبلا بتأجيرها المنزل لمدة ستة أشهر على أن يقررا لاحقاً إذا كانا يريدان بيعه. عرض عليها رؤية المنزل، وفرحت كثيراً بما رأته. ثمة غرفة نوم أساسية مشمسة بحجم كبير، وغرفتا نوم أصغر حجماً بالقرب منها. تتشارك غرف النوم الثلاث الحمام نفسه، لكن الأمر لم يزعجها. الحمام قديم ومرصوف بالبلاط، مع مغطس كبير أعجبها. وفي الأسفل، توجد غرفة جلوس وغرفة طعام، وغرفة زجاجية صغيرة تفضي إلى مصطبة. إنه الحجم المثالي لها وللطفل، وربما لفتاة شابة تساعدها على الاهتمام بالطفل لاحقاً. في الوقت الحاضر، تريد أن تكون لوحدها.

كتبت رسالة موافقة إلى المالكين، وقالت إنها ستجعل مصرفها يرتّب مسألة تحويل الأموال. كان غسطون مسروراً كثيراً وهنأها، وقال إنه

من الجميل أن تعود الحياة إلى المنزل مجدداً، وستسعد زوجته بالمجيء وتنظيف المنزل لها وحتى مساعدتها على الاهتمام بالطفل حين يولد. شكرته ثم اتجهت إلى مصرف في نيس بعد الظهر. عرّفت المدير عن نفسها، وطلبت منه إرسال برقية إلى مصرفها في أميركا لإبلاغهم عن مكانها. كل ما يحتاجون إلى معرفته هو إلى أين يرسلون مالها، لأنها أغلقت حسابها في فيليرز - كوتريت حين غادرت. لا يعرفون سبب وجودها في نيس أو ماذا سيحصل لها هناك، وتساءلت عن عدد الأولاد الذين أنجبتهم هورتي بعد رحيلها. لا تزال تشتاق إلى صديقتها القديمة. مهما خانتها، أجبرت على فعل ذلك بسبب ضعفها. لم يمنع ذلك آنابيل من الاهتمام بها، بالرغم من أنهما لن تعودا صديقتين مجدداً. حتى لو عادت يوماً ما، لقد حصلت الكثير من الأمور منذ ذلك الحين.

انتقلت آنابيل إلى المنزل فوق كاب الأنتيب في الرابع من أبريل. قال الطبيب إن الطفل سيولد قريباً، بالرغم من أنه لا يعرف متى بالضبط. أصبحت آنابيل ضخمة حينها، ومشت ببطء بين الهضاب كل يوم، وذهبت إلى دار العبادة التي أحبتها وتأملت المنظر. فلورين، زوجة غسطون، كانت تنظف لها المنزل، وتطهو الطعام بين الحين والآخر. وأمضت آنابيل لياليها وهي تقرأ كتبها الطبية القديمة. لا تزال عواطفها مختلطة حيال الطفل. تكوّن هذا الطفل بعنف وبألم كبير، ويصعب تخيل عدم تذكر ذلك عند رؤيته. لكن القدر أعطاهما لبعضهما. فكرت في الاتصال بعائلة الكونت لإبلاغهم بوجود الطفل، لكنها لا تدين لهم بأي شيء، وإذا كانوا حقيرين مثل ولدهم، فلا تريد شيئاً له علاقة بهم. ستكون هي والطفل لبعضهما، ولا يحتاجان إلى أحد آخر.

في الأسبوع الثالث من أبريل، ذهبت آنابيل في نزهة طويلة، وتوقفت أمام دار العبادة مثلما تفعل دوماً، وجلست على مقعد لتأمل المنظر الطبيعي. أضاءت شمعة لأمها، ودعت لجوشيا. لم تسمع منه أي شيء منذ أكثر من عامين، ولا تعرف أين هو، ما إذا كانا هو وهنري في مكسيكو أو عادا إلى نيويورك. لقد تخلى عنها، ولم يتصل بها. أرادها أن تكون حرة وتحصل

على حياة جديدة، لكنه لم يتخيل أبداً القدر الذي كان بانتظارها.

مشت ببطء إلى المنزل تحت نور الشمس الساطع بعد ظهر ذلك اليوم، وهي تفكر فيهم جميعاً، جوشيا وهورتي وأمها ووالدها وروبرت. شعرت بهم وكأنهم جميعاً قربها، وحين عادت إلى المنزل، ذهبت إلى غرفة نومها واستلقت. غادرت فلورين، وغطّت آنابيل في نوم خفيف. إلا أنها تفاجأت حين استيقظت بعد منتصف الليل. شعرت بتشنج في ظهرها أيقظها، وأحسّت فجأة بألم قوي في أسفل بطنها، وعرفت فوراً حقيقته. لا يوجد أحد ليحضر لها الطبيب، ولا تملك هاتفاً، لكنها لم تشعر بالخوف فيما استلقت هناك. إنها واثقة أنها عملية بسيطة وتستطيع فعلها لوحدها. لكن مع تقدم الليل وازدياد الألم، لم تعد واثقة بهذا القدر. لا تصدق أنها عانت كثيراً حين حملت بالطفل، وستعاني الآن مجدداً، لتلد طفلاً من دون أب، ولا تريده. تاقت طوال سنوات عدة إلى طفل من جوشيا، ولم يخطر لها أبداً أن الطفل سيأتي إلى حياتها بهذه الطريقة.

تلوّت مع كل انقباض، وتشبثت بالشراشف. رأت الشمس تشرق عند الفجر، وكانت تنزف بشدة حينها. كان الألم مبرحاً، وبدأت تشعر وكأنها تغرق وقد تموت. جعلها ذلك تفكر في القصص المرعبة التي أخبرتها بها هورتي، والولادات المريعة التي عاشتها. بدأت تشعر بالذعر حين ظهرت فلورين عند باب غرفة نومها. سمعتها من الأسفل، وركضت بسرعة على السلالم. كانت آنابيل مستلقية على السرير وعيناها منهكتان، عاجزة عن التكلم بسبب الألم الذي استمر طوال الليل. إنها في المخاض منذ ثماني ساعات.

دخلت فلورين بسرعة إلى الغرفة، ورفعت الأغطية برفق عنها، ووضعت شراشف قديمة تم الاحتفاظ بها جانباً لهذه الغاية. لاطفت آنابيل بحنان، وأخبرتها أن الأمور على ما يرام. نظرت وقالت إنها تستطيع رؤية رأس الطفل.

قالت آنابيل بيأس: «لا أهتم، أريده أن يخرج...». أطلقت صرخة حينها، فيما بدا الطفل وكأنه يتحرك إلى الأمام لبرهة، ثم تراجع. ركضت

فلورين إلى الأسفل للعثور على غسطون، وطلبت منه إحضار الطبيب بسرعة. لكن ما من شيء رأته أثار خوفها، وكان كل شيء على ما يرام. عرفت من الولادات الأخرى التي شاهدتها أن الأمر قد يستمر لوقت طويل. سيحصل الأسوأ بعد، والبقعة التي رأتها من رأس الطفل لا تتعدى حجم قطعة النقود المعدنية.

استلقت آنابيل على السرير تبكي، فيما غطت فلورين جبينها بالفوط الباردة برائحة الخزامى، ولم تستطع آنابيل في النهاية تماسك نفسها. أرادت ألا يلمسها أحد، وكانت تبكي كثيراً من شدّة الألم. بدا وكأن دهراً مضى قبل وصول الطبيب. كان في ولادة أخرى، مع امرأة أنجبت توأمين. جاء إلى آنابيل عند الساعة الثانية بعد الظهر، ولم يتطور أي شيء بعد بالرغم من أن الألم أصبح أسوأ.

بدا مسروراً جداً حين فحصها، بعدما غسل يديه. «أنت تبلين بلاءً حسناً»، قال وهو يشجع مريضته التي كانت تصرخ من الألم. «أظن أنه سيكون بيننا طفل وقت العشاء». نظرت إليه بخوف كبير، وهي تعرف أنها لا تستطيع تحمل دقيقة إضافية من الألم الذي تشعر به. أخيراً، فيما بكت بيأس، طلب من فلورين وضعها على وسادات ومن ثم تثبيت قدميها. حاربتهما آنابيل بكل طريقة ممكنة ونادت أمها، فتحدث إليها الطبيب بصرامة حينها وقال لها إنه يجدر بها التعاون. أصبح الجزء الظاهر من رأس الطفل أكبر الآن، وطلب مراراً وتكراراً من آنابيل أن تدفع بقوة. أخيراً، استلقت على وساداتها، وهي مرهقة جداً لفعل ذلك مجدداً، لكنه طلب منها عندئذ الشد أكثر من قبل وعدم التوقف. أصبح وجهها أحمر فيما خرج فجأة رأس الطفل، مع وجه صغير مجعد، وصرخت آنابيل، ونظرت إلى الطفل الذي يخرج من رحمها.

دفعت بكل قوتها، وصدر أخيراً صوت بكاء طويل وخفيف في الغرفة، مع وجه صغير وعينين ساطعتين، فيما ضحكت آنابيل وبكت، وشهقت فلورين تعجباً. كان الطفل عبارة عن كومة من ذراعين وساقين في غاية الصغر بين حبل السرّة، الذي قطعه الطبيب، ولفت فلورين الطفل

في بطانية وأعطته لأمه. إنها فتاة.

«آه... إنها جميلة جداً...». قالت آنابيل والدموع تنهمر على وجنتيها. كانت الطفلة الصغيرة بحال ممتازة، مع قسمات صغيرة رائعة وأطراف رشيقة ويدين وقدمين في غاية الصغر. كان الطبيب محقاً، إذ كانت الساعة قرابة السادسة مساء، وقال إن هذا سريع جداً بالنسبة إلى طفل بكر. لم تتوقف آنابيل عن النظر إليها والتحدث إليها فيما أنهى الطبيب عمله. ستقوم فلورين لاحقاً بتنظيف آنابيل، وقامت في الوقت الحاضر بتغطيتها ببطانية. وبحنان فائق، وضعت آنابيل الطفلة على صدرها، بغريزة الأمومة الرائعة. الطفلة التي بين ذراعيها هي القريبة الوحيدة التي تملكها في العالم، وهي تستحق عناء كل لحظة ألم بدا غير مهم أبداً الآن.

«ماذا ستسمينها؟»، سألها الطبيب وهو يبتسم لهما، ويشعر بالأسف لأنها أرملة، لكنها تملك على الأقل هذه الطفلة.

قالت بهدوء: «كونسويلو، على اسم أمي». ثم انحنت برفق وقبّلت أعلى رأس ابنتها.

الفصل التاسع عشر

كانت الطفلة مثالية من كل النواحي. كانت في صحة سليمة وسهلة التربية على أمها. كانت مثل نعمة صغيرة هبطت على الأرض وحطّت بين ذراعي أمها. لم تتوقع آنابيل أبداً أن تحب هذه الطفلة إلى هذا الحدّ. كل الروابط المؤلمة بالوالد اختفت لحظة ولادتها. إنها تخص آنابيل فقط ولا أحد سواها.

ذهبت آنابيل لزيارة الدكتور غرومون في كلية الطب في شهر يوليو، مباشرة بعد بدء معركة مارن الثانية. استمر عدد القتلى في الازدياد بكثرة منذ أن غادرت آنابيل فيليرز - كوتريت. وحين ولدت كونسويلو، أدركت أنها لا تستطيع العودة إلى الجبهة. لا تريد أخذ الطفلة معها، والابتعاد عنها كثيراً، أو تعريضها للأمراض أو الأوبئة. بالرغم من أنها شعرت بالذنب لعدم قدرتها على المساعدة في جهود الحرب، عرفت آنابيل أن مكانها أصبح الآن مع طفلتها. عرضت عليها فلورين الاهتمام بالطفلة إذا أرادت آنابيل الذهاب إلى الجبهة، لكنها لا تستطيع تحمل الابتعاد عن الطفلة لساعة واحدة، فكيف بتركها أشهراً عدة مع شخص آخر. لذا، قررت البقاء في الأنتيب في الوقت الراهن.

لا تزال تريد الذهاب إلى كلية الطب، وأملت أن تتدبر أمر عودتها. حافظت على روايتها نفسها حين ذهبت لرؤية الدكتور غرومون. أخبرته أنها تزوجت من ضابط بريطاني بعد فترة وجيزة من ذهابها إلى فيليرز - كوتريت. أبقيا الأمر سراً عن عائلته حتى يذهبا إلى إنكلترا ويعلنا الأمر، لكنه قُتل قبل أن يتمكنا من فعل ذلك. وبما أن أحداً لم يعرف بشأن الزواج، قررت الاحتفاظ باسمها، خصوصاً وأن عائلتها لا تملك أي ورثة الآن، ولا تريد التخلي عن اسم ورثينغتون لتكريمهم. إنها قصة مفبركة، لكن

يبدو أنه صدقها، أو كان راغباً بقبول أي قصة تخبره بها. قال إن الطفلة جميلة، وسمح لها باستعمال منزل صغير موجود داخل الكلية تعيش فيه هي وابنتها حين تعود للدراسة في الفصل المقبل في شهر سبتمبر. هناك تسعة طلاب في كلية الطب، وسيبدأ ثلاثة جدد في سبتمبر. أخبرها لسوء الحظ أن سبعة من زملائها السابقين ماتوا بعد أن غادروا. ارتاح لرؤية آنابيل بصحة سليمة وجيدة، وأكثر جمالاً بعد الولادة. بدت أشبه بامرأة حقيقية الآن، وبلغت الخامسة والعشرين هذا الربيع. كانت مستعدة تماماً لاستئناف دروسها مجدداً، ولم تكترث بأنها ستصبح في العقد الثالث حين تتخرج، وتصبح أخيراً طبيبة. كل ما تريده الآن هو الانطلاق مجدداً. بداية الفصل التالي بعد ستة أسابيع فقط.

قررت الاحتفاظ بالمنزل في الأنتيب للذهاب إليه كلما سنحت الفرصة. لكنها تحتاج إلى أحد للاهتمام بكونسويلو حين تكون في الصف، ولذلك كلّفت فتاة شابة، بريجيت، للاهتمام بالطفلة والعيش معهما. سيعيش الثلاثة في المنزل الذي أعطاها إياه الدكتور غرومون مقابل إيجار ضئيل. كل شيء يسير على ما يرام.

في اليوم المنتظر من شهر سبتمبر، وصلت آنابيل والطفلة وبريجيت إلى القصر. مكثن في المنزل الصغير، وبدأت آنابيل الصفوف في اليوم التالي. كان الأمر حماسياً أكثر من قبل بالنسبة إليها، وشعرت بسعادة أكثر من أي وقت مضى. لديها كونسويلو، التي تحبها كثيراً، وعادت مجددا للتشبّع من دراسة الطب. بات العمل في المستشفى في نيس أسهل عليها الآن. فبعد كل ما تعلمته، أصبحت متقدمة أكثر بكثير مما كانت عليه حين غادرت.

استعرت الحرب في شهر سبتمبر، وفي الوقت نفسه، بدأ وباء الأنفلونزا باجتياح أوروبا والولايات المتحدة، وقضى على المدنيين والعسكريين على حدّ سواء. مات الآلاف، وخصوصاً الأولاد والكبار في السن.

أخيراً، في نهاية الشهر، بدأت القوات الفرنسية والأميركية معركة موس – أرغون. وفي غضون أيام، اقتحمت قوات الجنرال دوغلاس هايغ

خط هايندنبورغ وخرقته. بعد ستة أيام، اتصلت النمسا وألمانيا بالرئيس ويلسون لطلب وقف لإطلاق النار، فيما استمرت القوات البريطانية والأميركية والفرنسية في الهجوم وقلب المعادلة. استمر القتال لخمسة أسابيع إضافية، لم تتحدث خلالها آنابيل ورفاقها في الصف عن أي شيء آخر سوى الحرب.

أخيراً، في 11 نوفمبر، عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، توقف القتال. انتهت الحرب التي دمّرت أوروبا لأكثر من أربع سنوات، وحصدت أرواح خمسة عشر مليون ضحية.

وقفت آنابيل تمسك بطفلتها حين سمعت الخبر، وانهمرت الدموع على وجنتيها.

الفصل العشرون

مع انتهاء الحرب، بدأ الناس بالعودة إلى حياتهم الطبيعية. عاد الجنود إلى مدنهم، وتزوجوا الحبيبات اللواتي تركوهن هناك، أو نساء جديدات تعرفن إليهن خلال سنوات الحرب. عادوا إلى حياتهم وأعمالهم السابقة. كان المشوهون والمصابون موجودين في كل مكان في الشوارع، على العكازات أو الكراسي المتحركة، مع أطراف مبتورة أو اصطناعية. بدا أحياناً وكأن نصف رجال أوروبا أصبحوا معوّقين الآن، لكنهم ما زالوا على الأقل على قيد الحياة. والذين لم يعودوا حزن عليهم أهلهم وتذكروهم. فكّرت آنابيل غالباً في زملائها القدامى الذين لم يعودوا. اشتاقت إلى مارسيل كل يوم، وحتى روبير، الذي عذبها من دون شفقة في الأشهر الأولى في القصر، لكنه أصبح صديقاً لطيفاً جداً في النهاية.

وصل أشخاص جدد بانتظام إلى الكلية، وكان هناك ستون طالباً في القصر بحلول فصل الربيع، وكانوا مصرّين جميعاً على أن يصبحوا أطباء ليخدموا العالم. بقيت آنابيل الطالبة الأنثى الوحيدة، وكان الجميع يعشقون كونسويلو. أقيم لها حفل بمناسبة ذكرى ميلادها الأولى بمشاركة واحد وستين طالب طب، ومشت للمرة الأولى في اليوم التالي. كانت محبوبة الجميع، وأثرت حتى في قلب الدكتور غرومون الصارم أحياناً. كان عمرها سبعة عشر شهراً حين بدأت أمها سنتها الثالثة في الطب. حرصت آنابيل كثيراً على إبقائها بعيدة عن الغرباء، لأن وباء الأنفلونزا استعر بشدة حول العالم. وفي ذلك الوقت، مات ملايين الأشخاص نتيجة ذلك.

أصبحت كلية الطب المكان المثالي بالنسبة إلى آنابيل وكونسويلو، مع ستين خالاً حنوناً يدللونها كلما سنحت لهم الفرصة. أحضروا لها هدايا صغيرة، ولعبوا معها، وكانوا يحملونها بين الحين والآخر ويلاعبونها على

ركبهم. إنها حياة سعيدة لها.

توجب على آنابيل في النهاية التخلي عن المنزل في الأنتيب، حين قرر مالكاه بيعه، وحزنت كثيراً لوداع غسطون وفلورين. لكن بريجيت بقيت معهما، وكان المنزل الصغير في كلية الطب مريحاً كفاية لهنّ.

بين الحين والآخر، فيما راقبت كونسويلو تنمو، فكرت آنابيل في الاتصال بعائلة الكونت. بعد أن أصبح لديها الآن طفلتها، تساءلت ما إذا كان يريد أهله نوعاً من رابط أخير بابنهم عبر ابنته. لكنها لم تستطع حمل نفسها على فعل ذلك. لا تريد مشاركة كونسويلو مع أحد. الطفلة تشبهها كثيراً، كما لو أن أحداً آخر لم يسهم في ولادتها. جميع من رأوها قالوا إنها نسخة طبق الأصل عن آنابيل في كل النواحي.

مرّت سنوات دراسة الطب بسرعة البرق بالنسبة إلى آنابيل. كانت مشغولة جداً ومنهمكة جداً في ما تقوم به بحيث شعرت وكأن الأمر انتهى بطرفة عين، بالرغم من أنها عملت بكدّ كبير للوصول إلى هنا.

بلغت آنابيل الثلاثين من عمرها حين تخرجت طبيبة من كلية الدكتور غرومون للطب. وبلغت كونسويلو الخامسة من عمرها في شهر أبريل. كان ترك الكلية، والمنزل الصغير الذي عاشت فيه، أشبه بترك المنزل الأساسي مجدداً. كان الأمر حماسياً ومؤلماً في الوقت نفسه. قررت آنابيل الذهاب إلى باريس، وتقدمت بطلب للعمل في مستشفى أوتيل ديو دو باريس قرب نوتردام في إيل دو لا سيتيه. إنه أقدم مستشفى في المدينة. تنوي افتتاح عيادة للطب العام. لطالما تمنت العمل مع الدكتور دو بري، لكنه توفي في الربيع الفائت. وانقطع آخر رابط لها ببلدها الأم قبل شهر واحد من تخرجها. تلقت رسالة من مدير مصرف والدها علمت من خلالها أن جوشيا مات في مكسيكو في شهر فبراير. رأى الرجل الذي تولى شؤونها في المصرف أنه يجدر به إبلاغها بالخبر، وأرفق لها رسالة تركها لها جوشيا. كان جوشيا في التاسعة والأربعين.

أعاد موته ورسالته دفقاً من الذكريات لها، وموجة عارمة من الحزن.

مضت ثمانية أعوام على تركه لها، ومجيئها إلى أوروبا، وسبعة أعوام على طلاقهما. كانت رسالته حنونة ودافئة. كتبها قبل مماته بفترة وجيزة. قال إنه كان سعيداً في مكسيكو، لكنه لطالما فكّر فيها بحب، وندم على الأشياء المريعة التي فعلها بها، وأمل أن تعثر على السعادة أيضاً وتسامحه يوماً ما. حين قرأت الرسالة، شعرت وكأن العالم الذي نضجت فيه وتشاركته معه لم يعد موجوداً. لم تعد تملك أي روابط به. حياتها في فرنسا، مع طفلتها ومهنتها. انقطعت جسورها بموطنها الأم منذ زمن بعيد. الشيء الوحيد الذي بقي لها في الولايات المتحدة هو المنزل في نيوبورت، الذي بقي فارغاً طوال ثمانية أعوام، ولا يزال يعتني به خدم أهلها الأوفياء. شكّت في أن تراهم مجدداً، لكنها لم تجرؤ على بيعه بعد، وليست مضطرة إلى فعل ذلك. ترك لها أهلها ثروة أكثر من كافية لتعيش منها وتضمن مستقبلاً آمناً لها ولكونسويلو. ذات يوم، حين تملك الشجاعة الكافية، ستبيع المنزل الصيفي القديم. لكنها لا تستطيع فعل ذلك بعد. تماماً مثلما لا تملك الشجاعة للاتصال بأهل الكونت. تعيش هي وكونسويلو في عالمهما لوحدهما.

كان مؤلماً ترك الكلية والأصدقاء الذين تعرفت إليهم هناك. سيتوزع زملاؤها الخريجون في أنحاء مختلفة من فرنسا. سيبقى العديد منهم في الجنوب، ولم تكن يوماً قريبة من الزميل الوحيد الذاهب إلى باريس. طوال الأعوام التي أمضتها في أوروبا، لم ترتبط بأي علاقة عاطفية. كانت مشغولة جداً بالعمل في أثناء الحرب، ومن ثم بدراستها وابنتها. إنها أرملة شابة محترمة، وستصبح الآن طبيبة متفانية. لا مجال في حياتها لأي شيء آخر، وتريد الأمر بهذه الطريقة. لقد حطم جوشيا قلبها، ودمّر والد كونسويلو الباقي. لا تريد رجلاً في حياتها، ولا أحد سوى ابنتها. كونسويلو وعملها هما كل ما تحتاج إليه.

ركبت آنابيل وكونسويلو القطار إلى باريس في شهر يونيو مع بريجيت، التي تحمست للذهاب إلى المدينة معهما. لم تذهب آنابيل إلى باريس منذ أعوام، وأصبحت المدينة الآن تضجّ بالحياة. وصلن إلى محطة غار دو ليون، وأخذن سيارة أجرة إلى الفندق في الضفة اليسرى حيث

حجزت آنابيل. إنه فندق صغير أرشدها إليه الدكتور غرومون، وهو ملائم لامرأتين مع طفلة. لكنه حذرها من المخاطر في باريس. لاحظت آنابيل أن سائق السيارة روسي، وأنه ذو طلة مميزة وبهيّة. بات العديد من الروس البيض موجودين في باريس الآن، يقودون سيارات الأجرة أو يعملون في وظائف متواضعة، بعد الثورة البولشوفية ومقتل عائلة القيصر.

تحمست كثيراً حين وقّعت على سجل الفندق بأنها الدكتورة ورثينغتون. اتسعت عيناها مثل الطفلة. لا تزال المرأة الشابة الجميلة التي كانت عليها حين وصلت إلى أوروبا، وحين تلعب مع كونسويلو، تبدو مثل فتاة صغيرة مجدداً. لكن وراء الروح الشابة تكمن امرأة مسؤولة وجدية، امرأة يستطيع الآخرون الوثوق بها وائتمانها على صحتهم وحياتهم. طريقة تعاملها مع المرضى كانت موضع حسد كل زملائها الطلاب، وحظيت باحترام كل أساتذتها. عرف الدكتور غرومون أنها ستكون طبيبة ممتازة، ومصدر فخر لكليته.

نزلن في الفندق. سيرسل الدكتور غرومون أغراضهنّ لاحقاً، حين يعثرن على منزل. أرادت آنابيل مكاناً تستطيع افتتاح عيادة فيه ومعاينة مرضاها.

في اليوم الذي تلا وصولهن إلى باريس، ذهبت إلى مستشفى أوتيل ديو دو باريس للاستفسار عن الإذن المطلوب للسماح لها بتحويل مرضاها إلى هناك، فيما أخذت بريجيت الطفلة كونسويلو إلى حدائق اللوكسمبورغ. صفقت الطفلة الشقراء الجميلة فرحاً حين التقت بأمها مجدداً في الفندق.

«شاهدنا جملاً، ماما»، قالت كونسويلو وهي تصفه لها، فيما ضحكت أمها وبريجيت. «أردت الركوب عليه، لكنهم لم يسمحوا لي». كشّرت ثم انفجرت في قهقهة فرحة مجدداً. إنها طفلة ساحرة.

حصلت على إذن من مستشفى أوتيل ديو بناء على توصية الدكتور غرومون. إنها خطوة مهمة بالنسبة إلى آنابيل. أخذت كونسويلو وبريجيت لتناول العشاء في فندق موريس للاحتفال، وأخذهنّ سائق التاكسي الروسي

في جولة حول باريس للتعرف إلى معالم المدينة وهي مضاءة في الليل. إنها مختلفة كثيراً عما كانت عليه حين وصلت آنابيل خلال الحرب، محطمة الفؤاد ومنبوذة من نيويورك. كانت تلك بداية حياة جديدة تماماً عملت بكدّ لتحقيقها.

أخيراً، عدن إلى الفندق عند الساعة العاشرة مساء. نامت كونسويلو في السيارة، وحملتها آنابيل إلى الأعلى ووضعتها برفق في سريرها. ثم عادت إلى غرفتها، ونظرت خارج النافذة لرؤية باريس ليلاً. لم تشعر بهذا الشباب وهذه الحماسة منذ أعوام. بالكاد تستطيع الانتظار لبدء العمل، لكن عليها العثور على منزل أولاً.

خلال الأسابيع الثلاثة التالية، شعرت آنابيل وكأنها تزور كل منزل في باريس، في الجهتين اليمنى واليسرى من الأحياء والأزقّة، فيما أخذت بريجيت كونسويلو إلى كل الحدائق العامة في باريس؛ باغاتيل، حدائق اللوكسمبورغ، بوا دو بولوني. خرجن هنّ الثلاث لتناول العشاء كل ليلة. إنه أكثر وقت ممتع عرفته آنابيل منذ أعوام، وكانت هذه حياة جديدة وناضجة بالنسبة إليها.

في أثناء البحث عن منزل، ذهبت آنابيل لشراء ملابس جديدة، جدية كفاية لطبيبة، وإنما أنيقة كفاية لامرأة باريسية. تذكرت حين تسوقت جهازها برفقة أمها، وأخبرت ابنتها كونسويلو عن ذلك. أحبت الفتاة الصغيرة سماع قصص عن جدتها وجدها والخال روبرت. أعطاها ذلك الإحساس بالانتماء إلى أشخاص أكثر من أمها فقط، وتألمت آنابيل دوماً على العائلة التي لا تستطيع منحها إياها. لكنهما تملكان بعضهما، وذكّرت دوماً كونسويلو بأن هذا كل ما تحتاجان إليه. قالت كونسويلو إنهما بحاجة إلى حيوان أليف أيضاً. كل من في باريس يملكون حيوانات أليفة، ووعدتها آنابيل بأن تحضر حيواناً أليفاً أيضاً حين تعثر على منزل. إنها أيام سعيدة بالنسبة إليهنّ جميعاً، وكانت بريجيت تستمتع أيضاً بوقتها وتغازل أحد الشباب في الفندق. لقد بلغت للتو الحادية والعشرين، وهي فتاة جميلة جداً.

في نهاية شهر يوليو، بدأت آنابيل تفقد عزيمتها. لم تعثر بعد على

منزل. كل ما رأته كان كبيراً جداً أو صغيراً جداً، ولا يمتاز بالهندسة الملائمة لافتتاح عيادة طبية. بدا وكأنها لن تعثر أبداً على ما تحتاج إليه. أخيراً، عثرت على المكان المثالي في شارع ضيق في الدائرة السادسة عشرة. إنه منزل صغير وإنما أنيق مع فناء أمامي وحديقة خلفية، وغرفة ذات مدخل خاص حيث تستطيع معاينة مرضاها. إنه في حالة ممتازة، وهو عقار معروض للبيع من قِبل مصرف. أحبته آنابيل. بدا ملائماً تماماً لطبيبة. وثمة حديقة عامة صغيرة مجاورة حيث تستطيع كونسويلو اللعب مع أولاد آخرين.

قدّمت آنابيل فوراً عرضاً لشراء المنزل، ووافقت على السعر المطلوب من قِبَل المصرف، وحصلت على ملكيته في نهاية شهر أغسطس. في غضون ذلك، اشترت الأثاث، والبياضات، وأدوات المطبخ، وبعض المفروشات القديمة الخاصة بالأولاد لغرفة كونسويلو، وبعض الأشياء الجميلة لغرفها الخاصة وبعض المفروشات البسيطة لغرفة بريجيت. اشترت بعض الأثاث الكلاسيكي لعيادتها، وأمضت شهر سبتمبر وهي تشتري المعدّات الطبية التي تحتاج إليها في العيادة. ذهبت إلى المطابع واشترت القرطاسية، ووظفت سكرتيرة طبية قالت إنها عملت في روايامون أيضاً، بالرغم من أن آنابيل لم تلتقِ بها أبداً. كانت هيلين امرأة هادئة وكبيرة في السن، عملت مع أطباء مختلفين قبل الحرب، وفرحت بمساعدة آنابيل على تأسيس مهنتها.

في بداية شهر أكتوبر، كانت آنابيل مستعدة لفتح عيادتها. استغرق الأمر وقتاً أكثر مما كان متوقعاً، لكنها أرادت أن يكون كل شيء ممتازاً. علّقت بيدين مرتعشتين لافتتها وانتظرت حصول شيء ما. كل ما تحتاج إليه هو دخول شخص عبر الباب، وبعد ذلك ينتشر الخبر من شخص إلى آخر. لو كان الدكتور دو بري لا يزال على قيد الحياة، لأحال المرضى إليها، لكنه مات. كتب الدكتور غرومون رسائل إلى عدة أطباء يعرفهم في باريس، وطلب منهم إحالة بعض المرضى إليها، لكن هذا لم يثمر عن أي نتيجة بعد.

خلال الأسابيع الثلاثة الأولى، لم يحصل أي شيء أبداً. جلست آنابيل

وسكرتيرتها هيلين قبالة بعضهما من دون فعل أي شيء على الإطلاق. ذهبت إلى القسم الرئيسي من المنزل، وتناولت الغداء مع كونسويلو كل يوم. وأخيراً، في بداية شهر نوفمبر، دخلت امرأة إلى عيادتها مع التواء في المعصم، ورجل يعاني من جرح عميق في الإصبع. بعد ذلك، بات هناك دفق مطرد من المرضى في غرفة الانتظار في عيادة آنابيل. كل مريض أرسل آخر. لم تكن حالات صعبة، وإنما بدت أموراً بسيطة تسهل معالجتها. إلا أن جديتها وكفاءتها ولطافتها مع المرضى جعلتها تفوز بقلوبهم على الفور. انتقل بعض الأشخاص من أطباء آخرين، وأرسلوا أصدقاءهم، وأحضروا أولادهم، واستشاروها في المشاكل الصغيرة والكبيرة. في شهر يناير، كانت تعمل بدوام كامل في العيادة. طبّقت ما تدربت عليه، وأحبت كل دقيقة من ذلك. حرصت على شكر الأطباء الآخرين الذين أحالوا المرضى إليها، واحترمت دوماً آراءهم السابقة، كي لا تجعلهم يبدون أغبياء أمام مرضاهم، بالرغم من أن بعضهم استحق ذلك فعلاً. كانت آنابيل دقيقة، وبارعة، وصاحبة طريقة حنونة. بالرغم من جمالها، وشبابها، بدت جدية تماماً في مهنتها، ووثق بها المرضى تماماً.

في شهر فبراير، أدخلت ولد أحد مرضاها إلى المستشفى. كان في الثانية عشرة من العمر فقط ويعاني من التهاب وخيم في الرئة. زارته آنابيل في المستشفى مرتين يومياً، وقلقت كثيراً عليه في مرحلة ما، لكن الصبي تغلب على المرض، وشعرت أمه بالامتنان الكبير لها. جربت آنابيل بعض التقنيات الجديدة التي استعملوها في المستشفى في فيليرز – كوتريت مع الجنود، وكانت تبدع دوماً في مزج الطرائق الجديدة مع القديمة. لا تزال تقرأ وتدرس بكدّ في الليل للاطّلاع على الأبحاث الجديدة. انفتاحها على الأفكار الجديدة ساعدها كثيراً، وقرأت كل شيء مكتوب تقريباً في المجلات الطبية. سهرت تقرأها حتى وقت متأخر من الليل، وهي تحضن كونسويلو غالباً في السرير، التي بدأت تقول إنها تريد أن تصبح طبيبة هي الأخرى. تريد الفتيات الصغيرات الأخريات أن يصبحن ممرضات، لكنهن يطمحن إلى معيارٍ عالٍ في عائلة آنابيل. لم تكفَّ آنابيل عن التساؤل أحياناً

ما كان رأي أمها في كل ما حصل. عرفت أنها لم تصبح ما أرادته منها أمها، لكنها أملت أن تكون فخورة بها على أي حال. عرفت أن كونسويلو كانت ستنهار بسبب طلاق جوشيا منها، وتساءلت ما إذا كان طلّقها لو لم تمت أمها. لكن الأمر لم يعد مهماً الآن. وما فائدة بقائها متزوجة به؟ لم تكن تملك الفرصة أبداً. لا تشعر بالمرارة حيال ذلك، لكنها حزينة. حين تفكر في الأمر، تشعر بألم خفيف تظن أنه سيرافقها طوال حياتها.

الشيء الوحيد الذي لا يجعلها أبداً حزينة هي كونسويلو. إنها أسعد وأجمل وأظرف طفلة، وتعشق أمها. ظنت أن الشمس تشرق وتغيب من عينيها، وصوّرت لها آنابيل والداً وهمياً كي لا تشعر الفتاة الصغيرة بالحرمان. أخبرتها أن والدها كان إنكليزياً، شخصاً رائعاً، من عائلة محترمة، ومات كبطل شجاع جداً قبل أن تولد. يبدو أنه لم يخطر أبداً للطفلة أن تسأل عن سبب عدم رؤيتها لعائلة والدها. عرفت أن كل أقارب أمها ماتوا، لكن آنابيل لم تقل أبداً إن أقارب والدها ماتوا أيضاً. لم تذكر كونسويلو الأمر أبداً، وإنما أصغت فقط باهتمام، ثم استدارت كونسويلو يوماً ما نحو أمها في أثناء تناول الغداء، وسألتها إذا كانت جدتها لوالدها تستطيع زيارتها في وقت ما، تلك الموجودة في إنكلترا. حدّقت إليها آنابيل عبر الطاولة كما لو أن قنبلة انفجرت أمام عينيها، ولم تعرف ماذا تقول لها. لم يخطر أبداً لآنابيل أن هذا اليوم قد يحلّ، ولم تكن مستعدة أبداً له. كونسويلو في السادسة من عمرها، وكل صديقاتها في الحديقة العامة لديهنّ جدات. فلِمَ لا تستطيع زيارة جدتها هي أيضاً؟

«أنا... آه... حسناً، إنها في إنكلترا. ولم أتحدث إليها منذ وقت طويل... حسناً، في الواقع» – تكره الكذب على طفلتها – «أبداً... لم ألتق بها أبداً. أحببنا أنا ووالدك بعضنا وتزوجنا خلال الحرب، ثم مات، ولم أتعرف أبداً إلى عائلته». كانت تتلعثم في كلماتها فيما راقبتها كونسويلو.

«ألا تريد أن تراني؟». بدت كونسويلو خائبة الأمل، وشعرت آنابيل بغصة في قلبها. لقد أحدثت الفوضى بنفسها، وباستثناء إخبار ابنتها أن جديها لا يعرفان حتى بوجودها، لم تعرف ماذا تقول. لكنها لا تريد أن تُجبر على

الاتصال بهما أيضاً. إنها معضلة رهيبة بالنسبة إليها.

«أنا واثقة من أنها ترغب بلقائك، إذا استطاعت... أعني، إذا لم تكن مريضة أو أي شيء آخر... قد تكون عجوزاً جداً». ثم بتنهيدة كبيرة وغصة عميقة، وعدت آنابيل: «سأكتب لها، وسنرى ماذا تقول».

«جيد». ابتسمت لها كونسويلو عبر الطاولة، وفيما عادت آنابيل إلى عيادتها كانت تلعن هاري وينشاير مثلما لم تفعل طوال أعوام.

الفصل الحادي والعشرون

وفت بوعدها لكونسويلو، فجلست آنابيل لكتابة رسالة لليدي وينشاير. لم تعرف ماذا تقول أو كيف تتطرق إلى الموضوع. فحقيقة أن ابنها اغتصبها، وأنجبت لاحقاً ابنة غير شرعية، لا تبدو مثل مقدمة جميلة، ولا يحتمل أن تروق لليدي وينشاير أيضاً. لكنها لم تشأ أن تكذب عليها. في النهاية، كتبت رسالة بسيطة ومهذبة جداً. لا تريد حقاً أن ترى الليدي وينشاير، أو حتى أن تلتقي بها كونسويلو، لكنها أرادت أن تخبر الطفلة على الأقل أنها جرّبت.

كتبت لها أنها التقت هي وهاري خلال الحرب في فيليرز - كوتريت، في مستشفى حيث كانت تعمل. هذا حقيقي على الأقل، بالرغم من أن القول إنه اغتصبها يكون أكثر دقة. من ثم قالت إنهما لم يعرفا بعضهما جيداً ولم يكونا صديقين، وهذا أيضاً صحيح، وإن حادثاً مؤسفاً حصل، وهذا صحيح أيضاً، أنجبت نتيجته طفلة صغيرة قبل ستة أعوام. قالت إنها لم تتصل بهم قبلاً لأنها لا تريد شيئاً منهم. شرحت أنها أميركية، وجاءت إلى فرنسا كمتطوعة، والتقت بهاري، والحمل الذي نجم عن ذلك هو أحد النتائج غير السعيدة للحرب، لكن ابنتها هي كائن حي صغير رائع استفسرت أخيراً عن جدتها لأبيها، وهذا صعب جداً بالنسبة إلى آنابيل أيضاً. قالت إنها لا تريد الاستمرار في الكذب عليها أكثر مما فعلت قبلاً. قالت إن الطفلة تظن أن والديها كانا متزوجين، وهذا ليس صحيحاً. ثم اقترحت آنابيل إذا كانت تودّ الليدي وينشاير ذلك، إرسال رسالة أو ملاحظة قصيرة إلى كونسويلو، ربما مع صورة فوتوغرافية. يمكنهما الاكتفاء بهذا. وقعت الرسالة باسم الدكتورة آنابيل ورثينغتون كي تعرف المرأة على الأقل أنها إنسانة محترمة، حتى لو لم يكن ذلك ضرورياً. بعكس ابنها الذي لم يكن محترماً أبداً وكان يجب

وضعه في السجن، لكنه بدلاً من ذلك سبب ولادة أجمل طفلة في الأرض، ولا تستطيع آنابيل كرهه على ذلك. بطريقتها الخاصة، كانت ممتنة له إلى الأبد، لكنه ليس ذكرى سعيدة بالنسبة إليها.

بعدما أرسلت الرسالة، نسيت آنابيل أمرها تماماً. انشغلت كثيراً في شهر مايو، إذ كانت قاعة الانتظار في عيادتها مليئة على الدوام. لم تتلقَ أي جواب من الليدي وينشاير، وفي ذلك الوقت، نسيت كونسويلو أمرها أيضاً. بدأت المدرسة ذلك الشتاء، وذهبت إلى هناك كل يوم، مما منح بريجيت الوقت لمساعدتها هي وهيلين في العيادة.

كانت آنابيل عائدة للتو من معاينة مريض في المستشفى حين أخبرتها هيلين أن هناك امرأة في انتظارها. مضى على وجودها هنا ساعتان، ورفضت الإفصاح عما تريده. افترضت آنابيل أنّ لديها مشكلة محرجة نوعاً ما. ارتدت ثوبها الأبيض، وجلست أمام مكتبها، وطلبت من هيلين إدخالها.

بعد دقيقتين، كانت هيلين ترافق سيدة عجوزاً كبيرة الحجم. إنها امرأة ضخمة ذات صوت أجشّ، تعتمر قبعة عملاقة، وتضع حول عنقها ستة قلائد تقريباً من اللآلئ العملاقة، وكانت تحمل في يدها عصا فضية. بدت وكأنها ستضرب أحدهم بها فيما دخلت إلى العيادة. وقفت آنابيل لإلقاء التحية عليها، وأجبرت نفسها على عدم الابتسام. تجاهلت المرأة يد آنابيل الممدودة، ووقفت تحدق إليها. لا تبدو مريضة ولم تعرف آنابيل ماذا تفعل هنا. تطرقت مباشرة إلى الموضوع.

صرخت في وجه آنابيل بالإنكليزية «ما كل هذا الهراء عن موضوع الحفيدة؟ لم يكن لابني أولاد، ولا مسؤوليات، ولا نساء مهمات في حياته حين مات. وإذا كنت تزعمين أنك أنجبت طفلة منه، لماذا انتظرت ست سنوات لكتابة الرسالة إليّ؟». حين قالت ذلك، جلست على الكرسي في الجهة المقابلة من مكتب آنابيل، وحدقت إليها بإمعان. كانت بغيضة بقدر ابنها، ولم تسرّ آنابيل أبداً حين أدركت من تكون، وأنه بدلاً من الإجابة على الرسالة، ظهرت أمه لتزعجها.

قالت آنابيل ببرود: «انتظرت ست سنوات للاتصال بك، لأنني لم أشأ الاتصال بك أساساً». يمكنها أن تكون فظة بقدر الليدي وينشاير نفسها. بدت في العقد السابع تقريباً، وهذا عمر منطقي تقريباً، لأن هاري كان سيصبح في بداية العقد الثالث الآن. بدا أنه في مثل عمرها تقريباً ليلة اغتصبها. «كتبتُ لك لأن ابنتي انزعجت من عدم امتلاكها جدة. لم تفهم لماذا لم نلتقِ بك أبداً. وقلت لها إننا كنا أنا ووالدها متزوجين لوقت قصير، في الجبهة، ثم قتل هناك. لذا، لم نملك أنا وأنت الوقت للّقاء أبداً. هذا غريب جداً بالنسبة إليّ أيضاً».

بدت الليدي وينشاير مذهولة «هل كنت متزوجة بابني؟».

هزّت آنابيل رأسها بهدوء «لا، لم نكن. التقيت به مرة واحدة فقط». قول ذلك أعطى أمه انطباعاً سيئاً جداً عنها، لكنها لا تظن أن المرأة، مهما كانت مقيتة، تريد أن تعرف أن ابنها مغتصب للنساء. بدا لآنابيل أنها تستحق هي وكونسويلو الحفاظ على الوهم، ولذلك لم تمسّ بكرامة الليدي وينشاير على حسابها الخاص. «أفضل أن تستمر ابنتي في الاعتقاد أننا كنا متزوجين. أودّ منحها ذلك على الأقل».

سألت الليدي وينشاير باهتمام مفاجئ «هل كنتِ طبيبة حينها؟».

هزّت آنابيل رأسها مجدداً «لا، لم أكن. كنت مسعفة طبية، أعمل في فرق سيارات الإسعاف».

«كيف التقيتِ به؟». ثمة شيء أصبح أكثر حناناً في عينيها. لقد خسرت ابنها خلال الحرب وليست غريبة على الألم أو الخسارة.

أجابت آنابيل بهدوء، متمنية لو أنها لم تأتِ «هذا ليس مهماً، لم نعرف بعضنا تماماً. جاءت ابنتي نتيجة حادث».

«أي نوع من الحوادث؟». أرادت معرفة الحقيقة. وآنابيل هي الحقيقة.

تنهدت آنابيل قبل الإجابة، محاولة العثور على طريقة لقول ذلك. لن تقول الحقيقة حتماً. «كان في حالة يرثى لها كثيراً».

لـم تتفاجـأ الليدي وينشـاير. «لطالما فعل ذلك. لطالما شـرب هاري الكثير من الشراب، وفعل الكثير من الأشياء الغبية كلما وصل إلى تلك الحالة المذرية». حدقت عيناها إلى عيني آنابيل. «كم كان غبياً معك؟».

ابتسـمت آنابيل، متسـائلة ما إذا كانت أمه تظن أنها تحاول ابتزازها، وقررت طمأنتها مجدداً. «لا أريد أي شيء منك».

«ليس هذا هو الموضوع. إذا كان هذا صحيحاً، أملك الحق في معرفة كم كان ابني غبياً معك».

تحدثت آنابيل بوقار هادئ «لماذا؟ وأي فرق يحدث هذا؟».

قالت الليدي وينشـاير بهدوء وهي تجلس مجدداً على الكرسـي: «أنت امـرأة كريمـة جداً». بدت وكأنها أتت إلـى هنا لتبقى حتى تعرف الحقيقة. «لكنني أعرف أيضاً ابني. ابني إدوارد كان رقيقاً كالنسمة. أما هاري فكان النقطة السـوداء في حياتنا. كان رائعاً كطفل، وسـيئاً جداً كرجل. تصـرف أحياناً بسـوء كبير. ولم يتحسـن الأمر حين كان يشـرب. أظن أنني أعرف معظم القصص عنه». تنهدت حينها. «أردت أن آتي لأراك، لأنه لم يقل لي أحد قبلك إن هناك طفل. شككت كثيراً فيك حين قرأت رسالتك. ظننت أنك تريدين شيئاً ما. أرى الآن أنك امرأة صادقة، وتشكّين الآن فيّ مثلما شككتُ أنا فيك». ابتسمت المرأة العجوز ومررت يدها فوق لآلئها العديدة. «ترددت في المجيء»، اعترفت. «لم أشـأ التورط مع امرأة بذيئة، تملك الشـجاعة للادعاء أنها أنجبت طفلة من ابني. لكن يبدو جلياً أنّ هذه ليسـت حالك، ولديّ شعور قويّ بأن لقاءك مع ابني لم يكن جميلاً، بل كان سيئاً، ولا أريد تذكيرك بهذا».

«شـكراً»، قالت آنابيل، وهي تقدّر كل ما سـمعته. ثم أذهلتها الليدي وينشاير بما قالته.

سـألت بصـراحة «هل اغتصبك؟». يبدو أنها تعرف ابنها جيداً. ساد تـردد طويـل فـي الغرفة، وأخيراً أومأت آنابيل برأسـها، آسـفة لإخبارها الحقيقة.

«نعم».

قالت المرأة العجوز بحنان أكبر: «أنا آسفة، ليست هذه المرة الأولى التـي أسـمع فيهـا هذا». تابعـت الأم بندم. «لا أعرف ما المشـكلة معه». امتـلأت عيناهـا بالحزن فيما نظرت هي وآنابيل إلى بعضـهما. «ماذا نفعل الآن؟ عليّ الاعتراف أنني كنت خائفة مما سأجده هنا، لكنني لم أستطع أيضاً مقاومـة رغبتـي برؤية حفيدتـي، إذا كان هناك فعلاً واحدة. مات ولداي. ومـات زوجـي مـن التهاب الرئة في الربيع الماضـي. ولم يتزوج أي من ولـديّ، ولـم ينجبا الأولاد. حتى جئت أنت». تلألأت الدموع في عينيها، فيما نظرت إليها آنابيل بحنان.

«هل تودين التعرف إلى كونسـويلو؟». إلا أنها حذرتها، بالرغم من أن الأمر غير مهم، لأنها لا تريد أي شـيء من إرثه، «لا تبدو مثله. إنها تشبهني».

«أسـتطيع القـول إن هـذه نعمـة كبيرة»، قالت المـرأة العجوز وهي تبتسم. وقفت بصعوبة واستخدمت عصاها.

وقفـت آنابيـل أيضـاً، واسـتدارت حـول مكتبها، وأخرجـت الليدي وينشـاير من العيادة بعدما أخبرت هيلين إلى أين تذهبان. لحسـن الحظ أنّ لديها اسـتراحة بين مواعيد مرضـاها. مشـت المرأتان عبر الفناء نحو القسم الأساسـي من المنزل. عرفت أن كونسـويلو قد عادت من المدرسـة الآن، وفتحت الباب بنفسها بواسطة المفتاح، وهي لا تزال ترتدي ثوبها الأبيض. صـعدت الليدي وينشـاير على الدرج، خارج المنزل، ووقفت تنظر حول القاعة الأمامية.

قالت بتهذيب: «تملكين منزلاً جميلاً جداً». تأثرت بكل شـيء رأته. ذوق آنابيل رفيع جدًا، ويبدو أن لها تاريخاً مع الأشياء الراقية.

شـكرتها آنابيل، وأدخلتها إلى غرفة الجلوس الرئيسـية. ثم صـعدت إلى الأعلى لإحضار ابنتها. أخبرتها أن هناك ضيفاً وتريد منها إلقاء التحية عليه. لكنها لم تقل أكثر.

فيما نزلت آنابيل وكونسويلو على الدرج، كانتا تتحدثان بحيوية مع بعضهما، وتمسكان بيدي بعضهما. في الأسفل، توقفت كونسويلو، وابتسمت بخجل لضيفتهما، وانحنت أمامها، ثم ذهبت لمصافحة يدها. كانت الطفلة مهذبة جداً وحسنة السلوك، وألقت الليدي وينشاير نظرة الموافقة على آنابيل فوق رأس كونسويلو.

«كيف حالك كونسويلو»، قالت فيما تأملت الفتاة الصغيرة القبعة الكبيرة وقلائد اللؤلؤ المتعددة.

«قبعتك جميلة جداً»، قالت الفتاة الصغيرة وهي تحدق إليها فيما ابتسمت المرأة العجوز.

«هذا لطف كبير منك. إنها قبعة سخيفة قديمة، لكنني أحبها. وأنت فتاة جميلة جداً». لم تحظَ أبداً بأي حفيد من قبل، ولم تتحدث إلى طفل منذ أعوام. «جئت من إنكلترا خصيصاً لأراك»، تابعت فيما حدقت إليها كونسويلو. «هل تعرفين من أكون؟»، سألت بحنان وهزّت كونسويلو رأسها. «أنا الجدة التي لم تلتقِ بها أبداً. أنا أم والدك». اتسعت عينا كونسويلو فيما نظرت عبر كتفها إلى أمها ثم نظرت إلى جدتها. قالت الليدي وينشاير بصرامة: «أنا آسفة لأننا لم نلتقِ قبلاً. لكن هذا لن يتكرر بعد الآن». لم تشاهد قبلاً طفلة فاتنة هكذا، وكانت تصرفاتها رائعة. «أحضرت معي بعض الصور الفوتوغرافية لوالدك حين كان فتى صغيراً. هل تودّين رؤيتها؟». أومأت كونسويلو برأسها، وجلست قربها على الأريكة، فيما أخرجت الليدي وينشاير رزمة من الصور الفوتوغرافية القديمة من حقيبتها، وذهبت آنابيل بهدوء لتطلب من بريجيت تحضير الشاي.

بقيت الليدي وينشاير معهما لأكثر من ساعة، وحين عادت كونسويلو إلى الأعلى مع بريجيت، هنأت آنابيل على هذه الطفلة الرائعة.

«إنها فتاة صغيرة رائعة». وافقت أمها.

«لم يعرف ابني كم كان محظوظاً لأنه صادف شخصاً مثلك وترك وراءه مثل هذه الفتاة الرائعة في العالم». كانت تنظر إلى آنابيل بامتنان

وحنان. لقد وقعت في غرام كونسويلو من النظرة الأولى. يصعب عدم حصول ذلك، وسرّت آنابيل للمرة الأولى بمجيئها شخصياً بدلاً من الرد برسالة. إنها هدية رائعة بالنسبة إلى كونسويلو أيضاً. «أنا آسفة لأنه كان سيئاً جداً معك. ولكن، كانت لديه بعض الحسنات والصفات الحميدة مع ذلك. أنا آسفة لأنك لم تعرفيه أبداً. لا بد من أن الأمر كان صعباً جداً عليك في البداية».

أومأت آنابيل برأسها. «بقيت في المستشفى لأطول وقت ممكن، ثم ذهبت إلى الأنتيب. ولدت كونسويلو هناك».

«وعائلتك في الولايات المتحدة؟». بدا غريباً لها أن تمارس آنابيل الطب في باريس بدلاً من العودة إلى وطنها، بالرغم من أن الطفلة عقّدت بلا شك الأمور عليها.

قالت آنابيل ببساطة: «مات أفراد عائلتي، لقد ماتوا جميعاً قبل أن آتي إلى هنا. لا يوجد سوى أنا وكونسويلو». أصبحت الليدي وينشاير وحيدة الآن في العالم أيضاً. وبطريقة غريبة، أصبحن هنّ الثلاث يملكن بعضهن بعضاً.

أخيراً، وقفت ووضعت يد آنابيل في يدها. قالت والدموع في عينيها: «شكراً لك على هذه الهدية الاستثنائية، إنه جزء صغير من هاري أستطيع التشبث به، وكونسويلو هي طفلة رائعة بحدّ ذاتها». بعدها، عانقت آنابيل وقبلتها على وجنتها. ساعدتها آنابيل على نزول الدرج للوصول إلى السيارة حيث السائق الذي كان ينتظرها خارجاً. بدت فجأة أكبر سناً مما كانت عليه حين وصلت. وابتسمت لآنابيل مجدداً قبل أن تغادر ووضعت شيئاً في يدها. «هذا لك عزيزتي. أنت تستحقينه. إنه شيء صغير جداً». حاولت آنابيل رفضه، من دون النظر إليه حتى، لكن الليدي وينشاير أصرّت. تعانقت المرأتان مجدداً، وشعرت آنابيل وكأنها وابنتها تملكان الآن صديقة جديدة، مثل عمة عجوز رائعة. فرحت الآن لأنها كتبت لها الرسالة. لقد كانت خطوة مناسبة لهنّ جميعاً.

لوّحت لليدي وينشاير فيما ابتعدت، وبعدما غادرت نظرت آنابيل إلى هذا الشيء الموجود في راحة يدها. أحسّت أنه خاتم، لكنها لم تكن تعرف أبداً نوع الخاتم. إنه خاتم جميل وقديم من الزمرد كبير الحجم، مرصع بالماس القديم. ذهلت آنابيل. بدا مثل الخواتم التي كانت تضعها جدتها، والتي لا تزال محفوظة في الخزنة في المصرف في نيويورك. إلا أنها وضعت الخاتم في إصبعها مع خاتم الزفاف الذي اشترته لنفسها. تأثرت كثيراً بالهدية. ستعطيه لكونسويلو يوماً ما، وستضعه في إصبعها في غضون ذلك. وفيما عادت إلى عيادتها، قالت لنفسها أصبح لابنتها الآن جدة، ولم تعد هي وكونسويلو لوحدهما في العالم.

الفصل الثاني والعشرون

تفشّى وباء الأنفلونزا على نحوٍ خفيف في باريس ذلك الصيف، وظن البعض أنه نتيجة الحرّ، وأدخلت آنابيل عدة مرضى إلى المستشفى. زارتهم مرتين يومياً، لكنها أملت أن تتمكن من الذهاب بعيداً مع كونسويلو وبريجيت في شهر أغسطس. لم تحسم أمرها بعد بين دوردوني أو بريتاني أو جنوب فرنسا. ومثلما تبين، لم يذهبن إلى أي من تلك الأماكن. هناك الكثير من المرضى الذين توجب عليها الاهتمام بهم. ذهبن بدلاً من ذلك إلى دوفيل، إلى شاطئ البحر في النورماندي، لأيام قليلة، حين تعافى مرضاها.

بعدما عدن، أدخلت اثنين من مرضاها إلى المستشفى بسبب التهاب في الرئة. كانت تغادر المستشفى بعد ظهر ذات يوم، وهي تفكر في المريض الذي زارته للتو، وهي امرأة عجوز لم تكن في حال جيدة. كانت آنابيل تحاول التوصل إلى حلول جديدة لمشاكلها العديدة، حين ارتطمت بأحدهم على درج المستشفى، كان صاعداً فيما هي تغادر. ارتطما ببعضهما بقوة كبيرة بحيث كاد يوقعها أرضاً، ومدّ ذراعيه بسرعة للإمساك بها قبل أن تقع على الدرج.

قالت باعتذار: «آه أنا آسفة جداً، لم أكن أنظر أمامي».

«ولا أنا». اعتذر هو الآخر، وكشف عن ابتسامة ساحرة. «هل كنت تزورين صديقاً؟». إنه خطأ صريح وضحكت.

«لا أنا طبيبة». على الأقل لم يظن أنها ممرضة.

قال وهو يضحك لها: «يا لها من صدفة سعيدة، وأنا أيضاً. لماذا لم أكن محظوظاً كفاية لألتقي بك من قبل؟». كان وسيماً جداً، ولم تكن معتادة على ممازحة الرجال بهذه الطريقة. طوال أعوام عدة، اختبأت وراء دورها كطبيبة أو أرملة أو أم كونسويلو. لم يغازلها الرجال أبداً،

لكنه بدا مليئاً بالحيلة والمرح وبدا وسيم المظهر من دون أي شك. «ما هو اختصاصك؟»، سألها باهتمام، من دون أن ينزعج أبداً لأنهما لم يتعرفا إلى بعضهما بطريقة رسمية. أخبرها أنه أنطوان دو سان غري، وسألها عن اسمها، فأخبرته. لم يصدق أنها أميركية، لأنها تتحدث الفرنسية بطلاقة.

«أنا في الطب العام»، قالت ببساطة، وهي محرجة للتحدث إلى غريب.

«أنا جرّاح عظام»، قال بغرور واضح. عرفت أن معظم جرّاحي العظام يعتدّون بأنفسهم، إلا خلال الحرب حين شعروا بالإذلال، مثل الجميع، نتيجة ما رأوه وعدم قدرتهم على إصلاح الأضرار.

رافقها في النزول على درج المستشفى، للتأكد من عدم وقوعها، حسبما قال، وراقبها تصعد إلى السيارة التي قادتها بنفسها.

سألها وعيناه تشعّان بريقاً «هل سأكون محظوظاً كفاية برؤيتك مجدداً؟». فضحكت.

«إذا كسرت ساقي، سأتصل بك».

«لا تنتظري حتى ذلك الحين. وإلا سأعرّض نفسي لالتهاب في الرئتين وأتصل بك. وسيكون ذلك مؤسفاً جداً. أفضل أن أراك حين نكون كلانا في صحة جيدة». لوّح لها فيما ابتعدت في سيارتها، وعاد مسرعاً إلى المستشفى. حديث رجل إليها أدخل بعض الحماسة إلى نهارها. فهذا نادراً ما يحصل معها، بل لا يحدث على الإطلاق.

أمضت أمسية هادئة تقرأ لكونسويلو ثم وضعتها في سريرها. وفي اليوم التالي في العيادة، كانت منهمكة في معاينة المرضى حين أخبرتها هيلين أن هناك طبيباً في قاعة الانتظار، يطلب رؤيتها على الفور. قال إنه يريد استشارتها في حالة. انتهت من المريض الذي كان عندها، وخرجت محتارة. لم تتخيل من يكون. ثم رأت أنطوان دو سان غري في معطف أزرق أنيق، يحدث الفوضى في قاعة الانتظار، بحيث يسلّي المرضى الذين كانوا يضحكون بمعظمهم. كان يخبرهم النكات، فأدخلته إلى عيادتها.

«ماذا تفعل هنا؟»، سألته بابتسامة محرجة. سرّت برؤيته مجدداً، لكنها تعمل «أنا أعاين المرضى».

«تأثرت جداً. أظن أنني أصبت بالزكام ليلة البارحة. أعاني من تقرح كبير في الحنجرة». مدّ لسانه لها لتنظر إليه فيما قال ذلك. وضحكت عليه. إنه غير محتشم وساحر على نحو محرج.

«تبدو لي بحال جيدة».

سألها «كيف حال ساقك؟».

«ساقي؟ بخير. لماذا؟».

«تبدو لي مكسورة. دعيني أفحصها». انحنى كما لو أنه أراد الوصول إلى حاشية تنورتها، فتراجعت إلى الخلف وهي تضحك.

«دكتور، عليّ أن أطلب منك المغادرة. عليّ معاينة مرضاي».

«جيد. إذا أردت التصرف بهذه الطريقة. إذاً فوافيني الليلة على العشاء».

«آه... لا... لا أستطيع».

ضحك عليها «لا يمكنك حتى التفكير في عذر مقبول، هذا مرضي فعلاً. سأمرّ لاصطحابك عند الثامنة». عندئذ، عاد إلى غرفة الانتظار، ولوّح لمرضاها، وغادر. إنه مربك بكل معنى الكلمة، وسيّئ التصرف، وبالرغم من ذلك، أو بسبب ذلك، هو وسيم جداً، لا بل تعجز عن مقاومته.

«من هذا؟»، سألت هيلين مع نظرة غير موافقة، قبل أن تدخل بسرعة المريض التالي.

«إنه جرّاح عظام».

«يفسّر ذلك كل شيء»، تمتمت هيلين ولاحظت التعبير الطفولي على وجه مديرتها. لم تشاهدها أبداً على هذا النحو من قبل. «إنه مجنون»، أضافت هيلين، ثم ابتسمت رغماً عنها. «إلا أنه مجنون وسيم. هل سترينه مجدداً؟».

توردت آنابيل خجلاً. «الليلة. على العشاء».

حذرتها هيلين «آه. احذري منه».

«سأفعل»، طمأنتها آنابيل ثم عادت لمعاينة المرضى.

وصلت إلى المنزل بعد السابعة من تلك الليلة، بعدما عاينت آخر مريض، وأغلقت العيادة. كانت كونسويلو في المغطس، تضحك مع بريجيت. نظرت آنابيل إلى ساعتها، وأدركت أن أمامها أقل من ساعة للاستعداد للعشاء مع الفظيع الدكتور دو سان غري. ذهبت لتقبيل كونسويلو التي أرادت اللعب مع أمها بعد الحمام.

قالت آنابيل باعتذار: «لا أستطيع، أنا خارجة».

«حقاً؟». بدت كونسويلو مصدومة. فهذا أمر غير اعتيادي البتة. في الواقع، لم يحصل أبداً إلا مرات قليلة جداً حين ذهبت آنابيل إلى اجتماع للأطباء أو إلى مؤتمر للنساء الطبيبات. باستثناء ذلك، لا تخرج أبداً، وليس لديها حياة اجتماعية، منذ أن غادرت نيويورك قبل تسعة أعوام. لذا، جاء إعلانها مثل القنبلة التي انفجرت أمام عينيها. «إلى أين أنت ذاهبة؟».

قالت ببراءة: «لتناول العشاء مع طبيب».

«آه. أين؟» أرادت كونسويلو معرفة كل شيء، وبدت أمها محرجة قليلاً.

«لا أعرف. سيمرّ لاصطحابي عند الساعة الثامنة».

«هو؟ وكيف هو شكله؟».

«مجرد شخص»، قالت آنابيل بغموض. لا تريد القول إنه وسيم جداً. غادرت الحمام حينها، وذهبت لارتداء ملابسها. إنها ليلة دافئة. ارتدت طقماً من الكتان الأبيض اشترته في دوفيل، ووضعت قبعة أنيقة جداً وجدتها معها. شعرت ببعض السخافة وهي ترتدي كل هذه الثياب، لكن لا تتم دعوتها كل يوم لتناول العشاء، ولا يمكنها ارتداء الطقم أو القبعة خلال العمل.

وصل أنطوان دو سان غري في تمام الثامنة، وأدخلته بريجيت. طلبت منه الجلوس في غرفة الانتظار، وبقي بمفرده خمس دقائق، ثم

نزلت كونسويلو إلى الأسفل وهي ترتدي ثوب نومها ورداء فوقه. دخلت إلى غرفة الجلوس وابتسمت له، فيما حاولت بريجيت عبثاً إقناعها بالصعود إلى الأعلى.

قالت بمرح: «مرحباً، هل أنت الطبيب الذي سيتناول العشاء مع أمي؟». فقدت سنّيها الأماميتين، مما جعلها تبدو ظريفة جداً.

«نعم، أنا هو. ماذا حصل لسنّيك؟»، سأل أنطوان وهو ينظر مباشرة إليها.

قالت بفخر: «فقدتهما».

قال بجدية: «آسف لسماع ذلك، أتمنى أن تعثري عليهما قريباً. من المزعج جداً النمو من دون أسنان. كيف ستأكلين تفاحة؟».

ضحكت على ما قاله. «لا، لن أعثر عليهما. أُخذتا وتُرك لي عوضاً عنهما حلوى. سأحصل على سنّين جديدتين قريباً. بدأت أحسّ بهما... هل ترى؟». حرّكت رأسها على نحوٍ مضحك، بحيث بات نصفه مقلوباً رأساً على عقب، وأظهرت له طرفي السنين اللتين بدأتا تبرزان عبر اللثة.

«آه، أنا مسرور جداً»، قال مع ابتسامة عريضة فيما دخلت آنابيل الغرفة، ورأت ابنتها تثرثر بسعادة مع الطبيب.

سألت وهي تبدو متوترة قليلاً «هل تعرفتما إلى بعضكما؟».

«ليس رسمياً»، اعترف، ثم انحنى باحترام أمام كونسويلو. «أنطوان دو سان غري»، قال بطريقة رسمية. «تشرفت بلقائك، خصوصاً بعدما علمت الآن أنك ستحصلين على سنّين جديدتين». ضحكت مجدداً. عرّفت آنابيل عن ابنتها، التي انحنت باحترام أمام أنطوان. «جاهزة؟» سأل آنابيل، وأومأت برأسها. قبّلت كونسويلو، وطلبت منها الصعود إلى الأعلى والاستعداد للنوم، لأنها تناولت العشاء قبل الاستحمام. صعدت كونسويلو إلى الأعلى بعدما لوّحت لضيفهما، ولحقت به آنابيل خارج المنزل. «أنا آسف»، قال بجدية، فيما رافقها إلى سيارة بالوت أوبن تورير الزرقاء الجميلة التي ركنها في الخارج. إنها سيارة أنيقة جداً وتناسبه تماماً. كل

شـيء فيه أنيق، وجميل، وواثق. «لم يكن يجدر بي اصطحابك للخروج معي أبداً. أنا آسف. لقد وقعت للتو في غرام ابنتك. لا شك في أنها أجمل طفلة رأيتها في حياتي». ابتسمت آنابيل على ما قاله.

«لديك طريقة لطيفة في التعامل مع الأطفال».

«كنت واحداً منهم، قبل زمن بعيد. لا تزال أمي تصرّ على أنني لا أزال طفلاً ولم أنضج أبداً». فهمت آنابيل لماذا تقول ذلك، لكن طفولته جزء من جاذبيته. تساءلت عن عمره، وظنت أنه في الخامسة والثلاثين، مما يجعله أكبر منها بأربع سنوات تقريباً. إنهما متقاربان جداً لناحية العمر، لكن آنابيل تملك أسلوباً أكثر جدية وتحفظاً. إنه نوع من المهرج الوسيم والساحر. أحبت خفة ظله، وحس الدعابة لديه. المرضى في عيادتها أحبوا ذلك أيضاً. وكذلك مرضاه.

تحدثا بعفوية فيما أخذها إلى مطعم ماكسيم. لم تذهب قبلاً إلى هناك، وعرفت أنه أحد أفضل المطاعم في باريس، ومكان مشهور جداً. وأنطوان يقصده باستمرار.

حين وصلا، بدا جلياً أنه معروف جيداً من قبلهم. رحّب به رئيس الندّل، وكان معروفاً جداً من قبل أشخاص جالسين على طاولات عدّة، وعرّف آنابيل عليهم بفخر. قال عنها إنها الدكتورة ورثينغتون، ما يجعلها تشعر دوماً بالأهمية. لقد عملت بكدّ للحصول على هذا اللقب.

سألها عما تريد تناوله، وطلب لهما العشاء مع قنينة شراب خفيف. نادراً ما تشرب، لكن الشراب الخفيف جعل السهرة تبدو مثل احتفال. لم تخرج مع رجل في سهرة كهذه منذ أيام جوشيا، قبل عشرة أعوام. أصبحت حياتها مختلفة تماماً هنا في فرنسا، في الجبهة، في كلية الطب، والآن بصفتها أم كونسويلو، وها هي الآن فجأة في مطعم ماكسيم مع أنطوان. هذا أمر غير متوقع أبداً.

سألها برفق في أثناء العشاء «كم مضى على ترمّلك؟».

قالت ببساطة: «قبل أن تولد كونسويلو».

«هذا وقت طويل لتبقي فيه وحيدة، على افتراض أنك وحيدة»، سألها بلهجة تبدو أقرب إلى التجسس. شعر بالفضول حيالها. إنها امرأة غير عادية، جميلة ومميزة ونبيلة المولد وطبيبة. لم يلتقِ أبداً بأي امرأة تشبهها، وشعر بانجذاب كبير حيالها.

«أنا وحيدة»، أكّدت له وهي في الواقع وحيدة منذ وقت أطول. تسع سنوات، منذ أن تركها جوشيا، لكنها لا تستطيع إخباره بذلك.

قال وهو يبدو شارداً: «يبدو أنك لم تتزوجي لفترة طويلة».

«لأشهر قليلة فقط. لقد قتل في الجبهة، مباشرة بعد زواجنا. التقينا حيث كنت أعمل في فيليرز - كوتريت في المستشفى التي أسستها إلسي إينغليس بأطقم طبية نسائية».

«هل كنت طبيبة حينها؟». بدا مرتبكاً لأن ذلك يجعلها تبدو أكبر كثيراً مما تبدو عليه. بدت شابة جداً بالنسبة إليه.

«لا»، ابتسمت. «مجرد مسعفة طبية. تركت كلية الطب للعمل هناك. عملت في رويامون قبل ذلك، في آسنيار. عدت إلى كلية الطب بعد ولادة كونسويلو».

قال وهو يبدو متأثراً: «أنت امرأة مغامرة جداً، وشجاعة جداً» فيما تناولا العشاء الذي كان لذيذاً. طلب الكركند، فيما تناولت هي طبقاً من لحم العجل. «ما الذي جعلك ترغبين بأن تصبحي طبيبة؟». أراد معرفة كل شيء عنها.

«ربما الشيء نفسه الذي جعلك ترغب بأن تصبح طبيباً. أحببت العلوم والطب منذ كنت صغيرة. لم أظن أبداً أنني سأحظى بالفرصة لفعل ذلك. ماذا عنك أنت؟».

«والدي وأخواي جميعهم أطباء. وكان يجدر بأمي أن تكون طبيبة. تخبرنا جميعاً بالأخطاء التي نرتكبها. وأكره الاعتراف بذلك، لكنها أحياناً محقة». ضحك. «إنها تساعد والدي في عيادته منذ أعوام. لكن لماذا تمارسين الطب هنا وليس في الولايات المتحدة؟». لا يزال لا يستوعب

أنها ليست فرنسية، إذ تتحدث اللغة مثل أهل البلاد. لم يشكَ أبداً في أنها أميركية.

«لا أعرف. لم يحصل ذلك هناك. جئت إلى هنا كمتطوعة للمساعدة في جهود الحرب. ثم حصلت سلسلة من الظروف. ساعدني أحد الجراحين في أسنيار على الدخول إلى كلية الطب في نيس. ولم يكن في وسعي أبداً فعل ذلك لو كان أهلي على قيد الحياة. لم تحب أمي يوماً إعجابي بالطب. ظنت أنني سألتقط مرضاً خطيراً. عملت مع المهاجرين في نيويورك».

«حسناً، لحسن حظي أنك جئت إلى هنا. هل تظنين أنك ستعودين إلى الولايات المتحدة في يوم ما؟»

هزّت رأسها بحزن. «لم يبقَ لي أحد هناك. مات كل أفراد عائلتي».

قال بنبرة متعاطفة: «هذا حزين جداً، أنا قريب جداً من عائلتي. أضيع من دونهم. نحن مثل قبيلة». أحبت ذلك فيه. بدا حنوناً وودوداً، وإذا كانوا جميعاً ممتعين بقدره، لا بد من أنهم مجموعة حيوية جداً. «ماذا عن عائلة المرحوم زوجك؟ هل ترينهم؟».

«قليلاً. إنهم في إنكلترا. لكن جدة كونسويلو جاءت أخيراً لزيارتنا. إنها امرأة لطيفة جداً». لكنها لم تخبره أنها كانت المرة الأولى التي تلتقيان بها.

هناك الكثير من الأمور في تاريخها التي لا تستطيع إخباره بها. لا سيّما مسألة أن زوجها الحقيقي تركها، وأنها تطلقت بسبب ذلك، وأنه تم اغتصابها ولم تتزوج أبداً بوالد كونسويلو. الحقيقة تصدم أكثر من الصيغة التي ابتكرتها. الأسوأ من ذلك أنها تدفع ثمن أخطاء لم ترتكبها، وستفعل ذلك طوال حياتها. كان مستهتراً جداً بحيث تخيلت أنه لن يصدم بالحقيقة مثلما فعلت هي. لكنها لن تخبره على أي حال. القصة التي روتها كانت محترمة تماماً، ولا يملك أي سبب للشك في أمر آخر. كل ما قالته بدا معقولا تماماً، وبدت محترمة جداً بحيث لا يشك أحد في أي شيء آخر فيها.

علّق خلال العشاء أنه لم يتزوج أبداً. تخصصه في جراحة العظام أبقاه في كلية الطب لوقت طويل، أمضاه في باريس في كلية الطب. تدرّب في مستشفى بيتيه - سالبتيار، وعرقلت الحرب دراسته لبعض الوقت. ذكر أنه تم تقليده وسامين خلال الحرب. بالرغم من أسلوبه الهزلي، كان شخصاً مهماً، وبدا جلياً أنه يظن الشيء نفسه عنها. فيما تحدثت إليه خلال العشاء، شعرت وكأنه جاء إلى حياتها مثل هدية. فرحت لأنه كاد يوقعها أرضاً على درج المستشفى، وإلا لما التقت به أبداً. وبدا مسروراً هو الآخر بالعثور عليها.

حين أوصلها إلى المنزل، سألها إذا كان في وسعه رؤيتها مجدداً. ليست لديها أي ارتباطات أخرى، لبقية حياتها في الواقع، باستثناء تناول الغداء والعشاء مع كونسويلو، فوعدها بالاتصال بها في اليوم التالي والتخطيط لمشروع. وذهلت حين فعل.

كانت جالسة أمام مكتبها، ترتب ملفات المرضى الذين عاينتهم هذا الصباح حين أخبرتها هيلين أنه ينتظر على الهاتف. دعاها لتناول العشاء يوم السبت القادم، بعد يومين. أصبح فجأة مصدر فرح غير متوقع في حياتها. وسألها إذا كانت تودّ هي وكونسويلو تناول الغداء مع أخويه وعائلتيهما يوم الأحد، في منزل أهله. إنها دعوة مغرية جداً. وذكرت الأمر أمام كونسويلو تلك الليلة. فرحت كثيراً. رأت كونسويلو أنه كان مضحكاً جداً بشأن سنّيها. نظرت إلى أمها حينها وقالت إنه لطيف. وافقتها آنابيل الرأي.

يوم السبت، أخذها إلى لا تور دارجان لتناول العشاء، وكان المطعم أكثر أناقة من مطعم ماكسيم. ارتدت فستاناً أسود بسيطاً، ووضعت خاتم زمرد الليدي وينشاير. لا تملك آنابيل أي مجوهرات أخرى في فرنسا، لكنها بدت أنيقة جداً. جمالها الطبيعي لافت للنظر أكثر من أي شيء آخر تضعه. وأمضيا وقتاً ممتعاً معاً مجدداً، وتحدثا حتى منتصف الليل تقريباً عن العديد من الأمور الشيقة، مثل الحرب، والجراحة، والطب، وإعادة إعمار أوروبا. إنه شريك مذهل للعشاء وصحبته ممتعة جداً.

يوم الأحد وهو اليوم الذي أمضتاه معه كان أفضل. تبين أن منزل

أهلـه يبعـد مبـانٍ قليلة فقط عن منزلها. كان أخواه مسـليين بقدره، وكانت زوجتاهما لطيفتين. أولادهما بعمر كونسـويلو تقريباً، وتتحدث العائلة كلها عـن الطب باسـتمرار، الأمر الذي أعجـب آنابيل. كانت أمه طاغية حنونة تتحكم بهم جميعاً. وبّخت أنطوان باستمرار، وحرّكت عينيها اشمئزازاً لأنه لم يتزوج بعد. بدت موافقة على آنابيل، ورفضت التصديق أنها غير فرنسية وأنها كبرت في نيويورك. سمحت لكونسويلو بالجلوس على حضنها، ولكل أحفادها الآخرين، ثم أخرجتهم جميعاً إلى الحديقة للّعب معهم. وفي الوقت الذي أعاد أنطوان فيه آنابيل وكونسويلو إلى المنزل، كانوا جميعاً مرهقين وقد أمضوا يوماً ممتعاً.

قال مبتسماً: "شكراً لك على تحمّلك أمي، لا أصطحب عادة الأشخاص إلى المنزل لتناول غداء الأحد. فمعظم النسـاء يخرجن وهن يصـرخن من الباب".

قالـت آنابيل بصـراحة: «أحببتها». تشـتاق إلى عائلتهـا كثيراً بحيث وجدت في عائلته نعمة كبيرة، ومن الرائع أن تتعرف كونسـويلو إلى مثل هذه العائلات، مع عمات وأعمام وأقارب وأجداد. إنه كل ما تفتقدان إليه هي وابنتها. واستمتعت كونسويلو بكل دقيقة من ذلك، حتى أكثر من أمها. «شكراً على اصطحابنا».

وعدهـا «سـنفعل ذلك مجدداً، سأتصـل بك وسـنخرج لتناول بعض وجبات الطعام خلال الأسـبوع». ليس فقط مرّة واحدة، وإنما سـتتناول الطعام معه عدة مرات. فجأة، أصـبح أنطوان شخصـاً أساسـياً في حياتها، وعليهـا الاعتـراف أنـه جعلهـا سـعيدة جداً. وكانت عائلته إضـافة سـعيدة برأيها.

اتصل بها يوم الثلاثاء، ودعاها لتناول العشاء ليلة الجمعة في الريتز، واقتـرح عليهـا تناول الغداء في لا كاسـكاد، أحـد أقدم وأجمل المطاعم في باريس، يوم السبت، وتناول الغداء مع عائلته يوم الأحد إذا كانت تستطيع تحمّل ذلك. إنه يضغط عليها كثيراً.

كان كل موعـد مـن مواعيدهما رائعاً ومثالياً. العشـاء ليلة الجمعة في الريتز كان مثالياً، تماماً مثل العشاءين السابقين. الغداء في لا كاسكاد كان فاخراً ومريحاً، وذهبا في نزهة إلى حدائق الباغاتيل بعد ذلك، وتأملا طيور الطاووس. حين أعادها لاحقاً إلى المنزل، دعته للبقاء، وتناول عشاء مبكر معها ومع كونسويلو في المطبخ. بعد ذلك، لعب مع كونسويلو، وصرخت فرحاً حين تغلبت عليه، الأمر الذي شكّت آنابيل في أنه مدبّر.

يـوم الأحد مع عائلته كان أفضـل مـن المرة الأولى. عائلته هي مثل كلاسـيكي علـى البورجوازيـة الفرنسـية، بـكل آرائها، ووجهـات نظرها السياسية، وقواعدها وآدابها المتعارف عليها، وروابطها العائلية المتماسكة، وقد أحبّت كل ذلك. إنها تقليدية مثلهم تماماً، واستمتعت بالتحدث إلى زوجتي أخويه قبل الغداء، بحيث تحدثن عن الأولاد.

بعد الغداء، خاضـت مناقشـات طبية مع أخويه، علماً أن أحد أخويه كان جراحـاً فـي آسـنيار بالرغـم من أنهما لم يلتقيا أبـداً لأنها كانت هي في كلية الطب حين جرى تعيينه هناك. لديهم الكثير من الأشـياء المشـتركة، وانسجمت آنابيل معهم.

فـي عطلـة نهايـة الأسـبوع التاليـة، دعاهـا أنطوان إلـى دوفيل مع كونسويلو. حجز غرفتين منفصلتين لهم، ولم يكن هناك أي شيء مشكوك فيـه. فرحـت كونسـويلو كثيراً بالمشـروع، وكذلك هـي. نزلوا في فندق رائع، ومشـوا معاً على الرصـيف، وجمعوا الأصـداف، ودخلوا إلى كل المتاجر، وتناولوا وجبات لذيذة من ثمار البحر. قالت آنابيل إنها لا تعرف كيف تشكره حين عادوا. صعدت كونسويلو إلى الأعلى مع بريجيت وكانت ناعسة بعد الرحلة الطويلة، ووقف أنطوان وآنابيل في فناء المنزل فيما نظر إليها بحنان. لمس وجهها برفق بأصابعه الطويلة، ثم قبّلها وشدّها بعد ذلك بين ذراعيه.

قـال بهـدوء: «لقد وقعت بغرامك آنابيل». بدا مصـدوماً، وشـعرت بجسدها يرتجف مما قاله. لكنها تشعر بالشيء نفسه. لم تعرف قبلاً شخصاً رائعاً بقدره، أو لطيفاً مثله معها ومع ابنتها. لم تشـعر بهذه الطريقة حيال

أي كان، ولا حتى جوشيا، الذي كان دوماً أشبه بصديق وأقل رومنسية. لقد سيطر عليها أنطوان تماماً، وكانت مغرمة به بقدر ما هو مغرم بها. وحصل كل شيء بسرعة كبيرة. قبّلها مجدداً، وشعر أنها ترتجف. «لا تخافي حبيبتي»، طمأنها. ثم أضاف. «أعرف الآن لماذا لم أتزوج أبداً». نظر إليها بابتسامة طويلة وبطيئة. إنه أسعد رجل على الأرض، فيما هي المرأة الأكثر سعادة. همس لها فيما أمسكها «كنت أنتظرك».

قالت وهي تذوب بين ذراعيه: «وأنا أيضاً». شعرت بأمان تام معه. الشيء الوحيد الذي تعرفه عن أنطوان، وتثق به تماماً، هو أنه لن يؤذيها أبداً. لم تكن واثقة أبداً إلى هذا الحدّ في حياتها.

الفصل الثالث والعشرون

كانت الأسابيع والأشهر التالية مع أنطوان مثل الحلم بالنسبة إليهما معاً. أمضى وقتاً في عطلات نهاية الأسبوع معها ومع كونسويلو. سمح لآنابيل بحضور بعض عملياته الجراحية. استشارته في العديد من حالات مرضاها، واحترمت تشخيصه وآراءه التي كانت أحياناً أكثر براعة من آرائها. دعاها إلى أفضل المطاعم في باريس، واصطحبها للرقص بعد ذلك. وحين أصبح الطقس أكثر برودة، قاما بنزهات طويلة في الحديقة العامة. أخذها إلى حدائق فرساي، وكانا يمشيان يداً بيد، ويقبلان بعضهما فيما يتساقط الثلج. كل لحظة تشاركاها كانت مميزة، ولم تعرف في حياتها أي رجل بهذا القدر من الحنان واللطافة، ولا حتى جوشيا. علاقتها مع أنطوان أكثر نضوجاً، وأكثر رومنسية، وتجمعهما مهنة الطب. كشف دوماً عن تصرفات لائقة، فقدم لها الأزهار، وجلب لكونسويلو أجمل دمية رأتها في حياتها. لا يسعه فعل ما يكفي لهما. وأمضتا كل يوم أحد مع عائلته. شعرت آنابيل كأنه تم تبنيهما هي وكونسويلو من كل النواحي.

حضّرت له عشاء مناسبة الشكر، وحاولت أن تشرح له معنى المناسبة، الذي قال إنه وجده مؤثراً. أمضتا عشية الميلاد مع عائلته، وقدّم لهما الجميع الهدايا. اختارت أيضاً هدية لكل منهم، فاشترت شال كاشمير لأمه، وقلمين ذهبيين جميلين لأخويه، وكتاباً نادراً عن الطب لوالده، وكنزيتين جميلتين لزوجتي أخويه، وألعاباً لكل الأولاد. وكانوا جميعاً كرماء أيضاً في الهدايا معها.

يوم الميلاد، دعتهم جميعاً إلى منزلها لشكرهم على أيام الآحاد الكثيرة التي تشاركتها معهم هي وكونسويلو. لم يقل أنطوان أي شيء رسمي بعد، لكن بدا جلياً أنه يفكر في علاقة طويلة الأمد. بدأ يخطط المشاريع معها

للصيف القادم. ومازحتها هيلين بشأن ذلك طوال الوقت.

قالت وهي تبتسم: «أسمع أجراس الزفاف!». قررت أنها تستلطفه، وهو جيد جداً مع آنابيل. بدت سعيدة كثيراً.

ليلة رأس السنة، اصطحبها للرقص في فندق لو كريون. قبّلها بحنان عند منتصف الليل، ونظر إلى عينيها. ثم، ومن دون إنذار، ركع على ركبة واحدة، ونظر إليها بتوسل فيما وقفت هناك في ثوب سهرة من الساتان الأبيض المطرز مع خرز فضي، ونظرت إليه بذهول. تحدث إليها برزانة، مع عاطفة كبيرة في صوته.

«آنابيل، هل تمنحينني شرف الزواج بك؟». ما من أحد آخر ليطلب يدها منه، وفيما تلألأت الدموع في عينيها، أومأت برأسها إيجاباً ثم قالت نعم. وقف وضمّها بين ذراعيه، وصرخ فرحاً جميع الذين كانوا معهم في النادي الليلي. كانا الثنائي المثالي أينما ذهبا، وكانا شخصين جميلين وموهوبين، وذكيين، وأنيقين، ووقورين. لم يختلفا أبداً على أي شيء، ولطالما كان حنوناً ولطيفاً.

أعلنا خطوبتهما لعائلته يوم رأس السنة. بكت أمه وقبّلتهما معاً، وشرب الجميع الشراب الخفيف. أخبرا كونسويلو تلك الليلة. ستنتقل للعيش معهما في المنزل حين يتزوجان، وبدأا يتحدثان عن إنجاب الأولاد. هذا أكثر ما يريده، وكذلك هي. وهذه المرة، سيكون كل شيء ملائماً ولن تكون وحيدة. إنه الزواج الذي كان يجدر بها الحصول عليه منذ زمن، لكنها تعرضت للخداع لغاية الآن. هذه المرة، سيكون كل شيء مثالياً. كان حنوناً وشغوفاً جداً، ولذلك لم تقلق من ذلك.

الشيء الوحيد الذي أزعجها هو أن أنطوان لا يزال يجهل ماضيها. لم تخبره أبداً عن جوشيا، وزواجهما، وسبب طلاقه منها، أو سبب مغادرتها نيويورك، وأنها لو لم تفعل لتم نبذها وطردها من المدينة بسبب العار، لأن أحداً لم يعرف بأسرار جوشيا السيئة، ولم تخبر هي أحداً، ولن تفعل أبداً.

لا يعرف أي شيء عن حمل كونسويلو، واغتصابها في فيليرز - كوتريت من قبل هاري وينشاير. في البداية، لم تجد سبباً لمشاركة كل ذلك معه. لكن فيما تقربا أكثر من بعضهما، أرادته أن يعرف كل شيء، وظنت أن هذا من حقه. لكن لم تسنح الفرصة أبداً. والآن بعد أن طلبها للزواج وقبلت، شعرت بالغرابة أن تشرح ذلك له، وبدا الوقت متأخراً جداً. إلا أن آنابيل امرأة شريفة، ورأت أنه يجدر بها إخباره. ثمة احتمال كبير ألا يعرف أبداً ما حصل، لكن حتى لو لم يعرف أبداً، شعرت أنها تدين له بالحقيقة. كانت متزوجة برجل، واغتصبها رجل آخر. والحقيقة التي لا يستطيع تخيلها هي أنه باستثناء الاغتصاب، بقيت عذراء طوال حياتها. عمرها واحد وثلاثون عاماً، وتزوجت لسنتين، ولم تقم علاقة أبداً مع رجل، وإنما جرى الاعتداء عليها لدقائق معدودة على عتبة حجرية في الظلمة. نوعاً ما، بدا مهماً لآنابيل أن يعرف ماضيها. ما عاشته وما اختبرته هو جزء من ماضيها. وبالرغم من أن القصتين مزعجتان، لم تشكّ أبداً في أنه سيتعاطف معها.

في اليوم الذي تلا رأس السنة، تحدثا عن زفافهما. بما أنه لم يتزوج أبداً من قبل، أراد زفافاً كبيراً، ولديه العديد من الأصدقاء. لكنّ آنابيل فضلت الزفاف الصغير، لأنها أرملة رسمياً ولديها عدد قليل جداً من الأصدقاء، وتقتصر عائلتها على كونسويلو. لكنها أرادت جعله سعيداً وفعل ما يراه مناسباً.

كانا يتحدثان عن لوائح المدعوين والمواقع، وعدد الأولاد الذين يريدان إنجابهما، في أثناء إنهاء وجبة الغداء في لو بري كاتالان في البوا دو بولوني، وذهبا بعد ذلك في نزهة. كان الطقس بارداً وصافياً. وفجأة، فيما مشت ووضعت يدها تحت ذراعه، عرفت أن الوقت مناسب، سواء أأحبت ذلك أم لا. لا يستطيعان التحدث عن تفاصيل زفافهما، وعدد الأولاد الذين يريدان إنجابهما، من دون أن يعرف تفاصيل حياتها. عرفت أن هذا لن يغير أي شيء بينهما، لكنها شعرت أنه يجدر بها إخباره.

ساد صمت مسالم بينهما فيما مشيا، واستدارت نحوه بتعبير جدي.

قالت بهدوء: «هناك بعض الأمور التي أريد إخبارك بها». شعرت ببعض التوتر في معدتها، لكنها أرادت الانتهاء من المسألة والتخلص من التوتر.

سأل وهو يبتسم لها «عمّاذا؟». كان أسعد رجل على الأرض.

«عن ماضيّ».

«آه، نعم. طبعاً. حتى نجحت في التخرج من كلية الطب، كنت راقصة في الفولي بيرجير. صح؟».

«ليس تماماً». ابتسمت. من الجيد معرفة أنه سيضحكها لبقية حياتها.

مرّا أمام مقعد خشبي واقترحت عليه الجلوس. جلسا، ووضع ذراعه حول كتفيها، وشدّها بالقرب منه. تحب حين يفعل ذلك. للمرة الأولى منذ أعوام، شعرت بالأمان والحماية والحب.

قالت بصراحة: «هناك بعض الأمور عن ماضيّ التي لم أخبرك بها، لا أعرف إذا كانت مهمة، لكنني أظن أنه يجدر بك معرفتها». أخذت نفساً وبدأت. الأمر أصعب مما تصورت. «تزوجت مرة قبلاً».

ابتسم ابتسامة عريضة. «نعم، حبي، أعرف».

«حسناً، ليس مثلما تظن تماماً، أو بالشخص الذي تظنه».

«يبدو هذا غامضاً».

«هو كذلك نوعاً ما. أو كان كذلك بالنسبة إليّ. لوقت طويل. تزوجت برجل اسمه جوشيا ميلبانك، حين كان عمري تسعة عشر عاماً. في نيويورك. عمل في مصرف والدي. ظننتُ حينها أنه شعر بالأسف عليّ حين مات والدي وروبرت. كان نوعاً من صديق، وأكبر مني بتسعة عشر عاماً. وبعد عام من وفاتهما، طلبني للزواج. إنه من عائلة محترمة جداً أو بالأحرى كان. بدا الأمر منطقياً في ذلك الوقت. تزوجنا ولم يحصل أي شيء أبداً. كي أكون صريحة، ظللت عذراء طيلة مدة الزواج. لطالما ظننتُ أن هناك مشكلة فيّ. لم يحصل شيء، لأنه كان يؤجل الأمر دوماً. كان يقول دوماً إنّ أمامنا متسعاً

من الوقت». لم يتفوه أنطوان بأي كلمة، وتلألأت الدموع في عيني آنابيل حين تذكرت خيبة أملها وحزنها القديمين. تابعت الكلام. «بعد عامين من زواجنا، أخبرني أنه ظن أنه كان في وسعه الزواج بي وعيش حياة طبيعية. لكن تبيّن أنه يعاني من السيفلس. لم أره أبداً مجدداً. مات بداية هذه السنة. كنت عذراء في نهاية زواجنا، تماماً مثلما كنت في بدايته. وقد أردت البقاء متزوجة به على أي حال. أحببته، ورغبت بالتخلي عن أي حياة أو مستقبل لنفسي. لكنه رفض. قال إنه يدين لي بتحريري، وإنني أستحق أفضل من ذلك؛ أستحق زوجاً حقيقياً وأولاداً، وكل ما وعدني به ولم يستطع تحقيقه». انهمرت الدموع على وجنتيها عند استعادة الذكرى.

«طلب الطلاق لأنني رفضت فعل ذلك. ظن أنه يفعل الشيء المناسب لي. وفي نيويورك، السبب الوحيد الذي يمكن على أساسه طلب الطلاق هو الزنى. هكذا، طلّقني بحجة الزنى. باع أحدهم نسخة عن طلب الطلاق للصحف، وأصبحت منبوذة بين ليلة وضحاها. لم يعد أحد يتحدث إليّ، ولا حتى أفضل صديقة لي. لو بقيت، لنُبذت من جميع الذين عرفتهم في نيويورك. كنت موصومة بالعار. لذا، رحلت وجئت إلى فرنسا. لم أكن أملك أي خيار آخر. وذهبت للعمل في رويامون. هكذا، وصلت إلى هناك».

«ثم تزوجت مجدداً؟». بدا أنطوان مذهولاً. الذهول كان رد الفعل الوحيد الذي لاحظته على وجهه.

هزّت رأسها. «لا، لم أتزوج مجدداً. لم أقم علاقة أبداً مع أي رجل آخر. كنت مصدومة جداً من كل ما حصل في نيويورك. عملت فقط، ليل نهار. لم أنظر أبداً إلى رجل آخر».

سأل وهو يبدو مرتبكاً «وكونسويلو كانت ولادة عذراء؟».

اعترفت له «نوعاً ما»، وأخذت نفساً عميقاً وأخبرته البقية. «تم اغتصابي ذات ليلة في فيليرز – كوتريت. من قبل ضابط بريطاني، تبيّن أنه من عائلة محترمة، بالرغم من أنه كان حقيراً جداً جداً. رأيته فقط لتلك

الدقائق المعدودة، ولم أره أبداً مجدداً. قتل بعد فترة وجيزة. وكنت قد حملت منه. عملت حتى الشهر السابع تقريباً من حملي، ولم يعرف أحد بحملي لأنني قمت بشدّ بطني بشرائط كتان من غرفة العمليات». إنها تفاصيل مؤلمة أيضاً ويصعب الاعتراف بها. لكنها لا تملك خياراً آخر. حين يعرف كل شيء، لن تخفي عنه أي أسرار مجدداً. وهذه هي كل الأسرار التي لديها. «لم أتزوج أبداً به. لا أعرفه حتى. لا أعرف سوى اسمه. تركني ولم يعلم حتى أنّ في أحشائي كونسويلو. لم أتصل أبداً بعائلته حتى هذه السنة. جاءت أمه لرؤيتنا، وكانت لطيفة جداً. كانت حنونة مع كلينا. يبدو أنه فعل مثل هذه الأمور قبلاً. لم تتفاجأ». استدارت نحو أنطوان حينها، وكان وجهها مغطّى بالدموع. «هكذا، تزوجت ولكن ليس به. تقنياً، كونسويلو هي طفلة غير شرعية. أعطيتها اسمي. ولست أرملة. أنا مطلقة، من زواجي برجل آخر. هذه هي القصة»، قالت وهي تشعر أخيراً بالارتياح.

قال وهو يبدو متوتراً: «هذا كل شيء؟ ألم تدخلي إلى سجن أو تقتلي رجلاً؟». ابتسمت على السؤال وهزّت رأسها.

«لا». نظرت إليه بحنان ومسحت عينيها. كان إخباره صعباً، لكنها مسرورة لأنها فعلت ذلك. أرادت أن تكون صريحة تماماً معه. وحين نظرت إليه، وقف على رجليه، وبدأ يمشي بسرعة. بدا منزعجاً وكأنه في صدمة. حتى آنابيل اعترفت أن القصة مسببة للصدمة.

«دعيني ألخص ذلك. كنت متزوجةً برجل مصاب بالسيفلس، لكنك تزعمين أنك لم تقيمي معه علاقة جسدية».

«هذا صحيح»، أكدت بصوت خافت، وهي قلقة من نبرة صوته.

«طلقك بسبب الزنى، الذي تزعمين أنك لم ترتكبيه أبداً، بالرغم من أنك لم تقومي بعلاقة جسدية معه. أصبحت منبوذة في مجتمع نيويورك، بسبب زنى لم ترتكبيه، لكنه طلقك، لأنك رفضت أنت طلب الطلاق منه، بالرغم مما فعله معك. هكذا، هربت بعد الطلاق. وحين جئت إلى هنا، حملت خارج مؤسسة الزواج، من رجل تزعمين أنه اغتصبك. لم

تتزوجي به أبداً. لم تريه أبداً مجدداً. أنجبت هذه اللقيطة، فيما تدّعين أنك أرملة، ولستِ مطلّقة، هاربة من زوجك. ثم أحضرت تلك اللقيطة إلى منزل أهلي، وجعلتها تلعب مع أولاد أخويّ، فيما تدّعين أنك أرملة أمامي وأمام أهلي، وهذه أيضاً كذبة. بالله عليك، آنابيل، هل قلتِ شيئاً حقيقياً منذ البداية؟ وفوق كل ذلك، تزعمين أنه باستثناء ذلك الاغتصاب، الذي أفضى إلى تلك اللقيطة، أنت شبه عذراء الآن. كم تظنين أنني أحمق؟».
كانت عيناه تحدقان إليها بغضب شديد، وكلماته تطعن في قلبها. لم تشاهد أبداً في حياتها شخصاً غاضباً هكذا، لكنها كانت هي الأخرى غاضبة. بدأت تبكي مجدداً فيما تحركت بيأس على المقعد الخشبي، ومشى هو بغضب أكبر. لم تجرؤ على لمسه، بدا وكأنه على وشك ضربها. ما قاله لها لا يمكن مسامحته أبداً.

قال ببرود شديد: «عليك الاعتراف، أنه يصعب تصديق هذه الرواية. براءتك في كل ذلك، وافتقادك إلى المسؤولية، فيما أشك أنا أنك خنتِ زوجك، وربما تعانين من السيفلس، وأحمد الله أنني لم أقم علاقة معك. أتساءل متى كنت تنوين الإفصاح عن هذا السر الصغير. تمت معاملتك مثل الساقطة التي ربما كنت عليها في نيويورك، ثم أنجبت هذه الطفلة اللقيطة من شخص تزعمين أنه نبيل بريطاني، ومن يهتم لذلك بالله عليك؟ تصرفت مثل الساقطة من البداية إلى النهاية. واعفيني من قصة عذريتك»، تابع بصراخ. «بسبب خطر السيفلس، لا أنوي اختبارها». لو ضربها، لما سبب لها المزيد من الألم. وقفت في وجهه حينها، وهي ترتجف من رأسها وحتى أخمص قدميها. لقد أثبت لها تصرّفه هذا كل ما خافت منه، وأنها وقعت إلى الأبد في شرك خطايا الآخرين، وأن أحداً لن يقبل براءتها، ولا حتى الرجل الذي زعم أنه يحبها ولم يصدقها حين أخبرته الحقيقة.

قالت بيأس: «كل ما قلته لك للتو هو الحقيقة، ولا تنعت ابنتي أبداً باللقيطة. ليست غلطتها إذا تم اغتصابي، ولا غلطتي. كان في وسعي الخضوع لإجهاض، لكنني خفت كثيراً، ولذلك قررت الاحتفاظ بها على أي حال، وحمايتها قدر ما أستطيع، كي لا يقول الناس عنها ما قلته أنت

للتو. قد يكون السيفلس معدياً، لكن الطفلة غير الشرعية ليست كذلك. لا حاجة إلى القلق بشأن أولاد أخويك من التقاط العدوى منها. أؤكد لك تماماً أنه لا يوجد أي خطر».

أصبحت غاضبة الآن، ومجروحة من قساوة كلماته.

«لا أستطيع قول الشيء نفسه عنك». صرخ في وجهها بغضب مجدداً، وبدت عيناه مثل النار على الجليد. «كيف تجرؤين على الظن أنك تستطيعين خداعي للزواج بك بالادعاء أنك أرملة، ولا تذكرين كل ذلك لي. كل شيء من السيفلس إلى الزنى والطفلة اللقيطة. كيف تعرّفين عن نفسك أمام عائلتي بأنك امرأة لست عليها؟ وتحاولين إقناعي الآن بكل هذه الأكاذيب المهينة؟ تحلّي على الأقل بالجرأة للاعتراف بحقيقتك». كان في حالة غضب شديد. شعر أنها سرقت منه ثقته، ومقام عائلته. ما أخبرته به للتو لا يمكن تصديقه، ولن يصدق أبداً أي كلمة أخرى تقولها، ولا يصدق حتماً الطريقة التي تحاول الآن تسوية الأمور وفقها.

«وهل هذا رأيك فيّ أنطوان؟ ساقطة؟ ماذا حصل للحب إذا كنت تحبني حقاً؟ لم أكن مجبرة على إخبارك بأي شيء. ربما لم يكن في وسعك اكتشاف أي شيء. لكنني أردت أن أقول لك الحقيقة لأنني أحببتك، ولديك الحق في معرفة كل شيء عني. الأشياء السيئة التي حصلت لي كانت بمعظمها نتيجة خطأ الآخرين، وأنا دفعتُ ثمناً باهظاً. تركني زوج أحببته في زواج كان أكذوبة، ونتيجة ذلك أصبحت منبوذة من العالم الوحيد الذي عرفته. خسرت كل من أحببتهم وجئت إلى هنا لوحدي في عمر الثانية والعشرين. تم اغتصابي فيما كنت لا أزال عذراء. وأنجبت طفلة لم أكن أريدها، لوحدي. أي شيء أسوأ من هذا تحتاج إليه لتكون كائناً بشرياً وتمنحني القليل من الحنان؟».

«أنت امرأة رخيصة، وكاذبة، آنابيل. كل ذلك ظاهر فيك».

«ولماذا لم تره من قبل؟»، قالت وهي تبكي عبر كلماتها. كانا يصرخان في وجه بعضهما في البوا دو بولوني، لكن ما من أحد آخر حولهما.

قال وهو يبدو متبجحاً وفظاً: «لم أره قبلاً لأنك كاذبة بارعة. أمهر كاذبة عرفتها في حياتي. لقد أقنعتني تماماً. لوّثت عائلتي وانتهكت كل شيء أتمسك به، لا أملك المزيد لقوله لك»، ووقف بعيداً عنها قدر المستطاع. «أنا ذاهب إلى المنزل، ولن أوصلك. يمكنك ربما العثور على جندي أو بحار، والاستمتاع معه قليلاً في طريق العودة. لن أقترب منك أبداً». استدار بعيداً عنها، ومشى بسرعة، فيما وقفت وحدقت إليه، وارتعدت من رأسها حتى أخمص قدميها، عاجزة عن تصديق ما سمعته للتو أو ما فعله معها. بعد برهة، سمعت سيارته تبتعد، ومشت ببطء خارج بوا دو بولوني. شعرت وكأن عالمها انتهى، وعرفت أنها لن تثق بأحد مجدداً. لا هورتي، ولا أنطوان، ولا أحد تعرفه. من الآن وصاعداً، ستبقى أسرارها ملكها، ولا تحتاج هي وكونسويلو إلى أي كان. كانت محطمة جداً بحيث كادت تصدمها سيارة حين وصلت أخيراً إلى الشارع.

استقلّت سيارة أجرة، وأعطت السائق عنوانها. كانت متجمدة حتى العظام، وجلست على المقعد الخلفي تبكي. سألها السائق الروسي الذي كان يوصلها إذا كان في وسعه فعل أي شيء لمساعدتها. كل ما فعله هو هزّ رأسها. أكّد لها أنطوان للتو أسوأ مخاوفها، أن أحداً لن يصدق براءتها، وأنها ستُحاكم إلى الأبد على أفعال الآخرين. ما بقي من قلبها كان مفتتاً إلى مليون قطعة. لقد أثبت لها للتو أنه لا يوجد حب أو تسامح. وفكرة أن كونسويلو يمكن أن تنقل العدوى إلى عائلة أي كان، أو اتهامها بذلك، جعلتها تشعر بالقرف.

حين وصلا إلى منزلها في الدائرة السادسة عشرة، رفض السائق الروسي الأبيض العجوز أخذ أجرة منها. هزّ رأسه وأعاد إليها المال.

«ما من شيء يمكن أن يكون سيئاً إلى هذا الحد»، قال. لقد واجه هو أيضاً أوقاتاً صعبة في الأعوام الأخيرة.

«بلى»، قالت بكلمات مخنوقة والدموع تملأ عينيها. ثم شكرته وركضت إلى منزلها.

الفصل الرابع والعشرون

هامت آنابيل في منزلها خلال الأيام الثلاثة التالية. ألغت مواعيدها، ولم تذهب إلى عيادتها، وأخبرت الجميع أنها مريضة. كانت كذلك. كانت محطّمة القلب من كل ما قاله لها أنطوان، ومن كل ما دمّره بوحشية. لو رجمها بالحجارة في الشارع أو ضربها، لما تألمت بهذا القدر. في الواقع، لقد فعل الأمرين معاً. وأسوأ. لقد حطّم قلبها.

طلبت من بريجيت اصطحاب كونسويلو إلى المدرسة، وإلى الحديقة العامة، وأخبرتهما أيضاً أنها مريضة. وحدها هيلين في العيادة لم تصدقها. أحست أن شيئاً مريعاً حصل، وخشيت أن يكون للأمر علاقة بأنطوان.

كانت آنابيل مستلقية على سريرها تفكر في كل ذلك، وفي كل ما قاله، حين رنّ جرس الباب. لم تشأ النهوض لفتحه، وكانت بريجيت خارج المنزل. لا تريد رؤية أحد، وبعد كل ما قاله لها أنطوان، لم يبقَ لها أي شيء لتقوله لأي كان، وخصوصاً له. لم تسمع كلمة منه منذ أن تركها لوحدها في الحديقة العامة. ولا تنوي التحدث إليه مجدداً. شكّت في أن تسمع أي شيء منه على أي حال.

استمرّ جرس الباب في الرنين لمدة عشر دقائق على الأقل، أخيراً، لبست رداء فوق ثوب نومها، ونزلت إلى الأسفل. ربما هي حالة طارئة ويحتاج أحد من الجيران إلى طبيب. فتحت الباب من دون أن تنظر حتى لمعرفة من يكون الطارق، ووجدت نفسها تقف أمام أنطوان. لم تعرف ماذا تقول. ولجزء من الثانية، لم يعرف ماذا يفعل هو الآخر.

«هل أستطيع الدخول؟»، سأل برزانة. ترددت، غير واثقة ما إذا كانت ترغب به في منزلها مجدداً، ثم تراجعت ببطء جانباً. احتاجت إلى برهة لإغلاق الباب، ولم تدعُه للجلوس. وقفت تحدق إليه قرب الباب

الرئيسي. سأل بحذر «هل نستطيع الجلوس لدقيقة؟». لحسن الحظ أنه لم يقدم لها خاتم خطوبة بعد، ولذلك لا تملك شيئاً لتعيده إليه.

قالت بصوت خفيف: «أفضل ألا نفعل، أظن أنك قلت أكثر مما يكفي ذلك اليوم. لا أظن أن هناك جدوى من قول أي شيء آخر». ذهل من النظرة في عينيها. بدت وكأن شيئاً فيها قد مات.

«آنابيل، أدرك أن رد فعلي كان قاسياً. لكن ما قلته لي كان صعباً جداً لأستوعبه. عشتِ علاقتين لم تخبريني أبداً عنهما، وأنجبت طفلةً خارج الزواج. تعرضت لمرض قاتل كان يمكن أن تنقليه إليّ حين نتزوج». ما قاله لها هو صفعة أخرى على الوجه، وأثبت مرة جديدة أنه لم يصدق أي كلمة مما قالته. مزقت كلماته قلبها المحطم أصلاً.

«أخبرتك أنني لم أتعرض أبداً للمرض. لو فعلت، لما تناولت العشاء معك أبداً. لما خاطرت أبداً بالوقوع بغرامك لو تعرضت لمرض يمكن أن يقتلك. أحبك أنطوان. أو كنت أحبك. أخبرتك. لم يقم زوجي علاقة معي أبداً».

«يصعب تصديق ذلك قليلاً. بقيت متزوجة به طوال سنتين».

قالت بصوت خفيف: «لم أكن أعرف. ظننتُ أن هناك مشكلة فيّ. لكن تبين أن هناك الكثير من المشاكل فيه. وكل ما فعلته يثبت لي أنه ما كان يجدر بي إخبارك بشيء أساساً». كانت محطمة فيما نظرت إلى عينيه.

«وهل كنت تريدين الاستمرار في الكذب عليّ، مثلما فعلت منذ البداية؟ كنت ستتزوجين بي بناء على ادعاءات كاذبة. عليّ تذكيرك بأن هذه أكذوبة».

«لهذا السبب أخبرتك. ما أقصده الآن هو أنه ما كان يجدر بي إزعاج نفسي بإخبارك. لم يكن يجدر بي التورط معك أبداً».

قال وبدا متبجحاً: «كيف يمكنك أن تقولي مثل هذا الشيء؟ أنا أحبك». إلا أنها لم تعد مفتونة بجماله أبداً.

«لم أعد أصدق ذلك نظراً إلى كل ما قلته لي ذلك اليوم. لا تعامل

الشخص الذي تحبه بهذه الطريقة».

«كنت منزعجاً». لم تعلّق، ونظرت بعيداً. لم يقترب منها. خاف أن تضربه إذا فعل. برزت نية القتل في عينيها.

«ما قلته عن كونسويلو لا يغتفر أبداً. لن أسمح لك أبداً بالاقتراب منها مجدداً. ليست غلطتها إذا كانت ابنة غير شرعية. إنها غلطتي أنا لأنني أنجبتها، واخترت ذلك، بالرغم من كل شيء. وليست حتى غلطتي. إنها غلطة مجنون طرحني أرضاً واغتصبني. وستلومني على ذلك إلى الأبد، بدلاً من تصديقي». بدا الجرح في عينيها الباردتين.

قال بحذر: «لهذا السبب جئت للتحدث إليك. كنت أفكر في الأمر، أعترف أن هذا ليس ما توقعته. وليس هذا ما أردته بالضبط في المرأة التي ستكون زوجتي. لكنني أحبك، وأرغب بالتغاضي عن ذلك ومسامحتك على أخطائك الماضية. وكل ما أريده منك هو الخضوع لفحص السيفلس لتثبتي لي أنك لا تحملين هذا المرض».

«لن يكون هذا ضرورياً»، قالت فيما فتحت الباب مجدداً وارتجفت من الهواء البارد لبعد ظهر يوم من أيام شهر يناير. «لا حاجة إلى أن تسامحني على أخطائي أو أخطاء شخص آخر، أو حتى التغاضي عنها. لن تنقل كونسويلو العدوى إلى أقاربك أو اجتماعاتك العائلية لأننا لن نكون هناك. ولا أحتاج إلى الخضوع للفحص لأنك لن تقترب مني أبداً».

قال وهو يحدّق إليها: «إذاً، يعني ذلك أنك مصابة به».

«هل يجدر بي تذكيرك أنك قلت لي إنك لن تلمسني أبداً؟ أذكر ذلك جيداً. في الواقع، أذكر كل شيء قلته، وسأذكره دوماً. قد تتمكن من مسامحتي، لكنني لن أتمكن من مسامحتك».

غضب فجأة منها «بعد كل ما فعلته، كيف تجرؤين؟ أنت محظوظة جداً لأنني قبلت بك أساساً. امرأة مثلك، الله يعلم عدد الرجال الذين عرفتهم في حياتك، والأزواج المصابين بالسيفلس، والأولاد غير الشرعيين، ومن يعرف حتى مع من كنت في الفترة بين زواجك واغتصابك».

أرادت صفعه، لكنه لا يستحق ذلك.

«سمعت كل شيء قلته، أنطوان. لن أنساه أبداً. والآن اخرج من منزلي». كانا يرتجفان في البرد القارس، وحدق إليها غير مصدق.

«لا بد أنك تمزحين. من تظنين سيقبل بك بعد كل ما فعلته؟». بدا متعجرفاً جداً فيما وقف هناك، بدا وسيماً جداً. لكنها لم تعد تتحمل الرجل ذا البذلة الأنيقة.

قالت وهي تجيب عن سؤاله: «ربما لا أحد ولا أبالي فعلاً. كنت وحيدة منذ أن تركني جوشيا قبل تسعة أعوام، أو حتى عشرة. لديّ كونسويلو، طفلتي اللقيطة، مثلما أسميتها. لا أحتاج إلى أحد آخر. ولا أريدك». أشارت إلى الباب المفتوح مجدداً. «شكراً على عرضك السخي، دكتور، لكنني أرفضه بلباقة. والآن غادر أرجوك». جعلت نفسها تبدو واثقة جداً من نفسها، ولاحظ في عينيها أنها تقصد ذلك فعلاً. استحال عليه تصديق ما يجري.

وقف على مسافة إنشات منها عندئذ ونظر إليها. «أنت مجنونة. لن يقبل بك أحد إذا أخبرته الحقيقة».

«لا أنوي وضع نفسي في هذا الموقف مجدداً. علّمتني درساً بتصرّفك هذا. شكراً جزيلاً لك. أنا آسفة لأن هذا أفضى إلى خيبة أمل لنا نحن الاثنين، ولأن الحقيقة كانت صعبة جداً عليك لتصدقها، وتقبلها، حين أخبرتك بها».

«قلت لك إنني أرغب بمسامحتك، أو تحمل ذلك على الأقل، طالما تخضعين للفحص الذي أطلبه. عليك الاعتراف أن هذا عادل».

«ما من شيء عادل في ذلك. لم يكن أبداً كذلك، لا قبلك، ولا الآن. ولا أريد أن يتحمّلني أحد. أريد أن يحبني أحد. ظننت أنني حظيت بذلك. يبدو أننا ارتكبنا نحن الاثنان خطأً كبيراً». وقف هناك يحدق إليها، ثم هزّ رأسه، ومن دون كلمة أخرى، خرج. أغلقت الباب وراءه، واستندت إليه، وارتجفت من رأسها حتى أخمص قدميها. لم يكن أي رجل لطيفاً

معها مثلما كان هو في البداية، أو قاسياً مثلما كان في النهاية.

ذهبت للجلوس في غرفة الجلوس لوحدها، تحدق إلى لا شيء. ما زالت لا تصدق الأشياء التي قالها لها عن أن كونسويلو لقيطة وتفسد عائلته، أو إصراره على أنها ساقطة من نوع ما لأنها تطلّقت، ورفضه التصديق أنها تعرضت للاغتصاب.

كانت لا تزال جالسة هناك، حين عادت بريجيت وكونسويلو من الحديقة العامة. قفزت كونسويلو على حضنها، وبدت قلقة عليها، ووضعت ذراعيها حول عنق أمها. هذا كل ما تحتاج إليه آنابيل الآن. ابنتها هي الشخص الوحيد الذي تستطيع الوثوق به، على الإطلاق.

قالت فيما ملأت الدموع عيني أمها: «أحبك ماما»، «أنا أحبك أيضاً حبيبتي»، قالت وهي تمسك بالطفلة بالقرب منها.

بالرغم من أنها كانت لا تزال تشعر بالانزعاج، وتبدو وكأنها تعرضت للضرب، عادت آنابيل إلى العمل في اليوم التالي. ما من خيار آخر. عليها المضي قدماً في حياتها. تعلّمت درساً رهيباً مع أنطوان عن صغر عقول الناس، والافتراضات والقرارات التي يتخذونها. تعلمت ذلك الدرس في نيويورك، حين ظن الجميع الأسوأ بها. انتهك أنطوان ثقتها، ودمّر ثقتها بالعرق البشري كله.

بدت هيلين قلقة عليها في العمل، وخافت عليها طوال أسابيع عدة. لم تسمع آنابيل أي شيء من أنطوان مجدداً. ظن أن آنابيل حمقاء لأنها لم تقبل بأن يتحملها ويسامحها على الخطايا التي زعمت أنها لم ترتكبها. لقد كان راغباً تماماً بتصديق الأسوأ.

عادت آنابيل للتركيز على مرضاها وابنتها، ونسيت أمر الرجال. بدت حزينة خلال الأشهر القليلة التالية، لكنها بدأت تشعر بالتحسن في شهر مارس. عادت تبتسم مجدداً، وأمضت بعد ظهر أيام الآحاد في الحديقة العامة مع كونسويلو. خاب أمل الفتاة الصغيرة في البداية لعدم الذهاب إلى حفلات غداء عائلة دو سان غري أيام الآحاد، فقد كانت تمرح مع

أولاد أخوي أنطوان. أخبرتها أمها أنها شعرت هي وأنطوان أنهما ارتكبا خطأً، ولم يعودا صديقين بعد الآن. وكلما فكرت آنابيل في ما قاله عن أن كونسويلو ستنقل العدوى إليهم، وعدم جدارتها للعب معهم، تتذكر سبب كونها وحيدة، وتنوي البقاء على هذه الحال إلى الأبد. كل ما فعله في النهاية، إضافة إلى تخييب أملها وتبديد أي أمل بقي لديها بالعرق البشري، هو إقناعها مجدداً بما تعرفه أصلاً؛ وهو أنها لن تتخلّص أبداً من القدر الذي حكم عليها به جوشيا، وأكّده هاري وينشاير. سيرى الجميع فيها صفات وضعها الآخرون لها، وما يفترضونه يكون ذنبها. أصبحت مقتنعة الآن أن أحداً لن يصدق براءتها، أو يثق بها، أو يحبها، مهما قالت. لقد أكد أنطوان أسوأ مخاوفها.

الفصل الخامس والعشرون

تلقت آنابيل رسالتين في الأيام الأولى من الربيع. دفعتها الرسالتان إلى التفكير ملياً. الأولى من الليدي وينشاير، تدعوها فيها هي وكونسويلو للقيام بزيارتها لبضعة أيام. رأت أنه من المفيد لكونسويلو أن تعرف من أين يأتي النصف الآخر لعائلتها وكيف يعيشون، لأن هذا جزء من نسبها. أملت أن تتمكنا من القيام بالزيارة بأسرع ما يمكن. فكّرت آنابيل في الأمر، لكنها لم تكن واثقة. هاري وينشاير هو ذكرى مريعة بالنسبة إليها، لكن ما قالته أمه صحيح. لا علاقة لهاري بالأمر، وإنما بكونسويلو وجدتها التي التقت بها أخيراً. وأحست أن كونسويلو ستستمتع بزيارتها.

الرسالة الأخرى كانت من الرجل في مصرف والدها الذي لا يزال يدير شؤونها. لقد أرسل لها دوماً المال لتعيش في فرنسا، لكن كل ثروتها بقيت في الولايات المتحدة. سألها، للمرة الأولى منذ زمن طويل، عما تريد فعله في المنزل في نيوبورت. لم تذهب إلى هناك منذ عشرة أعوام، لكنها لم تجرؤ أبداً على بيعه. لديها الكثير من الذكريات في ذلك المنزل، وبالرغم من ذلك لم تتخيل نفسها عائدة إلى هناك، ولا حتى لزيارة. وهذا جزء من ميراث كونسويلو أيضاً، وهو أكثر أهمية من عقارات الليدي وينشاير، لأن والد كونسويلو لم يكن أبداً جزءاً من حياتهما.

كتب لها الرجل في المصرف ليقول لها إنه تلقى عرضاً مهماً جداً للمنزل. لا يزال ويليام وبلانش والخدم الآخرون هناك، يحافظون عليه، وقد خسروا كل أمل برؤيتها مجدداً. لا تستطيع القول إنهم مخطئون. لم ترغب أبداً بالعودة طوال كل تلك السنوات. اشتاقت إلى المنزل بين الحين والآخر، لكنها عرفت أيضاً مآسي النبذ التي ستعرفها إذا عادت، حتى ولو للزيارة. لم يبقَ لها أحد هناك لتراه. وخافت إذا عادت، أن يفتح ذلك مجدداً

كل الجروح القديمة لافتقادها إلى عائلتها، وكل ما خسرته، حتى جوشيا. لم تشأ إعادة إحياء ذلك الألم مجدداً. لكنها لم تشعر أنها مستعدة أيضاً لبيع المنزل، بالرغم من أن مدير المصرف محق لأن العرض المطروح جيد. لا تعرف ما تريد فعله.

فكرت في عرض الليدي وينشاير أولاً، وأخبرت كونسويلو عنه خلال العشاء تلك الليلة. تحمست الفتاة الصغيرة على الفور وقالت إنها تريد الذهاب. وبطريقة غريبة، شعرت آنابيل بالشيء نفسه أيضاً. فكرت أنه من المفيد لهما الابتعاد قليلاً. كانت كونسويلو تتوسلها للذهاب إلى دوفيل مجدداً، لكن آنابيل لا تريد الذهاب إلى هناك بعد تجربتها المريرة مع أنطوان. بدا لها وكأنها تملك ذكريات سيئة في كل مكان، وتختبئ دوماً من ذكرياتها.

ردّت على رسالة الليدي وينشاير في اليوم التالي، وقالت لها إنهما ترغبان بالمجيء. أجابت الليدي وينشاير فوراً، وعرضت عليهما مجموعة من التواريخ. في النهاية، اختارتا عطلة نهاية أسبوع ذكرى ميلاد كونسويلو. سيصبح عمرها سبع سنوات. سيكون الطقس أفضل قليلاً حينها. طلبت آنابيل من هيلين في عيادتها إحضار البطاقات وترتيب الأمور. ستأخذان القطار إلى كاليه، ثم تعبران القناة إلى دوفر، وقالت الليدي وينشاير إنها ستطلب من أحد ملاقاتهما هناك. تبعد المسافة ساعتين فقط عن منزلها.

حين حلّت عطلة نهاية الأسبوع المختارة، كانت كونسويلو متحمسة جداً بحيث بالكاد استطاعت البقاء جامدة. ستتركان بريجيت في باريس، حيث تنوي قضاء بعض الوقت مع صديقها الجديد. حجزت آنابيل بطاقتين للقطار، وحملت حقيبتيهما، وأرشدت كونسويلو إلى طريقها، ثم استقرتا في حجرة الدرجة الأولى التي حجزتها لهما هيلين. إنها أكبر مغامرة بالنسبة إلى كونسويلو منذ أن جاءتا إلى باريس قبل عامين، وعطلة نهاية الأسبوع في دوفيل مع أنطوان. لم تعودا تتحدثان عنه مؤخراً. حتى في عمرها الصغير، فهمت كونسويلو أن الموضوع مؤلم لأمها وبقيت بعيدة عنه. رأته آنابيل مرة في المستشفى، ولحظة لمحته استدارت بعيداً، وصعدت

على السلالم الخلفية لرؤية مريضها. لا تريد أبداً التحدث إليه مجدداً. خيانته لها كانت عظيمة.

فيما ابتعد القطار عن محطة غار دو نور، كانت كونسويلو تنظر إلى كل شيء بإعجاب، وابتسمت آنابيل. تناولتا الغداء في مقصورة الطعام، «مثل السيدات الكبيرات»، مثلما قالت كونسويلو، ثم راقبتا المشاهد الطبيعية تمرّ أمامهما إلى أن نامت الطفلة أخيراً في حضن أمها. أرجعت آنابيل رأسها إلى الخلف للاتكاء على المقعد، وفكّرت في الأشهر القليلة الماضية. كانت صعبة. بدا وكأن أنطوان لم يسرق فقط الحلم الذي عرضه عليها، وإنما أيضاً أملها في أن تكون الأمور مختلفة في حياتها.

بدا الأمر وكأنها ستعاقب دوماً على الماضي. إنها ضحية قرارات الأشخاص الآخرين، ونقاط ضعفهم وأكاذيبهم. من المحزن التوصل إلى هذا الشعور كما لو أن الحقيقة لن تظهر أبداً إلى الضوء، ولن تنظف أبداً صفحتها. مهما فعلت من أمور جيدة منذ ذلك الحين، أو مهما حققت، ما بدا أنه مستمر إلى الأبد، مثل وشم تعجز عن إزالته، هو الخطايا التي تم دمغها بها، بالرغم من أنها خطايا الآخرين. إنها أم جيدة وطبيبة رائعة، وشخص محترم، وبالرغم من ذلك، يتم نعتها دوماً بماضيها، وكونسويلو بأسوأ من ذلك، إلى الأبد. وحده أنطوان تجرأ على لفظ الكلمة. إنها صفة مؤلمة بالنسبة إلى طفلة بريئة.

بعد ثلاث ساعات تقريباً، وصلتا إلى كاليه وصعدتا إلى الباخرة. كانت آنابيل تخشى ذلك. لا تصاب عادة بدوار البحر، لكن القناة مضطربة على الدوام، وخشيت أن تعاني كونسويلو من الدوار. تبين في الواقع أنها رحلة صعبة، وأحبت كونسويلو كل دقيقة منها. كلما تمايلت الباخرة أكثر واضطربت في البحر المائج، قهقهت الطفلة أكثر، وصرخت فرحاً وسروراً. حين وصلتا إلى دوفر في الجهة الأخرى، بدأت آنابيل تشعر بالدوار، وكانت كونسويلو سعيدة أكثر من أي وقت مضى. قفزت فرحة من الباخرة، وهي تمسك بيد أمها، وحملت دميتها المفضلة في اليد الأخرى.

كان سائق الليدي وينشاير وسيارة الرولز القديمة في انتظارهما

بمحاذاة الحوض، مثلما وعدتها. كانت الرحلة التي استغرقت ساعتين هادئة نسبياً بين الأرياف، مع مزارع وأبقار وأراضٍ شاسعة، وقصر قديم بين الحين والآخر. بالنسبة إلى كونسويلو، إنها مغامرة رائعة. وبعد أن نزلتا الآن من الباخرة، أصبحت آنابيل تستمتع بها أيضاً.

لكن أياً منهما لم تكن مستعدة لعظمة عقار وينشاير، وجمال المنزل الكبير. ثمة أشجار عملاقة قديمة تحيط بجانبي الممشى الطويل، ونظراً إلى ثروة الليدي وينشاير، المستقلة عن ثروة زوجها، كان المنزل بحدّ ذاته في حالة ممتازة علماً أنه تم تشييده في القرن السادس عشر. كانت الإصطبلات أكبر وأنظف وأجمل من معظم المنازل. كانت الليدي وينشاير فارسة مميزة في شبابها ولا تزال تحتفظ بإصطبل للخيول العريقة، مع نصف دزينة من سائسي الخيل الذين يهتمون بها كل يوم.

خرجت للترحيب بهما على الدرج الأمامي، وبدت أكبر من أي وقت مضى، وهي ترتدي فستاناً باللون الكحلي، وتنتعل حذاءً يساعدها على المشي، وتضع قلائد اللآلئ المألوفة، وتعتمر قبعة أخرى عملاقة. رفعت عصاها الفضية مثل السيف، وأشارت إلى حقيبتيهما، وطلبت من سائقها إيصالهما إلى غرفتهما. ومع ابتسامة عريضة، بعدما عانقت آنابيل وكونسويلو، التي كانت مذهولة بكل ما رأته، طلبت منهما اللحاق بها إلى الداخل.

ثمة قاعة كبيرة مزينة بلوحات لأفراد العائلة، وغرفة جلوس عملاقة مع ثريا مذهلة، ومكتبة مكسوة بمئات الكتب العتيقة، وغرفة موسيقى مع قيثارتين وبيانو عملاق، وغرفة طعام مع طاولة كبيرة تتّسع لأربعين شخصاً في حفلات العشاء التي كانت تقام هنا. بدت غرف الاستقبال أنها تتكرر إلى ما لا نهاية إلى أن وصلن أخيراً إلى غرفة جلوس صغيرة وحميمة حيث تحب الليدي وينشاير الجلوس والنظر إلى الحدائق. فيما نظرت آنابيل حولها، وتأملت عظمة المنزل، وجدت أنه يصعب التصديق أن شخصاً ترعرع هنا يمكن أن يغتصب امرأة ثم يهدد بقتلها إذا أخبرت أحداً. ثمة صور فوتوغرافية لولدي وينشاير على الطاولة الأساسية في الغرفة حيث

كنّ يجلسن. وبعدما تناولن الشاي مع الكريما والمربى، طلبت الليدي وينشاير من أحد الخدم اصطحاب كونسويلو إلى الإصطبلات. تدبرت أمر إحضار فرس صغيرة، إذا أرادت تجربتها وركوبها، وشكرتها آنابيل على لطافتها معهما، وعلى ترحيبها الحنون فيما اختفت كونسويلو لرؤية الفرس الصغيرة.

قالت المرأة العجوز ببساطة: «عليّ التعويض عن الكثير من الأمور».

وابتسمت آنابيل. لا تحمّلها مسؤولية جرائم ابنها. وكيف يمكن اعتبارها جرائم إذا أفضت إلى ولادة كونسويلو، مهما كانت الطريقة التي حصلت بها. قالت ذلك للّيدي وينشاير، التي شكرت آنابيل على كرم أخلاقها، وقالت إن ابنها لا يستحق ذلك، مهما كانت تحبه. اعترفت بحزن أنه كان وحشياً وفاسداً.

تحدثتا قليلاً، وتنزهتا في الحدائق، وبعد قليل، ظهر أحد سائسي الخيل وهو يقود كونسويلو على الفرس الصغيرة. بدت في غاية السعادة. بدا جلياً أن الصغيرة تستمتع كثيراً بوقتها، بفضل جدتها التي اكتشفتها حديثاً. سألت الليدي وينشاير إذا كانت آنابيل تحب ركوب الخيل أيضاً. قالت إنها لم تفعل منذ أعوام، لكنها قد تجرب في صباح اليوم التالي. لقد اختفت كل مظاهر الترف هذه من حياتها حين غادرت الولايات المتحدة. رأت آنابيل أن ركوب الخيل مجدداً سيكون أمراً ممتعاً. لقد فعلت ذلك كثيراً خلال شبابها، خصوصاً في نيوبورت خلال الصيف.

بعدما عادت كونسويلو مع سائس الخيل إلى الإصطبلات، ذكرت آنابيل أنها تفكر في بيع المنزل في نيوبورت.

«ولماذا تبيعينه؟»، سألت المرأة العجوز، مع نظرة غير موافقة. «قلتِ إنه ملك عائلتك منذ أجيال عدة. عليك الحفاظ عليه، إذا كان جزءاً من تاريخ عائلتك. لا تبيعيه».

«لست واثقة من أنني سأعود يوماً إلى هناك. لقد غبت عشر سنوات. لا يزال المنزل فارغاً ومن دون حنان، مع خدم رائعين».

قالت الليدي وينشاير بحزم: «يجدر بك العودة، هذا جزء من تاريخ كونسويلو أيضاً. لديها الحق في ذلك، فيك، فينا، كل ذلك جزء ممن تكون، ومن ستصبح عليه يوماً ما. تماماً مثلما هو جزء منك». فكرت آنابيل في نفسها أن كل ذلك لم يساعد هاري، لكنها لم تجرؤ على قول ذلك لأمه، التي تعرف الأمر على أي حال، وقالته بنفسها. «لا يمكنك الهروب ممن تكونين آنابيل. لا يمكنك إنكاره، ويجدر بكونسويلو رؤيته. يجدر بك اصطحابها إلى هناك للزيارة في وقت ما».

«لقد انتهى الأمر بالنسبة إليّ»، قالت آنابيل وهي تبدو عنيدة فيما هزّت الليدي وينشاير رأسها.

«إنها مجرد البداية بالنسبة إليها. تحتاج إلى أكثر من باريس في حياتها، تماماً مثلك أنت. تحتاج إلى كل تواريخنا مجتمعة وتقديمها لها مثل باقة».

«تلقيت عرضاً ممتازاً. أستطيع بذلك شراء عقار في فرنسا». إلا أنها لم تفعل ذلك أبداً. كل ما تملكه هو منزلها المتواضع في الدائرة السادسة عشرة. لا تملك شيئاً في الأرياف، وعليها الاعتراف بعدما رأت كونسويلو هنا أن هذا سيفيدها.

«أعتقد أنك تستطيعين فعل ذلك على أي حال»، قالت الليدي وكانت محقة. فقد ورثت آنابيل ثروة كبيرة جداً من والدها، وثروة أصغر قليلاً من أمها، وبالكاد أنفقت شيئاً طوال أعوام. لم يعد ذلك يتطابق مع أسلوب عيشها، أو حياتها كطبيبة، وحرصت على عدم إظهار أي شيء من ذلك طوال السنوات العشر الماضية. هذا تصرف جيد من قبلها، لكن الآن، في عمر الثانية والثلاثين، أصبحت كبيرة كفاية للاستمتاع بالثروة.

استدارت الليدي وينشاير صوبها مبتسمة. «أتمنى أن تأتيا أنتما الاثنتان غالباً للزيارة. لا أزال أذهب إلى لندن بين الحين والآخر، لكنني أمضي معظم وقتي هنا». كان هذا مقرّ عائلة زوجها، مما ذكّرها بفكرة أخرى أرادت طرحها على آنابيل من دون وجود كونسويلو. لم تكن واثقة إذا كان

الوقت لا يزال مبكراً جداً على ذكر الأمر، لكنها فكرت ملياً في الموضوع. قالت بحذر: «فكرت كثيراً في وضع كونسويلو، لأنك لم تتزوجي أبداً أنت ووالدها. قد يصبح ذلك عبئاً كبيراً عليها بعد سنوات قليلة، حين تكبر في السن. لا يمكنك الكذب عليها إلى الأبد، وقد يعرف أحد الحقيقة في يوم ما. تحدثت إلى محاميّ، ومن غير المنطقي أن أتبناها أنا، وهي ابنتك. لا يستطيع هاري الزواج بك بعد موته، لسوء الحظ. لكنني أستطيع الاعتراف بها رسمياً، مما يحسّن الأمور نوعاً ما، وتستطيع إضافة اسمنا إلى اسمك، إذا قبلتِ بذلك». لم تشأ إهانة والدة الطفلة، التي كانت شجاعة كفاية في تحمّل كل مسؤولياتها لوحدها. لكن آنابيل ابتسمت لها. أصبحت حساسة للمسألة هي الأخرى، منذ إهانات أنطوان الشنيعة، خصوصاً وأنه نعت كونسويلو باللقيطة. لا تزال الفكرة تؤلمها حتى الآن.

قالت آنابيل بامتنان: «أظن أن هذه فكرة رائعة، قد تسهّل الأمور عليها يوماً ما».

بدت الليدي وينشاير متفائلة «ألا تمانعين؟».

«أودّ ذلك كثيراً». ربطت الليدي وينشاير بالاسم، وليس ابنها الشرير. «سيجعلها ذلك كونسويلو ورثينغتون – وينشاير، أو العكس، مثلما تفضلين».

«أظن أن اسم ورثينغتون – وينشاير ملائم تماماً. أستطيع الطلب من محاميّ تحضير الأوراق متى تريدين». ابتسمت لآنابيل التي انحنت وعانقتها.

قالت آنابيل بامتنان: «أنت لطيفة جداً معنا».

قالت بحزن: «ولماذا لا أكون؟ أنت امرأة صالحة. ألاحظ أنك أم رائعة لها. نوعاً ما، وبالرغم من كل شيء، نجحت في أن تصبحي طبيبة. وحسبما عرفت، طبيبة جيدة». تحقق طبيبها الخاص سراً من الأمر، عبر معارف له في فرنسا. «وبالرغم مما فعله ابني معك، تعافيت، ولا تكنّين الحقد للطفلة، أو حتى لي. لست واثقة حتى من أنك تحقدين عليه، ولست

واثقة من أنني أستطيع فعل ذلك لو كنت مكانك. أنت محترمة، ومسؤولة، ومحتشمة، وعاملة بكدّ. عملت مثل حصان طروادة خلال الحرب. لا توجد عائلة تسندك. لقد فعلت كل ذلك بمفردك، من دون مساعدة أحد. كنت شجاعة كفاية لإنجاب طفلة خارج الزواج، وجعلت من الأمر أفضل ما يمكن. لا أستطيع التفكير في شيء واحد فيك لا أحترمه أو أحبه. في الواقع، أنت امرأة مميزة، وأنا فخورة بالتعرف إليك». ما قالته جعل الدموع تتلألأ في عيني آنابيل. إنه عكس ما قاله أنطوان.

قالت آنابيل بحزن: «أتمنى لو يرى الآخرون الأمور مثلك، لا يرون سوى أخطائي. ويبدو لي أن كل الأشخاص، باستثنائك أنت، يرون فقط الصفات التي نعتني الآخرون بها». اعترفت لها حينها بأحد أفظع أسرارها وأخبرتها أنها تطلّقت قبل أن تغادر الولايات المتحدة وأخبرتها السبب. جعل ذلك الليدي وينشاير تكنّ لها المزيد من الإعجاب.

"هذه قصة مذهلة فعلاً"، قالت وهي تفكر فيها لبرهة. لم تصدم كثيراً، وقصة زواج آنابيل من جوشيا جعلتها تشعر بالأسف على آنابيل. «كانت حماقة منه أن يظن أنه يستطيع الضحك عليك».

«أظن أنه اعتقد أن في وسعه فعل ذلك، ومن ثم اكتشف أنه لا يستطيع».

قالت الليدي وينشاير وهي تهزّ رأسها: «يكون الأشخاص حمقى أحياناً، وكانت حماقة منه أيضاً أن يظن أن الطلاق لن يلطّخ سمعتك. من الجميل القول إنه حاول تحريرك لترتبطي بشخص آخر. إلا أن طلاقك بسبب الزنى يساوي رميك بين الذئاب. كما أنه لوّث سمعتك أمام المجتمع. فعلاً، يكون الرجال جاهلين جداً وأنانيين كثيراً أحياناً. لا أعتقد أنه في وسعك محو هذه الغلطة الآن بسهولة». هزّت آنابيل رأسها. «عليك فقط أن تقولي لنفسك إنك لا تهتمين. تعرفين الحقيقة. هذا كل ما يهم».

قالت آنابيل بحزن: «لكن هذا لن يمنع الناس من إغلاق الأبواب في وجهي، ووجه كونسويلو».

«هل تهتمين فعلاً لهؤلاء الأشخاص؟»، سألت الليدي وينشاير بصراحة. «إذا كانوا حقيرين كفاية لفعل ذلك بك، وبها، يكونون غير جيدين كفاية لكما، وليس العكس». أخبرتها آنابيل عن تجربتها الأخيرة مع أنطوان، وغضبت كثيراً. «كيف يقول لك مثل هذه الأمور؟ ما من شيء ضيق التفكير وشرير أكثر من أنانية البورجوازية. كان في وسعه جعلك تعيسة عزيزتي. كنت محقة في عدم السماح له بالعودة. لم يكن جديراً بك». ابتسمت آنابيل على ما قالته، ووافقتها الرأي. حزنت على ما حصل، لكن بعدما اكتشفت حقيقة أنطوان، لم تعد تشتاق إليه. تشتاق فقط إلى الحلم الذي أملت في أن يحصلا عليه، لكن هذا لن يتم أبداً على ما يبدو. كان وهماً. كان حلماً جميلاً تحول إلى كابوس بكلماته وافتراضاته المريعة. كان راغباً جداً بالتفكير في الأسوأ عنها، سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا.

جاءت كونسويلو إلى الغرفة وهي تقفز حينها، متحمسة لكل الخيول التي رأتها في الإصطبل، وللفرس الصغيرة التي امتطتها. وتحمست أكثر حين رأت غرفتها. إنها غرفة كبيرة ومشمسة، مزينة بأقمشة الحرير المطبعة بالأزهار، ومحاذية لغرفة أمها، التي تشبه غرفتها كثيراً. وتلك الليلة في أثناء العشاء، أخبرتاها عن اسمها الجديد المزدوج.

قالت كونسويلو بطريقة عملية: «يبدو لفظه صعباً» فضحكت أمها وجدتها.

قالت أمها: «ستعتادين عليه». شعرت بامتنان كبير لليدي وينشاير على اعترافها القانوني بطفلتها. قد يجنبها ذلك نعتها باللقيطة مجدداً، من شخص فظ مثل أنطوان.

لعبن بعد العشاء، وفي النهاية، ذهب الثلاثة إلى النوم. كانت كونسويلو نصف نائمة ومتكئة على أمها. في النهاية، نامت في سرير آنابيل. وتوجهت مباشرة إلى الإصطبل مجدداً في صباح اليوم التالي ما إن ارتدت ثيابها.

تحدثت المرأتان بارتياح طوال اليوم، عن موضوعات مختلفة، من السياسة إلى الطب والقصص. الليدي ذكية وحسنة الاطّلاع. حديثهما ذكّر

آنابيل بالأحاديث التي كانت تتشـاركها مع أمها، ودفعت آنابيل إلى التفكير كثيـراً فـي حديثهمـا في اليوم الأول، عن عدم اهتمام آنابيل للصـفات التي يفرضـها عليهـا الأشـخاص بطريقة غير عادلة. بقيـت تذكرها بذلك طوال عطلة نهاية الأسبوع والقول لها إنها امرأة صالحة. جعل ذلك آنابيل تشعر بالفخر بنفسها، وليس مثل المنبوذة التي كانت عليها حين تركت نيويورك. كلمات أنطوان كانت سيئة أيضاً، لا بل أسوأ لأنها جاءت من شخص أحبته وظنت أنه أحبها.

في اليوم الأخير، في أثناء تناول الغداء في الحديقة، حضّـرت جدة كونسويلو مفاجأة لها. جعلت أحد سائسي الخيل ينضم إليهن في أثناء تناول الحلوى، حين قطعن قالب الحلوى الخاص بذكرى ميلاد كونسويلو، وكان يحمل علبة مربوطة بشريط وردي. ظنت كونسويلو وأمها أنها قبعة فروسية لتعتمرها حين تعود. ثم رأت آنابيل أن العلبة تهتز قليلاً، وبدأت تشـك في محتواها. أمسـكها سـائس الخيل جيداً فيما باشـرت كونسويلو بفك الشريط، ونـزع الغطـاء بحـذر. وما إن فعلت ذلك، نظر إليها وجه أسـود صـغير وقفز من العلبة إلى يديها. إنه جرو أسـود صـغير، مشابه لحيوانات الليدي وينشـاير، وشـعرت كونسويلو بحماسة كبيرة بحيث عجزت عن الكلام فيما لعق الجرو الصـغير وجهها. ابتسـمت لها المرأتان، واسـتدارت كونسويلو نحو جدتها، ووضعت ذراعيها حول عنقها.

«شكراً لك! إنه رائع! ماذا أسميه؟».

«يعود القرار لك عزيزتي». كانت الليدي وينشاير مسرورة جداً. لقد أصبحت هذه الحفيدة غير المتوقعة مصدر سرور كبير في حياتها.

شعرن جميعاً بالحزن لوداع بعضهن حين صعدت كونسويلو وأمها في السيارة للعودة إلى دوفر، والقيام بالرحلة الطويلة في الباخرة ومن ثم في القطار للعودة إلى باريس. ذكّرتهما الليدي وينشاير بالعودة قريباً. شكرتها كونسـويلو مجدداً على الجرو، الذي لا يزال من دون اسـم، لكنه تحمس كثيراً للقيام بالرحلة. وذكّرت الليدي وينشـاير آنابيل سـراً بأنها سترسـل الأوراق المتعلقة بكونسويلو ما إن يتم الانتهاء من تحضيرها.

وقفـت علـى الدرج الأمامي لمنزلهـا تلوّح لهما فيما ابتعدتا، ولاعبت كونسويلو الجرو طوال طريق العودة إلى باريس. أخبرت أمها أنها أفضل ذكرى ميلاد عرفتها، وكانت ذكرى جميلة بالنسبة إلى آنابيل أيضاً.

بعدما وصـلتا إلى المنزل، كتبت آنابيل إلى المحامين، وطلبت منهم عدم بيع المنزل في نيوبورت. وفي عيادتها في صباح اليوم التالي، طلبت من هيلين حجز بطاقة لها على سفينة إلى نيويورك في شهر يونيو مع بطاقة عودة إلى باريس في شهر يوليو. لقد أخذت بنصيحة الليدي وينشاير.

الفصل السادس والعشرون

في الأسبوع الثالث من شهر يونيو، أبحرت آنابيل وكونسويلو وبريجيت على متن الموريتانيا. إنها السفينة نفسها التي أبحر فيها والداها وروبرت، عند ذهابهم إلى أوروبا، في رحلتهم الأخيرة المشؤومة. تألمت آنابيل لمعرفة ذلك. أبحرن من لوهافر في يوم صيفي مشمس، وحجزن غرفتين جميلتين جنباً إلى جنب في الطابق العلوي من الباخرة.

موريتانيا هي إحدى أكبر وأسرع وأفخم السفن المستخدمة. أبحرت عليها آنابيل أيضاً حين كان عمرها ستة عشر عاماً مع أهلها. وحجزت اثنتين من أكبر وأجمل الحجرات في السفينة. يحبها المسافرون عادة لغرفها الفسيحة، حتى في الدرجة الثانية، وهذا أمر نادر في السفن الأخرى، وخصوصاً في الدرجة الأولى.

كانت كونسويلو متحمسة كثيراً. شعرت بريجيت بالتوتر من عبور الأطلسي. كان لها قريب في التايتانيك، ولم ينجُ من الحادثة. بدأت تبكي وتدعو لحظة صعدن على متن الباخرة، وراحت تتحدث عن الكارثة الماضية، مما أزعج مستخدمتها. لا تريد آنابيل إخافة كونسويلو، وتذكيرها كيف مات جدها وخالها. لم توفّر بريجيت ذكر أي تفاصيل عن كل ما سمعته وقرأته حول الحادثة، بما في ذلك صراخ الأشخاص الذين ماتوا في الماء.

«هل هذا صحيح، ماما؟». نظرت الطفلة إلى أمها بعينين واسعتين. لا تتخيل سفينة بهذا الحجم وهي تغرق. عرفت كونسويلو القصة، ولكن لا شيء من التفاصيل.

قالت آنابيل بصراحة: «نوعاً ما، تحصل أحياناً أشياء سيئة، ولكن ليس غالباً. حدث ذلك منذ وقت بعيد بعيد، وقد أبحرت السفن في المحيط بعد ذلك

من دون أي مشكلة. هذه الباخرة تسافر بأمان منذ ثمانية عشر عاماً، ولن تكون هناك جبال جليد في طريقنا في هذه الرحلة. انظري كم الطقس جميل ومشمس، وكم السفينة كبيرة. أعدك أننا سنكون جميعاً بخير»، ووجهت نظرة تحذير إلى بريجيت فوق رأس الطفلة.

«كانت التايتانيك أكبر . . . وماذا عن اللوسيتانيا؟»، أصرّت بريجيت، وأرادت آنابيل خنقها بسبب إخافتها الطفلة.

«ما هي اللوفمانيا؟»، سألت كونسويلو إذ لم تستوعب الاسم جيداً.

«بريجيت خائفة قليلاً وسخيفة. أعدك أننا سنقوم برحلة مذهلة. وسنفعل الكثير من الأشياء الممتعة في نيويورك، ونرى منزلي القديم في نيوبورت». لأسباب مختلفة، كانت متوترة بقدر بريجيت. لم تكن خائفة من غرق السفينة هذه المرة، خصوصاً في زمن السلم، وإنما هي المرة الأولى التي تعود فيها إلى نيويورك بعد عشر سنوات، وستواجه الآلام التي تركتها هناك. لكنها وافقت الليدي وينشاير رأيها. هذا جزء من أصل كونسويلو، ولديها الحق في رؤيته، ومعرفة المزيد عنه، تماماً مثلما فعلت في جهة وينشاير. ولا تستطيع آنابيل الاختباء إلى الأبد. لقد احتاجت إلى وقت طويل جداً لتعود. كانت الحرب عذراً جيداً لوقت طويل، ومن ثم كلية الطب. لكن الحرب انتهت منذ سبعة أعوام تقريباً، أي منذ ولادة كونسويلو. هذا وقت طويل كفاية. لكنها لا تريد سماع التفاصيل عن غرق التايتانيك، من بريجيت، مع تفاصيل صراخ الموت في الماء. وقد أخبرتها ذلك صراحة حين ابتعدت كونسويلو قليلاً لرؤية الحيوان الأليف الذي يعود لشخص آخر. هناك الكثير من الحيوانات الأليفة المسافرة على متن الباخرة، وأولاد لتلعب كونسويلو معهم.

طلبت من بريجيت المباشرة بفتح الحقائب، لإبقائها مشغولة، وأخذت آنابيل كونسويلو لرؤية حوض السباحة، وغرفة الطعام المذهلة، وصالات الألعاب، وحجرات الحيوانات الأليفة في جهة أخرى من الباخرة. تركت جروها الصغير في المنزل مع هيلين، الذي تحبه كثيراً. أطلقت عليه كونسويلو اسم كوكو.

فيما ابتعدت السفينة عن المرفأ، وقفت النساء الثلاث على متن الباخرة وراقبن باريس تختفي ببطء وراءهن. توسلت كونسويلو أمها للذهاب واللعب بالأقراص الخشبية، ووعدتها آنابيل بأن تفعلا ذلك بعد الظهر. وتلك الليلة، تناولت العشاء مع أمها في غرفة الطعام الكبيرة. إنها رحلة مختلفة تماماً عن تلك التي عرفتها آنابيل حين جاءت إلى أوروبا قبل عشر سنوات، إذ بالكاد تركت حجرتها آنذاك ولم تكن تعرف ماذا سيكون في انتظارها حين تصل إلى مقصدها. كل ما أرادته آنابيل آنذاك هو الهروب من الأشخاص الذين أساؤوا الحكم عليها في نيويورك. والآن، بعد عشر سنوات، تعود إلى هناك.

كان كل شيء جيداً، حتى اليوم الثالث، حين رأت آنابيل ثنائياً متقدماً في العمر يقفان قرب طاولة لعب الأقراص الخشبية، مع ثنائي أصغر سناً هما بوضوح ابنتهما وزوجها. كانا يحدقان إليها، لكنها زعمت أنها لم تتعرف إليهما حين مرّت أمامهما هي وكونسويلو. بدأت آنابيل فوراً حديثاً حيوياً مع ابنتها بحيث لا تضطر إلى إلقاء التحية على الشخصين اللذين تعرفت إليهما. إنهما من معارف أهلها. وحين مرّت أمامهما هي وكونسويلو، سمعت المرأة المتقدمة في السن تتحدث إلى زوجها بصوت خافت انتقل بوضوح على متن الباخرة.

«. . . متزوجة من جوشيا ميلبانك . . . ألا تذكر . . . ابنة آرثر ورثينغتون . . . فضيحة مريعة . . . أقامت علاقة غرامية وطلّقها . . . هربت مع الرجل الآخر إلى فرنسا . . .». إذاً، هذا هو رأيهم، قالت آنابيل لنفسها، وهزت كتفها. ولا يزالون يذكرون. تساءلت إذا كان الجميع لا يزالون يذكرون. إنه فعلاً حكم مؤبد، ولن تتمّ مسامحتها أبداً. ستبقى ساقطة إلى الأبد.

صُدمت حين أدركت أن بعض الناس يظنون أنها ذهبت إلى فرنسا مع رجل. مجرد سماع ذلك جعلها راغبة بالركض إلى غرفتها والاختباء. ثم تذكرت كلمات الليدي وينشاير لها. «أبقي رأسك مرفوعاً، آنابيل. أنت امرأة صالحة. لا تهتمي بهم». وفيما أصغت إلى ترداد كلماتها في

رأسها، أدركت أن الليدي وينشاير محقة، إلى حدٍّ ما. إنها تهتم، إذ لا تريد أن تكون منبوذة وتكره الصفات التي فرضها الآخرون عليها... علماً أن الساقطة هي أسوأ تلك الصفات... لكنها ليست ساقطة ولم تكن أبداً هكذا. كانت مخلصة لزوجها، وكانت امرأة صالحة حينها، ولا تزال حتى الآن. لم يتغير أي شيء، سواء أكانت مطلّقة أم لا. وبعد كل هذه السنوات، لا يزالون يهتمون بسبب ذهابها إلى فرنسا ومع مَن. لم يتواجد أحد لمساعدتها، أو دعمها، أو مواساتها، أو مساندتها في الخسارات التي تحملتها. كانت حياتها ستختلف حتماً لو فعل أحدهم ذلك. لكن لو حصل هذا، لما ذهبت أبداً إلى أوروبا، وأصبحت طبيبة، ولما كانت كونسويلو إلى جانبها. إنها الفائزة في النهاية.

في طريق العودة من زيارة أخرى إلى حجرات الحيوانات الأليفة، حيث زارتا جرواً أسود جميلاً، مرّت آنابيل أمامهما مجدداً، وهي تمسك بيد كونسويلو. وهذه المرة، نظرت إلى المرأة مباشرة في عينيها، وأومأت لها برأسها. كانت آنابيل تعتمر قبعة أنيقة متناغمة مع الطقم الحريري الرمادي الذي اشترته للرحلة، وبدت أنيقة جداً، وغير أميركية البتة وإنما فرنسية. لحظة أومأت لها آنابيل برأسها، أسرعت المرأة نحوها مبتسمة ابتسامة عريضة زائفة وألقت عليها التحية.

«يا الله، آنابيل، هل هذه أنت؟ بعد كل هذه السنوات! كيف حالك ويا لها من طفلة جميلة. لا بد من أنها طفلتك، إذ تشبهك كثيراً... هل زوجك على متن الباخرة؟».

قالت آنابيل، وهي تصافحهما بتهذيب: «لا، أنا أرملة. وهذه ابنتي، كونسويلو ورثينغتون – وينشاير». انحنت كونسويلو بتهذيب أمامهما في الفستان الأنيق الذي قررت ارتداءه مع قفازين بيضاوين وقبعة.

«آه... عزيزتي... أسميتها تيمناً بأمك. يا لك من امرأة رائعة. هل ما زلت تعيشين في فرنسا؟».

قالت آنابيل ببرود: «نعم في باريس».

«ألم تأتي أبداً إلى نيويورك؟ لم نرك منذ زمن طويل».

«إنها المرة الأولى التي أعود فيها منذ أن غادرت»، بسبب الأشخاص المراوغين مثلك، أرادت أن تقول لها، والذين يبقون الإشاعات مستمرة إلى الأبد ولا يسمحون لأحد بنسيانها.

«يصعب تصديق ذلك. والمنزل في نيوبورت؟».

«سنقضي فيه بضعة أسابيع. أريد أن تراه كونسويلو». تحدثت الطفلة الإنكليزية مع لكنة فرنسية، مما جعلها عذبة جداً. «ونريد رؤية الكثير من نيويورك»، قالت وهي تبتسم لابنتها وابتعدتا. على الأقل، تحدثت المرأة إليها. هذا نوع من التحسن. قبل عشرة أعوام، لم تكن لتفعل ذلك. كانت ستدير لها ظهرها ببساطة، ولا تتحدث إليها إطلاقاً. ادّعت الآن على الأقل أنها لطيفة، مهما فكرت فيها أو قالت عنها من وراء ظهرها.

قالت المرأة الأخرى: «ربما سنراك في نيوبورت». وهي لا تزال تشعر بالفضول حولها، فيما نظرت إلى طقم آنابيل الباهظ وقبعتها وفستان كونسويلو الأنيق. «ما الذي يبقيك مشغولة في باريس؟»، سألت بطريقة مزعجة، وهي ترغب بوضوح في المزيد من التفاصيل عن حياة آنابيل لتتمكن من الثرثرة عنها حين تعود. هذا واضح جلياً فيها. لاحظت أيضاً الخاتم الزمردي الأنيق الذي أعطته لها الليدي وينشاير بالترافق مع خاتم الزواج الذي لا تزال تضعه آنابيل. إنه الخاتم الذي اشترته بنفسها، قبل ولادة كونسويلو، ولم تخلعه أبداً، وهو عبارة عن خاتم زواج ذهبي بسيط.

«أنا طبيبة»، قالت آنابيل وهي تبتسم لها، متذكرة كلمات الليدي وينشاير مجدداً، وكادت تضحك هذه المرة. هؤلاء الأشخاص تافهون جداً، وحقيرون جداً، يبحثون عن الأشياء التي تلمع في النفايات ليتمكنوا من نقلها إلى الآخرين، أو المتاجرة بسمعة الناس الطيبين، الأهم منهم بعشرات المرات.

«حقاً؟ كم هذا مذهل!». كادت عينا المرأة تخرجان من وجهها.

«كيف فعلت ذلك؟».

ابتسمت لها آنابيل. «ذهبت إلى كلية الطب في فرنسا، بعد موت زوجي».

«هل كان طبيباً أيضاً؟».

«لا»، قالت ببساطة. الزوج الذي مات غير موجود. «والد كونسويلو كان الكونت وينشاير. قتل في الحرب في إيبر». كل هذا صحيح. لم تقل كذبة واحدة عن والد كونسويلو. وليس هذا من شأنها، ولن يكون أبداً، إذا كانا متزوجين أم لا. لن يقلل ذلك من إنجازاتها، أو من المرأة الصالحة التي هي عليها.

«طبعاً»، قالت المرأة، وهي متأثرة أكثر مما تريد أن تبدو، لكنها بالكاد استطاعت الانتظار لتغادر آنابيل حتى تبدأ بإخبار ابنتها، التي بالكاد تعرفت إليها آنابيل بعد أن أصبحت بدينة جداً ولم تكن تعرفها جيداً حين غادرت. كانت تلعب بالأقراص الخشبية مع أصدقاء لها.

بعد برهة، ابتعدت آنابيل وكونسويلو.

سألت كونسويلو باهتمام «من هذه؟».

«واحدة من معارف أهلي في نيويورك»، قالت وهي تشعر أفضل مما فعلت طوال زمن بعيد. لقد آلمها أنطوان بقوة. والذين جاؤوا قبله أثروا فيها سلباً أيضاً. لكنهم بدوا فجأة وكأنهم يفقدون تأثيرهم فيها.

قالت كونسويلو بحكمة: «تنظر إلينا بطريقة حقيرة». فضحكت أمها.

«نعم، صحيح. كنت أعرف الكثير من هؤلاء الأشخاص».

بدت كونسويلو قلقة «هل جميع مَن في نيويورك هكذا؟».

قالت آنابيل بذكاء: «أتمنى ألا يكونوا هكذا، لكننا لا نذهب إلى هناك لأجلهم. نحن نذهب لأجلنا نحن». ولم تعد راغبة بالبقاء بعيدة والاختباء من الآخرين. لا يملكون نيوبورت أو نيويورك. لديها عالمها الخاص الآن، وحياتها في باريس، ومرضاها، ومهنتها، وطفلتها. الشيء الوحيد الناقص في حياتها هو الرجل. لكن إذا كان سيتم احتقارها وإذلالها وتحمّلها من قبل رجال مثل أنطوان، لا يصدقونها أو يحترمونها، فهي تفضل أن تكون

وحيدة. إنها بخير هكذا.

بقيت الرحلة من دون مشاكل. أمضين وقتاً جميلاً. تناولت آنابيل وكونسويلو الطعام في غرفة الطعام الكبيرة كل ليلة، وحين دعاها القبطان للانضمام إلى طاولته ذات ليلة، اعتذرت آنابيل بتهذيب. فضلت تناول العشاء مع ابنتها، بدلاً من الجلوس بين أولئك الأشخاص المنافقين والمراوغين أمثال معارف أهلها الذين التقت بهم على متن الباخرة.

حين رست السفينة في مرفأ نيويورك، بمساعدة زوارق القطر، شعرت آنابيل بغصة في حنجرتها حين رأت تمثال الحرية يقف بفخر مع مشعله في الأعلى. إنها لحظة مؤثرة، كما لو أن التمثال كان في انتظارهما. أشارت لابنتها إلى مستشفى إيليس آيلند، وشرحت لها ما فعلته هناك قبل أن تصبح طبيبة، وأن هذا كان حلماً مستحيلاً بالنسبة إليها آنذاك.

«لماذا ماما؟ لماذا لا يمكنك أن تكوني طبيبة هنا؟». لم تفهم. فكون أمها طبيبة بدا الشيء الأكثر طبيعية في العالم بالنسبة إليها، وأرادت أن تصبح طبيبة هي الأخرى، وقد تكون فعلاً يوماً ما.

«لأن النساء لا يفعلن ذلك غالباً. لا يزلن على هذه الحال. يظن الناس أنه يجدر بهن الزواج وإنجاب الأولاد والبقاء في المنزل».

نظرت إليها كونسويلو بحيرة «ألا يمكنك فعل الأمرين معاً؟».

«أظن بلى»، قالت وهي تنظر إلى تمثال الحرية مجدداً. إنه تذكير للجميع بأن مشعل الحرية لا ينطفئ أبداً. حتى لو أغمضت عينيك، تبقى الحرية موجودة، مضيئة الطريق للجميع، للرجال والنساء والأغنياء والفقراء. الحرية تنتمي إلى الجميع، وإلى آنابيل الآن أيضاً.

بدت كونسويلو شاردة حينها. «لو تزوجت، بأنطوان أو برجل مثله، هل كنت توقفت عن ممارسة الطب؟».

«لا، لن أفعل». لم تعلق أبداً على أنطوان الذي نادى طفلتها باللقيطة. لن تسامحه أبداً على هذا. ولن تتمكن من مسامحته على البقية.

حين نزلن من السفينة، وانتهين من معاملات الجمارك، عثرن على

سيارتي أجرة لأخذهنّ مع حقائبهنّ إلى فندق البلازا. ثمة منظر جميل في الحديقة العامة، وهي على مسافة قريبة من منزلها القديم. صدمت آنابيل كم تغيرت نيويورك، وكم ظهر العديد من المباني الجديدة، وكم بدت المدينة أكثر ازدحاماً الآن. سحرت كونسويلو بها، وما إن وصلن إلى الفندق وتناولن الغداء، حتى ذهبت هي وأمها لاستكشاف المدينة سيراً على الأقدام.

من البديهي أن تذهبا إلى منزلها القديم أولاً. لم تستطع آنابيل تمالك نفسها. عليها رؤيته. إنه في حال جيدة، بالرغم من أن النوافذ مغلقة، وبدا المنزل غير مأهول. افترضت أن المالكين الجدد ذهبوا بعيداً لقضاء الصيف. وقفت آنابيل تحدق إليه لوقت طويل فيما أمسكت كونسويلو بيدها.

«هنا عشت حين كنت فتاة صغيرة». كانت على وشك أن تقول إلى أن تزوجت لكنها توقفت عن الكلام. لم تخبر أبداً كونسويلو عن جوشيا، بالرغم من أنها عرفت أنها ستفعل ذلك يوماً ما.

«لا بد من أنك حزنت كثيراً حين مات والدك وأخوك»، قالت كونسويلو برصانة، كما لو أنهما تزوران قبرهما، وكان ذلك شبيهاً بزيارة قبرهما نوعاً ما. وقبر أمها. لقد ماتت في هذا المنزل. وولدت آنابيل فيه.

«جدتك كونسويلو عاشت هنا أيضاً».

«هل كانت لطيفة؟»، سألت كونسويلو باهتمام فيما ابتسمت أمها.

«جداً. وكانت جميلة، مثلك تماماً. كانت امرأة رائعة ولطيفة. وأحببتها كثيراً».

قالت كونسويلو بهدوء: «لا بد من أنك تشتاقين إليها كثيراً أيضاً».

«نعم، صحيح». وقفت هناك وتذكرت آنابيل الصباح الذي عرفت فيه أن التايتانيك غرقت، واليوم الذي ماتت فيه أمها. لكنها تذكرت الذكريات السعيدة أيضاً. أيام طفولتها حين كان كل شيء بسيطاً جداً وسهلاً جداً. عاشت حياة ذهبية بين أشخاص حنونين حموها من كل الأذى. وفي

السنوات اللاحقة، دفعت غالياً ثمن كل ما تملكه الآن.

ابتعدتا ببطء، وأخذت آنابيل كونسويلو لرؤية المعالم الأساسية الأخرى في حياتها. أخبرتها عن حفل تقديمها إلى المجتمع. وزارتا معاً مصرف جدها، حيث قامت آنابيل بتعريف كونسويلو على المدير وبعض الموظفين الذين لا تزال تعرفهم. انحنت كونسويلو باحترام أمامهم وصافحتهم. وفي نهاية بعد الظهر، عادتا إلى البالم كورت في فندق البلازا لتناول الشاي. كان هذا رائعاً، ورأتا نساء أنيقات يرتدين ثياباً جميلة جداً، ويعتمرن قبعات كبيرة ويضعن مجوهرات باهظة، يتحدثن ويستمتعن بوقتهن تحت السماء الواسعة.

أحبت كونسويلو نيويورك، وكانت آنابيل سعيدة أكثر مما توقعت. من الجميل العودة، ومن الممتع إظهار كل شيء لابنتها. كانت الليدي وينشاير محقة، فهذا جزء من تاريخها وتاريخ ابنتها، ومن المهم كثيراً أن تعرف كونسويلو أين كبرت أمها. مكثتا لأسبوع، ولم تلتقِ آنابيل بأي شخص تعرفه. لا تريد رؤية أحد. وفي نهاية الأسبوع، تشوقت للذهاب إلى نيوبورت والمنزل الصيفي. عرفت أن كونسويلو ستحب المكان هناك، مثلما فعلت هي حين كانت طفلة. بغض النظر عن الحياة الاجتماعية التي تعتبر أساسية جداً للمقيمين هناك، كان المحيط والشاطئ بجمال طبيعي أخاذ يلفت الأنظار أكثر من المنازل الصيفية المهمة جداً لأصحابها ولكل من يعرفونهم.

تركن فندق البلازا، وأخذن القطار إلى بوسطن، وكان ويليام، رئيس الخدم القديم عند أهلها، ينتظرهن في المحطة مع إحدى سيارات والدها القديمة التي لا يزالون يحتفظون بها في نيوبورت. بدأ يبكي لحظة رآها، وانحنى حين رأى كونسويلو التي تأثرت كثيراً بمدى تقدمه في العمر وبمدى احترامه لها. وشعرت بالأسف عليه حين بكى بحيث وقفت على أطراف أصابعها لتقبيله. تلألأت عيناه هو وآنابيل بالدموع حين ألقيا التحية على بعضهما. عرف الموظفون بشأن كونسويلو من رسائل آنابيل إلى بلانش، لكنهم لا يعرفون أبداً من يكون الوالد أو متى حصل الزواج.

يعرفون أنه قتل بعد فترة وجيزة من زواجه هو وآنابيل. نظر ويليام إلى كونسويلو بعينين دامعتين وتعبير حنون.

«تبدو مثلك تماماً حين كنت في مثل عمرها. وفيها القليل من أمك».

ساعدهما على الصعود إلى السيارة، وانطلقوا في رحلة الساعات السبع للوصول إلى نيوبورت، فيما راقبت كونسويلو، وعلّقت على كل ما رأته في الطريق. شرح لها ويليام كل شيء. وهنا أيضاً، وجدت آنابيل أن الكثير تغير، وإن لم يكن في نيوبورت نفسها. حين وصلوا إلى المدينة، وجدتها آنابيل مثلما كانت قبلاً. واتسعت عينا كونسويلو حين رأت المنزل الصيفي ومساحة الأرض الكبيرة حوله. إنه عقار مهيب، حافظ عليه الخدم في وضع ممتاز.

«إنه كبير بقدر منزل الجدة في إنكلترا»، قالت كونسويلو أمام المنزل الضخم، وابتسمت أمها. لا يزال يبدو مثلما تذكره، وأعاد إليها ذكريات الطفولة بلمح البصر.

قالت آنابيل لكونسويلو: «ليس تماماً، منزل جدتك أكبر. لكنني عشت بعض فصول الصيف الرائعة هنا». حتى الصيف الأخير. العودة إلى هنا أعادت إليها الكثير من الذكريات حول جوشيا، والنهاية المريعة لزواجهما. لكنها جعلتها تفكر أيضاً في بداياتهما السعيدة، حين كانت شابة ومتفائلة. أصبحت الآن في الثانية والثلاثين، وقد تغير الكثير. لكنها لا تزال تشعر أنها في منزلها.

ما إن توقفت السيارة، حتى ركضت بلانش والآخرون خارج المنزل. لفّت ذراعيها حول آنابيل ولم تتوقف عن البكاء. بدت أكبر سناً، وحين رأت كونسويلو، عانقتها أيضاً. ومثل ويليام، أخبرت آنابيل أن ابنتها تشبهها كثيراً.

«وأنت طبيبة الآن!». لا تزال بلانش لا تصدق ذلك. لا تصدق أنها عادت إلى المنزل الآن. ظنوا أنها لن تفعل أبداً. خافوا كثيراً من أن تبيع المنزل، إنه منزلهم أيضاً، وأبقوا كل شيء على حاله كرمى لها. بدا وكأنها

غادرت في اليوم السابق وليس قبل عشرة أعوام. بدت تلك السنوات مثل دهر كامل، لكن حين رأت المنزل مجدداً، أحست أن الوقت الذي أمضته بعيداً عنه اختفى في لحظة.

اشتاقت آنابيل إلى أمها مجدداً حين مرّت أمام غرفة نومها. مكثت في إحدى غرف الضيوف، وأعطت كونسويلو وبريجيت غرفتها القديمة لتلعب فيها كونسويلو. لكن في معظم الأوقات، ستكون خارج المنزل، مثلما فعلت آنابيل حين كانت في مثل عمرها. تتحرق شوقاً لأخذ كونسويلو للسباحة، وهذا ما فعلتاه بعد الظهر.

أخبرتها آنابيل أنها تعلمت السباحة هنا، مثلما تعلمت كونسويلو في نيس والأنتيب.

علّقت كونسويلو «المياه أكثر برودة هنا». لكنها أحبتها. أحبت اللعب في الأمواج، والمشي على الشاطئ.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، حين عادتا إلى المنزل من الشاطئ، تركتها آنابيل مع بريجيت. أرادت القيام بنزهة لوحدها. ثمة ذكريات لا تريد مشاركتها مع أحد. كانت تغادر المنزل حين ركضت كونسويلو على الدرج للانضمام إليها ولم تجرؤ آنابيل على القول لها إنها لا تستطيع المجيء. إنها سعيدة جداً هنا، تكتشف العالم القديم لأمها، المختلف كثيراً عن العالم الذي تعيشان فيه الآن، في منزلهما الصغير والمريح في الدائرة السادسة عشرة. كل شيء في عالمها القديم بدا كبيراً جداً الآن، وكذلك بالنسبة إلى ابنتها.

المنزل الذي أرادت رؤيته ليس بعيداً وحين وصلت إلى هناك لاحظت أن الأشجار نمت كثيراً، وكانت النوافذ مغلقة والمنزل في حال يائسة. أخبرتها بلانش أنه تم بيعه خلال العامين الماضيين، لكن بدا وكأن لا أحد يعيش هنا ولم يتم استعماله منذ فترة من الزمن. بدا مهجوراً. إنه منزل جوشيا القديم، حيث أمضت فصول الصيف من فترة زواجها. فكرت فقط فيه. ولاحظت كونسويلو أن هذا المنزل كان مهماً لأمها، بالرغم من

أنه صغير ومظلم، وبدا حزيناً.

«هل كنت تعرفين الأشخاص الذين عاشوا هنا، ماما؟».

قالت آنابيل بهدوء: «نعم». كادت تشعر به قربها فيما قالت الكلمات، وأملت أن يكون في سلام الآن. لقد سامحته منذ زمن. لم يبقَ أي شيء لتسامحه عليه. فعل أفضل ما في وسعه، وأحبها بطريقته. وأحبته هي أيضاً. لم يعد هناك أي شيء من خيبة الأمل والخيانة التي شعرت بها مع أنطوان أخيراً. ندوب ما حصل مع جوشيا اختفت قبل أعوام عدة.

سألت كونسويلو بحزن «هل مات أصحابه؟». هكذا تبدو الأمور نظراً إلى حالة المنزل.

«نعم، ماتوا».

«صديق عزيز». شعرت كونسويلو بالفضول بسبب منظر أمها لغاية الآن وانزعاجها من التواجد هنا. ترددت آنابيل لبرهة طويلة. لكن ربما حان الوقت. لا تريد الكذب بشأن ماضيها إلى الأبد. الكذبة أنها تزوجت بوالد كونسويلو كافية، وستخبرها حقيقة ذلك يوماً ما أيضاً، لن تخبرها أنه تم اغتصابها، وإنما أنهما لم يتزوجا. بعد أن اعترفت بها الليدي وينشاير رسمياً الآن، لن يكون الأمر فظيعاً بالرغم من أنه لا يزال شرحه صعباً.

قالت بهدوء: «كان هذا المنزل يخص رجلاً اسمه جوشيا ميلبانك». بينما نظرتا إلى الحديقة. لقد نمت الأعشاب في الحديقة، وبدت مهجورة تماماً، وهذه هي الحقيقة. «كنت متزوجة به. تزوجنا هنا في نيوبورت حين كان عمري تسعة عشر عاماً». نظرت إليها كونسويلو بعينين واسعتين، فيما اتكأتا إلى جذع شجرة قديم. «بقيت متزوجة به لعامين، وكان رجلاً رائعاً. أحببته كثيراً». أرادتها أن تعرف هذا الجزء أيضاً، وليس فقط ما حصل من خطب.

«ماذا حصل له؟». سألت كونسويلو بصوت هادئ. لقد مات الكثير من الأشخاص في حياة أمها. الجميع رحلوا.

«مرض كثيراً، وقرر أنه لا يريد البقاء متزوجاً بي. ظن أن هذا لن

يكون عادلاً لي، لأنه مريض جداً. ذهب إلى مكسيكو وطلقني، ما يعني أنه أنهى زواجنا».

«لكن ألم ترغبي بالبقاء معه حتى لو كان مريضاً للاهتمام به؟». بدت مصدومة، وابتسمت آنابيل فيما أومأت برأسها.

«بلى أردت ذلك. لكنه لم يشأ هذا. ظن أنه يفعل لي شيئاً جيداً لأنني كنت صغيرة جداً. كان أكبر مني بكثير. كبير كفاية ليكون والدي. وظن أنه يجدر بي الزواج بشخص آخر غير مريض وإنجاب الكثير من الأولاد».

قالت بفخر ثم عبر الحزن عينيها: «مثل والدي، لكنه مات هو الآخر». كل ذلك حزين جداً وجعلها تدرك، حتى في عمر السابعة، أهمية كل ما عاشته أمها وما وصلت إليه أخيراً، حية وكاملة وحتى طبيبة.

«على أي حال طلّقني وذهب إلى المكسيك». لم تخبرها عن هنري. لا تحتاج إلى معرفة ذلك. «وشعر جميع الذين كانوا هنا بالصدمة. ظنوا أنه طلّقني لأنني ارتكبت خطأ. لم يخبر أحداً أنه كان مريضاً، ولم أفعل أنا أيضاً. لذا، ظن الناس أنني فعلت شيئاً مريعاً، وكنت حزينة جداً. ذهبت إلى فرنسا، وبدأت العمل هناك في فترة الحرب. ثم التقيت بوالدك وأنجبتك. وعاش الجميع بسعادة بعد ذلك»، قالت بابتسامة، فيما أمسكت يد كونسويلو بيدها. إنها صيغة محرّفة قليلاً، لكنها كل ما تحتاج كونسويلو إلى معرفته. ولم يعد زواجها من جوشيا سراً. بدت الأمور أفضل بهذه الطريقة. لا تريد الاحتفاظ بأسرار، أو قول الأكاذيب لتغطيتها. وكانت عادلة مع جوشيا في الرواية. لطالما كانت عادلة معه.

«لكن لم تصرف الجميع بحقارة معك حين ذهب؟». بدا هذا مريعاً بالنسبة إلى كونسويلو، وغير عادل بالنسبة إلى أمها.

«لأنهم لم يفهموا. لم يعرفوا ما حصل فعلاً. لذا، قالوا قصصاً سيئة عن ذلك وعني».

«لماذا لم تخبريهم بالحقيقة؟». بدا هذا الجزء غير منطقي أبداً بالنسبة إليها.

dodyadodo
www.rewity.com

«لم يرغب بذلك. لم يشأ أن يعرف أحد أنه مريض». ولا أن يعرف الناس لماذا، علماً أن هذا مفهوم.

قالت كونسويلو: «هذه سخافة منه». ونظرت فوق كتفها إلى المنزل الفارغ.

«نعم صحيح».

«هل رأيته مجدداً؟».

هزّت آنابيل رأسها. «لا. مات في مكسيكو. كنت في فرنسا حينها».

«هل عرف الناس الحقيقة؟»، سألت كونسويلو وهي لا تزال تبدو شاردة. لم تحب هذا الجزء من القصة أبداً، حين كان الناس حقيرين مع أمها. لا بد من أنها شعرت بالكثير من الحزن حينها. حتى إنها تبدو حزينة الآن فيما تتكلم عن الموضوع.

أجابت آنابيل «لا، لم يعرفوا. حصل ذلك قبل وقت طويل».

قالت كونسويلو بفخر: «شكراً لك على إخباري ماما».

«كنت سأخبرك يوماً ما، حين تصبحين أكبر سناً».

قالت بهدوء: «أنا آسفة لأنهم كانوا حقيرين معك، أتمنى ألا يفعلوا ذلك بعد الآن». الشخص الوحيد الذي كان حقيراً مؤخراً هو أنطوان. ليس فقط حقيراً، وإنما وحشاً. كانت أسوأ خيانة على الإطلاق وأعادت فتح كل جروحها. التحدث إلى الليدي وينشاير عن الموضوع ساعدها كثيراً. ترى الآن كم كان أنطوان فعلاً شخصاً حقيراً ووضيعاً، إذا لم يستطع حبها، حتى مع ماضيها. ما كانت لتفعل الشيء نفسه معه. إنها شخص أكثر احتراماً.

«لا يهم الآن. فأنت إلى جانبي»، طمأنتها آنابيل، وهذا صحيح. كونسويلو هي كل ما تحتاج إليه.

وقفتا، وعادتا حينها إلى المنزل، وفي الأسابيع الثلاثة التالية لعبتا وسبحتا وفعلتا كل الأشياء التي فعلتها آنابيل حين كانت طفلة وأحبت ذلك كثيراً.

خلال الأسبوع الأخير، قررت آنابيل أخذ كونسويلو إلى نادي نيوبورت الريفي لتناول الغداء. إنه أحد الأمور القليلة الناضجة التي فعلتاها. باستثناء ذلك، تجنبت آنابيل الأماكن التي قد تلتقي فيها بأصدقائها القدامى. بقيتا مبدئياً في منزلهما، الكبير كفاية. لكن هذه المرة، قررتا الخروج، وهذه شجاعة من آنابيل.

فيما كانتا تغادران بعد الغداء، رأت آنابيل امرأة بدينة تتوجه نحو المطعم. بدت مغتاظة، وحمراء الوجه، وثمة مربية معها، وتقود ستة أولاد صغار مع طفل على وركها. كانت تصرخ على أحدهم، وكان الطفل يبكي، وقبعتها مائلة. وحين أصبحتا على مسافة إنشات قليلة من بعضهما، رأت آنابيل أنها صديقتها القديمة هورتي. صدمت المرأتان، وتوقفتا عن المشي، ووقفتا تحدقان إلى بعضهما.

«آه... ماذا تفعلين هنا؟»، سألت هورتي كما لو أن آنابيل لا تنتمي إلى هذا المكان. ثم حاولت إخفاء اللحظة الحرجة بابتسامة متوترة. كانت كونسويلو تقطب حاجبيها وتنظر إليها. لم تلاحظها حتى هورتي، وإنما كانت تحدق فقط إلى أمها كما لو أنها شبح.

«أنا هنا مع ابنتي للقيام بزيارة»، ابتسمت آنابيل لهورتي، وهي تشعر بالأسف عليها. «أرى أن مصنع الأولاد لا يزال قيد العمل»، مازحتها. حرّكت هورتي عينيها وتمتمت، وبدت لبرهة الصديقة التي أحبتها آنابيل كثيراً، ولم تتخلَّ عنها أبداً.

سألت هورتي باهتمام «هل تزوجت مجدداً؟»، ثم نظرت إلى كونسويلو.

«ترمّلت».

قالت كونسويلو بفخر: «وهي طبيبة». فيما ضحكت المرأتان.

«هل هذا صحيح؟». نظرت هورتي إلى آنابيل، متأثرة بحقيقة ذلك، لكنها عرفت أن آنابيل أحبت الأمور الطبية منذ كانت فتاة صغيرة.

«نعم. نعيش في باريس».

«هكذا سمعت. قيل لي إنك كنت نوعاً من بطلة خلال الحرب».

ضحكت آنابيل. «بالكاد. كنت مسعفة طبية، أقود سيارات الإسعاف إلى المستشفيات الميدانية لإحضار الرجال المصابين. ما من شيء بطولي في ذلك».

قالت هورتي: «يبدو لي هذا بطولياً». فيما دارت مجموعة أولادها حولها، وحاولت المربية إبقاءهم تحت السيطرة ولكن من دون جدوى. لم تعتذر هورتي على خيانتها ولم تقل إنها اشتاقت إليها، لكنها لاحظت ذلك في عينيها. سألت بحزن «هل ستبقين هنا لوقت طويل؟».

«بضعة أيام إضافية».

لكن هورتي لم تدعها للزيارة، ولم تقل إنها ستمرّ بمنزل آل ورثينغتون. عرفت أن جايمس لن يسمح لها أبداً. ظن أن آنابيل ستؤثر سلباً فيها. المطلّقات والساقطات غير مرحّب بهنّ في منزله، بالرغم من أن القصص حوله أسوأ بكثير.

لدقيقة، أرادت آنابيل أن تقول لها إنها اشتاقت إليها، لكنها لم تجرؤ. لقد فات الأوان. ورؤيتها على هذه الحال جعلتها حزينة. بدت هورتي بدينة، ومتعبة، ومرهقة، وغير جميلة. الفتاة الجميلة الشابة التي كانت عليها قبل أعوام عدة اختفت. أصبحت امرأة في خريف العمر مع مجموعة من الأولاد، وتخلّت عن أفضل صديقة لها. ستشتاق إليها آنابيل دوماً. مصادفتها كانت مثل رؤية الشبح. ودّعتا بعضهما من دون أي عناق، وكانت آنابيل هادئة حين غادرتا المطعم.

لم تتحدث كونسويلو إلا في طريق العودة إلى المنزل، ثم استدارت نحو أمها، وتحدثت بصوت خافت. «هل هذه واحدة من الأشخاص الذين قالوا أشياء حقيرة عنك؟».

«نوعاً ما. كانت أفضل صديقة لي في الطفولة وحتى ذلك الحين. يفعل الناس أشياء سخيفة أحياناً»، قالت آنابيل وهي تبتسم لها. «كنا مثل الشقيقتين حين كنا في مثل عمرك، وحتى حين كبرنا».

«إنها بشعة»، قالت كونسويلو وهي تشبك ذراعيها، وتقطب حاجبيها. كانت غاضبة للدفاع عن أمها. «وبدينة». ضحكت آنابيل، ولم تعلق.

«كانت جميلة جداً حين كانت شابة. لقد أنجبت الكثير من الأولاد».

قالت كونسويلو: «إنهم بشعون أيضاً، ويصدرون الكثير من الضجيج». وعانقت أمها.

«صحيح»، علّقت آنابيل. لم تتمكن هورتي أبداً من السيطرة على أولادها، حتى عندما كان لديها طفل واحد أو اثنان. بدا وكأن جايمس يبقيها حاملاً على الدوام.

بقية إقامتهما في نيوبورت كانت كل ما تمنتاه. إنها عودة حقيقية بالنسبة إلى آنابيل، وشعرت بالدفء في قلبها. فيما وضبتا أغراضهما للمغادرة، سألت كونسويلو أمها إذا كانتا تستطيعان العودة مجدداً. كانت آنابيل تفكر في الشيء نفسه، وشعرت بالسرور لأنها لم تبع المنزل. مرة جديدة، كانت الليدي وينشاير محقة. إنها محقة في العديد من الأمور. وخاتم الزمرد خاصتها لم يفارق أبداً يد آنابيل. إنه هدية عزيزة عليها، خصوصاً بعدما أصبحتا الآن صديقتين.

«كنت أفكر في أن نعود إلى هنا كل صيف لبضعة أسابيع. أو ربما لشهر. ما رأيك؟»، سألت آنابيل كونسويلو، فيما أغلقت بريجيت الحقائب.

«أودّ ذلك»، ابتسمت كونسويلو لأمها.

«وأنا أيضاً». فذلك يبقيها على ارتباط بالولايات المتحدة، ويؤسس رابطاً لابنتها. مع الوقت، تشفى كل الجروح. شعرت بالجروح في أثناء وجودها هنا. حتى لو أنهم ما زالوا يتحدثون عنها، ويتذكرون الفضيحة التي حصلت قبل أعوام، ينسى الناس أخيراً إذا حافظ المرء على شجاعته. أو على الأقل تخبو الصفات البشعة بحيث يتوقف الناس عن ملاحظتها كثيراً. لم يعد الأمر مهماً لها الآن. لقد حصلت الكثير من الأمور منذ ذلك الحين. لديها حياة كاملة خاصة بها في مكان آخر، مع منزل ومهنة وطفلة تحبها.

لكنها شعرت أيضاً أن جزءاً من ذاتها القديمة عاد إليها. وهو جزء من حياة قديمة تشتاق إليها.

أعادهنّ ويليام إلى بوسطن، وأخذن القطار إلى نيويورك. إنهن ينوين قضاء يومين هناك هذه المرة، وفعل بعض الأمور التي لم يفعلنها حين وصلن.

قال ويليام والدموع في عينيه مجدداً: «اعتني جيداً بنفسك آنسة آنابيل، هل ستعودين قريباً؟». لاحظوا جميعاً الوقت الجيد الذي أمضته. كانت هناك أوقات، على الشاطئ، أو في أثناء الركض في المرج مع كونسويلو، بدت فيها مثل فتاة صغيرة مجدداً.

«الصيف المقبل، أعدك». كان الوداع مع بلانش مليئاً بالدموع أيضاً، لكنها وعدتها بالشيء نفسه أيضاً.

عانق ويليام كلاً من كونسويلو وآنابيل وقبّلهما، ووقف يلوّح لهما من المنصة حتّى اختفتا عن ناظريه.

استقرت الأم وابنتها في مقصورتهما للرحلة إلى نيويورك. لقد عاشتا وقتاً رائعاً في نيوبورت وتخطى ذلك كل توقعات آنابيل.

الفصل السابع والعشرون

يوماهما الأخيران في نيويورك كانا زاخرين بالأعمال وإنما ممتعين. أخذت آنابيل كونسويلو إلى المسرح لمشاهدة مسرحية موسيقية وأحبتها. تناولتا العشاء في مطعم ساردي ووالدورف أستوريا، بأسلوب راقٍ. قامتا بجولة مائية حول مانهاتن، وأشارت آنابيل إلى مستشفى إيليس آيلند مجدداً، وأخبرت ابنتها المزيد عنها. وفي آخر بعد ظهر لهما، مرّتا أمام منزلها القديم مجدداً، لمجرد قول الوداع. وقفت آنابيل هناك لبرهة طويلة، تلقي التحية عليه، ولكل الذين عاشوا هنا، وحتى للجزء البريء من نفسها الذي ضاع. لم يعد لها أي علاقة بالفتاة التي كانت عليها آنذاك. لقد نضجت كثيراً.

ابتعدت هي وكونسويلو بهدوء، ومشتا يداً بيد. تعلمت كونسويلو الكثير عن أمها خلال هذه الرحلة، وعن جديها، وخالها روبرت، وحتى بعض أصدقاء أمها. لم تحب صديقتها في نيوبورت، تلك التي معها كل الأولاد. تكره معرفة أنها كانت حقيرة مع أمها وجعلتها حزينة. وشعرت بالأسف على الرجل الذي مات في مكسيكو. عرفت أن أمها أحبته.

هذه المرة، شعرت بريجيت بعصبية أقل حين صعدن على متن الموريتانيا للعودة. كانت السفينة مريحة وفخمة جداً في طريق العودة بحيث هدأت كثيراً. أحست آنابيل بشعور غريب حين مرّت أمام رصيف شركة وايت ستار لاين وكونارد. تذكرت فجأة حين جاءت لاصطحاب أمها قبل ثلاثة عشر عاماً، بعد غرق التايتانيك. لكنها لم تذكر الأمر لابنتها، ولا لبريجيت طبعاً، التي نجحت في التطرق إلى الموضوع على أي حال. وبختها آنابيل وتوقفت.

شعرت آنابيل أنها تترك جزءاً من قلبها خلفها فيما ابتعدت السفينة عن

تمثال الحرية مجدداً. لم تشعر أنها مرتبطة هكذا ببلدها منذ وقت طويل، وارتاحت لمعرفة أنهما ستعودان الصيف المقبل. تحدثت كونسويلو دوماً عن الموضوع في نيويورك. أحبت المنزل الصيفي، وتتحرق شوقاً للعودة إليه.

لا يوجد أحد تعرفه على متن السفينة هذه المرة. تحققت آنابيل من لائحة الركاب. لكنها لم تكن لتهتم. لا تخاف من أي شيء. لقد عادت إلى نيوبورت ونيويورك من دون التعرّض لأي حادث يذكر، ولم تعد تريد حماية أي أسرار. وإذا عرف أحد شيئاً ما عن ماضيها، ما الذي يستطيع فعله بها؟ لا يمكنه أن يأخذ منها منزلها، وحياتها، وعملها، وطفلتها. كل ما يمكنه فعله هو التحدث عنها، وما عاشته سابقاً. لا يملك الآخرون أي شيء تريده. حتى خيانة هورتي المؤلمة تقلّص حجمها خلال هذه الرحلة حين رأتها. جميع الأشخاص الذين آلموها قبلاً اختفوا تقريباً، ولم تعد تريد أي شيء منهم. لا يستطيعون أخذ أي شيء منها. لديها حياتها، وهي حياة جيدة.

زارت آنابيل وكونسويلو حجرات الحيوانات الأليفة مجدداً، مثلما فعلتا في الرحلة الماضية. لا يوجد جرو صغير هذه المرة وإنما عدد من البكين والبودل. اشتاقت كونسويلو إلى جروها كوكو، وتتحرق شوقاً للعودة إليه. وعدتها أمها بقضاء عطلة نهاية أسبوع في دوفيل حين تعودان إلى المنزل. حتى تأثير أنطوان في آنابيل اختفى خلال هذه الرحلة. إنه رجل مزعج وضيق التفكير، عاش في عالم صغير من الأشخاص أصحاب الأفكار الضيقة. لا مكان لها في هذا العالم. ولا مكان له في عالمها.

كانتا عائدتين من حجرات الحيوانات الأليفة، وتوقفتا أمام الدرابزون للنظر إلى البحر. تطاير شعر كونسويلو الأشقر الطويل في الهواء، وطارت قبعة آنابيل عن رأسها، وتدحرجت مثل الدولاب على متن الباخرة فيما لحقتا بها وهما تضحكان. كان شعر آنابيل لا يزال أشقر مثل شعر ابنتها، وتوقفت القبعة أخيراً أمام قدمي رجل حملها وسلّمها إليهما مع ابتسامة عريضة.

«شكراً»، قالت آنابيل وهي منقطعة الأنفاس، وابتسمت ابتسامة

طفولية. لقد دفعتهما القبعة إلى الركض بفوضوية. أصبح وجهها أسمر نتيجة التعرّض للشمس في رود آيلند. اعتمرت القبعة مجدداً، في زاوية منحنية قليلاً.

حذرها الرجل «أظن أنها ستطير مجدداً». وافقت ونزعتها، فيما بدأت كونسويلو محادثة معه.

أعلنت لاستهلال المحادثة «جدي وخالي ماتا في التايتانيك» فنظر إليها بحزن.

«آسف جداً لسماع ذلك. وكذلك مات جدّاي. ربما التقوا معاً». إنها فكرة محيّرة. «حصل ذلك قبل زمن بعيد. قبل أن تولدي، حسبما أظن».

قالت: «أنا في السابعة من عمري» مما أكّد ظنونه «وجرت تسميتي تيمناً بجدتي لأمي. إنها ميتة أيضاً». حاول عدم الابتسام على المحادثة، وبدا وكأن عائلتها كلها انقرضت. أضافت «وكذلك والدي مات، مات في الحرب قبل أن أولَد».

«كونسويلو!». وبختها آنابيل، مذهولة. لم تسمعها أبداً تعطي هذا القدر من المعلومات، وأملت ألا تفعل ذلك غالباً. «أنا آسفة». استدارت نحو الرجل الذي أعطاها القبعة. «لا نريد إعطاءك لمحة عن وفياتنا». كانت تبتسم له، وابتسم لها.

قال لكونسويلو بلطافة: «عرفت بلا شك أنني صحافي».

«ما هذا؟». اهتمت في ما يريد قوله.

«أكتب للصحف. أو في الواقع، أنشر واحدة. الهيرالد تريبيون إنترناشيونال في باريس. لن تقرأيها إلا حين تصبحين أكبر سناً». ابتسم لهما مجدداً.

«أمي طبيبة». كانت تتابع المحادثة معه لوحدها، وبدت آنابيل محرجة قليلاً.

«حقاً؟»، قال باهتمام وعرّف عن نفسه، وقال إن اسمه هو كالام

ماكافري، أصله من بوسطن، ويعيش الآن في باريس.

عرّفته آنابيل على نفسيهما أيضاً، وتطوعت كونسويلو للقول إنهما تعيشان في باريس أيضاً، في الدائرة السادسة عشرة. قال إنه يعيش في شارع الجامعة، في الضفة اليسرى. منزله قرب كلية الفنون الجميلة، تعرف آنابيل المنطقة جيداً.

دعاهما لتناول الشاي، لكن آنابيل قالت إنه عليهما العودة إلى حجرتهما، لارتداء الملابس للعشاء. ابتسم لهما فيما ابتعدتا عنه. رأى أن الفتاة الصغيرة رائعة، والأم جميلة جداً. لا تبدو مثل طبيبة. لقد أجرى مقابلة مع إلسي إينغليس قبل أعوام عدة، ولا تبدو آنابيل مثلها إطلاقاً. سُرّ لمدى تحرر ابنتها في إعطاء معلومات عن العائلة، ولفته حزن أمها نوعاً ما.

رآهما في غرفة الطعام تلك الليلة، لكنه لم يقترب منهما. لا يريد التطفل. لكنه لاحظ آنابيل على متن الباخرة لوحدها في اليوم التالي، وهي تمشي بهدوء لوحدها. ذهبت كونسويلو للسباحة مع بريجيت. وهذه المرة، كانت آنابيل تعتمر قبعة مربوطة تحت ذقنها.

«أرى أنك قمت بتثبيت قبعتك جيداً»، قال وهو يبتسم لها فيما توقف لبرهة للوقوف قربها أمام الدرابزون. استدارت نحوه مبتسمة.

«الهواء أقوى مما كان الشهر الماضي حين جئنا». إنها نهاية شهر يوليو.

«أحب هذه الرحلات بالرغم من خساراتنا المتبادلة في البحر والمآسي العائلية. يمنحك ذلك فرصة لالتقاط أنفاسك بين حياتين وعالمين. من الجميل امتلاك بعض الوقت لفعل ذلك أحياناً. هل بقيت في نيويورك طوال الوقت؟»، سأل باهتمام. من الممتع التحدث إليه.

«نوعاً ما. ذهبنا إلى نيوبورت خلال الأسابيع القليلة الماضية».

ابتسم لها. «كنت في كاب كود. أحاول العودة كل صيف. يعيدني ذلك إلى طفولتي».

«هذه الزيارة الأولى لابنتي».

«وكيف كانت؟».

«لقد أحبتها. تريد العودة إلى نيوبورت كل صيف». ثم أعطته بعض المعلومات عن نفسها. «لم أعد إلى هنا منذ عشرة أعوام».

«إلى نيوبورت؟». لم يفاجئه ذلك.

«إلى الولايات المتحدة». لكن هذه المعلومة فاجأته.

«هذا وقت طويل». إنه رجل طويل القامة ذو شعر أشيب قليلاً، وعينين بنيتين، ووجه منحوت، وفي أوائل العقد الرابع تقريباً. بدا ذكياً أكثر مما هو وسيم، بالرغم من أن مظهره جميل. «لا بد من أنك كنت مشغولة جداً للبقاء بعيدة طوال هذه المدة. أو غاضبة من شيء ما»، أضاف، بروح الصحافي الجيد، وضحكت.

«لم أعد غاضبة. انتهى كل شيء. حققت حياتي في فرنسا. ذهبت للتطوع في الجبهة، في مستشفى، ولم أعد أبداً. لا أظن أنني اشتقت. لكن عليّ الاعتراف أنه من الجميل العودة إلى الوطن وإظهار المعالم القديمة لابنتي».

سألها «هل أنت أرملة؟». إنه افتراض بديهي لأن كونسويلو أخبرته أن والدها ميت، وهو كذلك طوال سنوات عمرها السبع. بدأت آنابيل تومئ برأسها، ثم توقفت. لقد سئمت من الأكاذيب، خصوصاً تلك التي لا تحتاج إلى قولها، لحماية شخص ما، أو حتى نفسها.

«مطلقة». لم يتفاعل مع ذلك، لكنه بدا مرتبكاً. إنه اعتراف مذهل نوعاً ما. لكن بدا أنه لا يبالي.

«ظننت أن ابنتك قالت إن والدها مات». نظرت إليه آنابيل لبرهة طويلة، وقررت قول الحقيقة. لا تملك شيئاً لتخسره. إذا صُدم ومشى بعيداً، لا تبالي إذا لم تره أبداً مجدداً. لا تعرف هذا الرجل.

قالت بهدوء وإنما بحزم: «لم أكن متزوجة بوالدها». إنها المرة الأولى التي تقول فيها ذلك لأي كان. في الدوائر التي ترعرعت فيها،

يمكن لذلك أن ينهي المحادثة على الفور ويتجاهلها الآخرون فوراً.

لم يُجب لبرهة ثم أومأ برأسه ونظر إليها بابتسامة. «إذا كنت تتوقعين مني أن يغمى عليّ، أو أقفز من الباخرة بدلاً من إليك، أخشى أن يخيب أملك. أنا مراسل. سمعت الكثير في حياتي. وأعيش في فرنسا. يبدو هذا الأمر شائعاً كثيراً هناك، بالرغم من أنهم لا يعترفون به. ينجبون الأطفال من زوجات الآخرين». ضحكت، وتساءل ما إذا كانت هذه هي حالها وسبب طلاقها. إنها امرأة لافتة. «أعتقد أن الأمر يحصل أكثر مما نعتقد أو نرغب بتصديقه، حتى في أميركا. ينجب الناس الأولاد من أشخاص يحبونهم لكنهم لا يتزوجون بهم. طالما لا يتأذى أحد، من أنا لأقول إن هناك مشكلة في ذلك؟ لم أتزوج أبداً شخصياً». إنه رجل واسع الأفق.

أضافت آنابيل «لم أحبه، إنها قصة طويلة. لكن الأمور سارت على ما يرام بعدها. كونسويلو هي أفضل شيء في حياتي». لم يعلّق، لكنه بدا راضياً عما قالته.

«أي نوع من الطبيبات أنت؟».

قالت مبتسمة: «طبيبة جيدة»، فضحك لها.

«أفترض ذلك. لكنني قصدت الاختصاص». عرفت ما كان يقصده، لكنها أحبت المزاح معه. من الممتع التحدث إليه. إنه منفتح وحنون وودود.

«الطب العام».

«هل مارست الطب في الجبهة؟». لا يظن أنها كبيرة كفاية لتكون قد فعلت ذلك.

«بصفتي مسعفة طبية، بعد سنة واحدة في كلية الطب. أنهيت التخصّص في الطب بعد الحرب». فاجأه أنها لا تريد ممارسة الطب في الولايات المتحدة، لكنه فهم السبب. أحب باريس هو الآخر. عاش هناك حياة أكثر غنى من تلك التي عاشها في نيويورك أو بوسطن.

«ذهبت لأعمل مراسلاً للبريطانيين في بداية الحرب. وبقيت في

أوروبا منذ ذلك الحين. عشت في لندن لعامين بعد الحرب، ومضى الآن على وجودي في باريس خمسة أعوام. لا أظن أنني أستطيع العودة للعيش في الولايات المتحدة. حياتي جيدة جداً في أوروبا».

وافقت آنابيل، «أنا الأخرى لا أستطيع العودة». ولا تملك سبباً للعودة. حياتها في باريس الآن. وحده تاريخها بقي في الولايات المتحدة، والمنزل الصيفي.

تحدثا لبعض الوقت الإضافي، ثم ذهبت للعثور على كونسويلو وبريجيت في حوض السباحة. رأته مجدداً تلك الليلة، فيما كانت تغادر غرفة الطعام بعد عشاء مبكر. كان داخلاً للتو، وسأل آنابيل إذا كانت تودّ شرب شراب لاحقاً. ترددت، فيما راقبتهما كونسويلو معاً، ثم وافقت. اتفقا على اللقاء في مقهى فيراندا عند التاسعة والنصف. ستكون كونسويلو في سريرها حينها، وهي بالتالي حرة.

قالت كونسويلو بطريقة بديهية: «إنه يستلطفك». فيما عادتا إلى غرفتهما. «إنه لطيف».

لم تعلق آنابيل. لكنها ظنت الشيء نفسه عن أنطوان، وكانت غير مصيبة. إلا أن كالام ماكافري من نوع مختلف، ويملكان الكثير من الأمور المشتركة معاً. تساءلت لماذا لم يتزوج أبداً، وأخبرها تلك الليلة، فيما ارتشفا الشراب الخفيف في مقهى الفيراندا المفتوح على هواء البحر.

«وقعت بغرام ممرضة في إنكلترا خلال الحرب. قتلت قبل أسبوع واحد من توقيع الهدنة. كنا سنتزوج، لكنها لم تشأ فعل ذلك إلا بعد انتهاء الحرب. احتجتُ إلى وقت طويل حتى أتعافى». مضى على ذلك ستة أعوام ونصف. «كانت امرأة مميزة جداً. من عائلة مهمة جداً، لكنك لا تعرفين ذلك. كانت متواضعة جداً، وعملت بكدّ أكثر من أي شخص آخر عرفته. أمضينا وقتاً جيداً معاً». لا يبدو حزيناً جداً على ذلك، وإنما لا تزال الذكرى عزيزة عليه. «أزور عائلتها بين الحين والآخر».

«والد كونسويلو كان بريطانياً. لكنني أخشى أنه لم يكن رجلاً لطيفاً.

إلا أن أمه رائعة. قد نزورها في شهر أغسطس».

قال لها: «حين يكون البريطانيون رائعين، يعتبرون مذهلين، لا أتفق دوماً مع الفرنسيين أيضاً». ضحكت آنابيل بحزن، وفكرت في أنطوان، لكنها لم تقل أي شيء. «ليسوا دوماً صريحين، ويميلون أكثر إلى التعقيد».

«أظن أنني أوافقك الرأي في هذا، في بعض الحالات. إنهم أصدقاء وزملاء رائعون. لكنهم شيء آخر في الحياة العاطفية». لاحظ من القليل الذي قالته أنها ممزقة الفؤاد، من رجل فرنسي على الأرجح. لكن والد كونسويلو البريطاني لا يبدو جيداً هو الآخر. بدا له أن آنابيل حظيت بحصة كافية من الأحزان في حياتها. وقد حظي هو الآخر بالشيء نفسه، إضافة إلى فيونا، الممرضة التي أحبها. وهو يعيش الآن وحيداً منذ فترة. إنه يأخذ إجازة من الحياة العاطفية. حياته أكثر بساطة بهذه الطريقة، وهذا هو الاستنتاج نفسه الذي توصلت إليه آنابيل.

تحدثا عن الحرب قليلاً، وعن السياسة في أميركا، وبعض تجاربه في الصحافة، وتجاربها في الطب. رأت أنه صديق جيد على الأقل. رافقها إلى غرفتها في النهاية، وتمنى لها ليلة طيبة ودودة وإنما مهذبة.

دعاها لشرب شراب في اليوم التالي، وأمضيا وقتاً جيداً. لعب لعبة الأقراص الخشبية مع آنابيل وكونسويلو في آخر يوم من الرحلة، ودعته لتناول العشاء معهما تلك الليلة. اتفق وكونسويلو بشكل جيد، وأخبرته كل شيء عن جروها، ودعته للمجيء ورؤية الجرو، فيما لم تعلق آنابيل أبداً.

تناولا شراباً مع بعضهما تلك الليلة، وفيما كان يرافقها إلى حجرتها، قال لها إنه يودّ زيارتهما لرؤية الجرو. يملك هو الآخر لابرادور. ضحكت آنابيل على ما قاله.

قالت له: «يمكنك المجيء لرؤية الجرو في أي وقت، كما يمكنك المجيء لرؤيتنا».

قال وعيناه تشعّان بريقاً: «حسناً، اهتمامي الأساسي هو الجرو، لكن أظن أنني لا أمانع من رؤيتكم جميعاً، إذا لم يمانع الجرو». نظر بعدها بحنان إلى آنابيل. لقد عرف عنها الكثير من الأمور خلال الرحلة، أكثر مما تعرف هي. هذه مهنته. أحسّ بالألم والتجارب التي عاشتها. نساء من مستواها لا يتركن منازلهن في عمر الثانية والعشرين، ويتطوعن للذهاب ثلاثة آلاف ميل بعيداً عن المنزل، للخدمة في حرب ليست حربهن. ولا يبقين هناك بعد ذلك، ويخترن المهنة التي اختارتها، إلا إذا حصلت أمور سيئة جداً لهن في الوطن. ولديه الإحساس أن الكثير من الأمور حصلت أيضاً بعد ذلك الحين. كان واثقاً أنها ليست من نوع النساء اللواتي ينجبن أطفالاً خارج الزواج، لو كانت تملك خياراً آخر. ويبدو أنها جعلت الأمر ينجح قدر المستطاع، وكل ما حصل معها في حياتها. إنها امرأة صالحة. هذا ظاهر عليها، وأمل في رؤيتها مجدداً.

قال بتهذيب: «أود الاتصال بك حين نعود». لم تكن صارمة، وإنما دوماً مهذبة وحسنة التصرف، وأحب ذلك فيها أيضاً. ذكّرته بفيونا نوعاً ما، بالرغم من أن آنابيل أصغر سناً وأكثر جمالاً. لكن ما أحبه خصوصاً في فيونا، والآن في آنابيل، هو ما يوجد في الداخل. يمكن المعرفة أنها امرأة صاحبة عزيمة ومبادئ، ومعنويات عالية، وقلب كبير، وعقل سليم. لا يطلب الرجل أكثر من ذلك، وإذا صادفت في طريقك امرأة مثل آنابيل، فلا تفوّت فرصة التعرف إليها أكثر. فالنساء مثلها لا يُصادَفن غالباً في الحياة. إنه محظوظ أصلاً لأنه عرف واحدة مثلها في حياته، وعرف أنه إذا أتيحت له فرصة اللقاء بأخرى، لن يفوّت الفرصة أبداً.

قالت له آنابيل: «سنكون في باريس، قد نذهب إلى دوفيل لبضعة أيام. وعدت كونسويلو بذلك. وربما إلى إنكلترا لرؤية عائلة والدها قليلاً. لكننا سنكون هناك. عليّ العودة إلى العمل قبل أن ينسى مرضاي وجودي». لا يتخيل أن ينساها أي شخص يتعرف إليها. ولا ينوي خسارتها.

«ربما نستطيع نحن الثلاثة فعل شيء ما في عطلة نهاية الأسبوع هذه، مع الجرو طبعاً. لا أريد إيذاء مشاعره». ابتسمت له آنابيل. عطلة نهاية

الأسبوع بعد أيام قليلة فقط، وأحبت الفكرة. في الواقع، أحبت كل ما عرفته عنه خلال الرحلة. ولديها إحساس جيد حياله، إحساس بالصلابة والمبادئ والحنان واللطافة. احترامهما لبعضهما متبادل لغاية الآن. إنها بداية جيدة، أفضل من كل البدايات التي عرفتها. صداقتها الأخوية مع جوشيا كان يجب أن تنذرها بشيء ما لم تفهمه حينها. وألاعيب أنطوان المذهلة منذ البداية غمرت قلباً فارغاً. لكنّ كالام رجل مختلف تماماً.

تمنيا ليلة سعيدة لبعضهما خارج الحجرة. وفي صباح اليوم التالي، نهضت وارتدت ثيابها باكراً، مثلما فعلت حين وصلت إلى أوروبا قبل عشرة أعوام، حين تركت نيويورك يائسة. لا يوجد يأس هذه المرة، ولا حزن، فيما استندت إلى الدرابزون وراقبت شروق الشمس. رأت لو هافر في البعيد، ستصل السفينة بعد ساعتين.

فيما نظرت إلى المحيط، أحست بالكثير من الحرية، بالتحرر أخيراً من قيودها. لم تعد ترزح تحت عبء آراء الأشخاص الآخرين، أو أكاذيبهم عنها. إنها امرأة حرة، وامرأة صالحة، وهي تعرف ذلك.

فيما أشرقت الشمس في سماء الصباح، سمعت صوتاً قربها واستدارت لترى كالام.

قال بهدوء فيما التقت عيونهما وابتسما: «أحسست أنني سأجدك هنا، صباح جميل، أليس كذلك».

«نعم صحيح»، قالت واتّسعت ابتسامتها. إنه صباح جميل. إنهما شخصان جيدان. والحياة جميلة.